المفاهيم المثلى

في ظلال
شرح أسماء الله تعالى الحسنى

لأبي لؤي

وليد بن محمود بن حسن

غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين

إذا استغنى الناس بالدنيا ، فاستغن أنت بالله ..

وإذا فرحوا بالدنيا ، فافرح أنت بالله . .

وإذا أنسوا بأحبائهم ، فأنس أنت بالله . .

وإذا تقربوا إلى ملوكهم وكبرائهم ، فتقرب أنت إلى الله ..

وإذا أطاعوا أهواءهم ، فأطع أنت الله ..

وكن دومًا بالله ، ومع الله ، وإلى الله ..

■ قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى :

« لا سعادة للعباد، ولا صلاح لهم، ولا نعيم،

إلا بأن يعرفوا ربهم..

ويكون هو وحده غاية مطلوبهم ..

والتعرف إليه قرة عيونهم . .

ومتى فقدوا ذلك ،

كانوا أسوأ حالاً من الأنعام . .

وكانت الأنعام أطيب عيشًا منهم فى العاجل ..

وأسلم عاقبة فى الآجل .. »

[مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٤٧)]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

الحمد لله الذى شهدت له بالربوبية جميع مخلوقاته، وأقرت له بالعبودية جميع مصنوعاته، وأدت له جميع الكائنات الشهادة : أنه الله الذى لا إله إلا هو الملك الحق . وسبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته. ولا إله إلا الله ، الأحد الصمد ، الذي اتصف بصفات الكمال ، وتقدس عن كل نقص ومحال، وتعالى عن الأشباه والأمثال. حرام على العقول أن تصفه، وعلى الأوهام أن تكيفه، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير. والله أكبر عدد ما أحاط به علمه، وجرى به قلمه، ونفذ فيه حكمه.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، الحكيم، العليم، تفويض عبد لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل هو إلى الله ، وبالله، فى مبدأ كل أمر ومنتهاه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الملك الحق، العلى الكبير، تعالى فى ربوبيته وإلهيته عن الشريك والمشير، وتقدم فى أحديته وصمديته عن الصاحبة والولد والوالد والولى والنصير، وتنزه فى صفات كماله عن الكفء والنظير، وعز فى سلطان قهره وكمال قدرته عن المنازع والمجير. وجل فى غناه وقيومته عن المعطى والمعين، سبحانه هو العلى القدير.

سبحانه فاطر السموات العُلى ، ومُنشئُ الأرضين والثرى ، لا مُعقب لحكمه، ولا راد لقضائه ، ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ .

سبحانه الذى خلق الخلق حين أراد بلا معين ولا مشير، وخلق البشر بلا شبيه ولا نظير ، فمضت فيهم بعزته إرادته ، ونفذت فيهم بقدرته مشيئته ، فألهمهم حسن الإطلاق ، وركب فيهم تشعب الأخلاق ، فهم على طبقات أقدارهم يمشون، وعلى تشعب أخلاقهم يدورون ، وفيما قُدِّرَ وقضى عليهم يهيمون، و﴿ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، سيد المرسلين، وخير البشر أجمعين، المرسل إلى الناس كافة بالدين الحق، والهدى القويم. الذى قام بتبليغ الرسالة عن ربه حق القيام وجاهد فى سبيله حق الجهاد، وعبد ربه حتى أتاه اليقين .

حامل لواء العِزِّ فى بنى لُؤى، وصاحب الطَّوْدِ المنيف فى بنى عبد مناف بن قُصى، الذى دمغ الله به الطغيان، وقمع به أهل الأوثان، وأكمل به الإيمان ، فصلى الله عليه وسلم ما دار فى السماء فَلَك وما سبح فى الملكوت مَلَك، وعلى آله وصحبه الأبرار الأطهار الطيبين ، شموس الهداية وأوعية العلم وأنصار الدين القويم، وعلى من اقتفى أثرهم واتبع سيرهم ، وسلك صراطهم المستقيم، وجعلنا ـ سبحانه ـ من المقتدين بهم، المهتدين بهديهم، المتمسكين بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، نقف معهما ، وبسيرهما نسير .

أما بعد

فإن أشرف الغايات فى هذه الحياة الدنيا هى : النجاة من العذاب المقيم، والفوز بجنة النعيم، ورؤية وجه ربنا العظيم، ولذلك كانت دعوة أولي الألباب ، أصحاب العقول الراجحة، عندما تفكروا فى خلق السموات والأرض هى: ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣)** ﴾[١] . فكانت غايتهم، كما دلت عليها دعوتهم : النجاة من النار ، ودخول الجنة مع الأبرار.

ولكن هذه الغاية لن تتحقق ، ولن يبلغها العبد إلا بالعمل، كما أجابهم ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ** ﴾[٢] .

---

(١) آل عمران : ١٩١ ـ ١٩٣ .

(٢) آل عمران : ١٩٥ .

وكما قال ـ سبحانه ـ في آية أخرى : ﴿ وأَن لَّيْسَ للإنسَانِ إلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ [١]
وكما قال ـ سبحانه ـ أيضًا عن عباده المؤمنين : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٢] فلا تكفى الأماني والدعاء، ولا يكفى مجرد الخشوع والارتجاف، لا يكفى ذلك كله بدون العمل، كما نرى بوضوح في هذه الآيات الثلاث.

وهذا العمل الذى يؤدى إلى النجاة، لن يستطيع العبد أن يبلغه إلا بالعلم، فالعمل بغير علم لا يكون. ولهذا قال ﷺ : « طَلَبُ العلمِ فَريضةٌ على كُلِّ مُسلمٍ »[٣] وقال : « مَن يُردِ اللهُ به خَيراً يُفقههُ فِي الدينِ »[٤] . وهذا الحديث الأخير يدل على أن الله تعالى إذا لم يرد بعبده خيرًا، لم يفقهه فى أمور دينه. والفقه فى الدين الذى ينفعك فى الآخرة هو العلم المستلزم للعمل، وليس مجرد العلم بدون عمل، فعلم لا يبعدك اليوم عن المعاصى، ولا يحملك على الطاعات، لن يبعدك غدًا عن نار جهنم ، وقد أشار الله عز وجل إلى هذه الحقيقة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [٥]. فأشار ـ سبحانه ـ إلى أن العلم هو الخشية، فمن لم يخش الله ـ عز وجل ـ ويبعد عن سخطه بكل طريق ، فليس بعالم فى الحقيقة، ولو قرأ العلم مائة سنة ، وجمع ألف كتاب .

وقد شبه الله ـ عز وجل ـ العالم الذى لا يعمل بعلمه بالحمار ، فقال : ﴿ كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أَسفَارًا ﴾ . [٦] .

والأسفار هى : كتب العلم، فهل ينتفع الحمار بكتب العلم ؟! .

---

(١) النجم : ٣٩. (٢) الزخرف : ٧٢ .

(٣) رواه الطبرانى وغيره، ورغم أن هناك إشكالاً معروفًا فى تصحيحه، إلا أن معناه صحيح إذا حملت لفظة العلم فيه على ما هو فرض عين ، هذا وقد صححه الألبانى فى (صحيح الجامع/٣٩١٣)

(٤) متفق عليه من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه .

(٥) فاطر : ٢٨ . (٦) الجمعة : ٥ .

والذى يحفظ القرآن ولا يعمل به، ويحفظ السنة ولا يقتدى بها إن مثل هذا قد ارتفعت عنه بركة العلم، وبقيت عليه حجته .

إذا فهمنا ما مضى، تبين لنا بوضوح وجلاء أن أشرف الغايات وأجلّها في هذا الوجود هو العلم المؤدى إلى النجاة فى الآخرة.

ويكفى فى شرف العلم وفضله قوله ـ عز وجل ـ لرسوله ﷺ : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾[1] . فلو كان هناك شىء أشرف وأجل من العلم لأمر ـ عز وجل ـ نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه، كما أمره أن يستزيده ـ سبحانه ـ من العلم.

ويكفى أهل العلم شرفًا وفضلاً أن الله ـ تعالى ـ قد قرن اسمهم باسمه تعالى المقدس، واسم ملائكته الأبرار ، فى قوله تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[2] فذكر ـ سبحانه ـ شهادتهم دون غيرهم من البشر؛ لفضلهم وعلو مكانتهم عنده ـ سبحانه ـ على سائر البشر ، لأنه كما قال ـ تعالى ـ فى آية أخرى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾[3] ، فهما لا يستويان بالقطع، وكذلك قرن سبحانه شهادته وشهادة ملائكته بشهادتهم، وفى هذا أعظم وأجل وأسمى تزكية لهم، وفى هذا أشرف إعلاء لشأنهم فحقًّا كما قال تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾[4] .

فليفرح أهل العلم بهذا كله، فحق لهم أن يفرحوا، وحق لهم أن يسعدوا .

هذا وغير العالم بدين الله ـ تعالى ـ قد يقع فى خطر كبير، لأن النفس البشرية فى الغالب لا يمكنها الصبر على ما تجهله، ولذا فهى تندفع وتتهور في كثير من المواطن التى لا علم لها بها، مما يجر عليها العواقب الوخيمة. وقد بدا هذا المعنى

---

(١) طه : ١١٤ .
(٢) آل عمران : ١٨ .
(٣) الزمر : ٩ .
(٤) المجادلة : ١١ .

جليًّا فى رد الخضر على نبى الله موسى ـ عليهما السلام ـ وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) ﴾[١] .

فالعلم هو السبيل إلى العمل الصحيح، والعمل الصحيح المقبول هو السبيل إلى النجاة ـ إن شاء الله تعالى ـ .

ولأن شرف كل علم يكون بحسب ما يتعلق به هذا العلم، كان أشرف العلوم وأجلها هو العلم الذى يتعلق بالله ـ جل وعلا ـ ويعرفك به ـ سبحانه ـ يعرفك بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، التى أثبتها ـ عز وجل ـ لنفسه فى كتابه وأثبتها له رسول الله ﷺ فى سنته . وقد قال علماؤنا: إن حظ العبد من العبودية لله ـ عز وجل ـ يكون على قدر معرفته بأسمائه ـ سبحانه ـ وصفاته. وقالوا أيضًا: إن الإيمان بالأسماء والصفات الواردة فى الكتاب والسنة ليؤدى مهمة كبيرة ودورًا عظيمًا في هداية القلب البشرى ، وربطه بربه ـ جلا وعلا ـ فهى تتعدد وتتكرر فى الكتاب والسنة لتحيط بالقلب البشرى من جميع اتجاهاته ، وفي جميع أحواله ، فحيثما فكر ، وأينما توجه ، وجد ربه ـ عز وجل ـ تجاهه فلو أراد الرزق مثلا، وجد أن الله ـ عز وجل ـ هو الرزاق المتين. ولو أراد الذرية، فالله ـ عز وجل ـ هو الذي يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور. ولو أراد النصر على عدوه، فالله ـ عز وجل ـ هو الذى بيده النصر، وما النصر إلا من عنده سبحانه. ولو أراد العزة فإن الله ـ عز وجل ـ هو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء. ولو أراد السلام والحفظ، فالله ـ عز وجل ـ خير حافظًا. ولو أراد الانتقام من أعدائه وأعداء الدين فالله ـ عز وجل ـ هو المنتقم الجبار ، وهو سبحانه وحده المستعان. ولو أراد البركة والخير فالله ـ عز وجل ـ هو البَّر الرحيم الذى بيده الخير كله. ولو أراد العلم، فالله ـ عز وجل ـ هو العليم الخبير الذى يُعَلِّمُ عباده ما ينفعهم. ولو همَّ بمعصية، فالله ـ عز وجل ـ هو السميع البصير، الرقيب الحسيب . وهكذا فى كل اسم

---

(١) الكهف : ٦٧، ٦٨ .

ومع كل صفة يجد الله ـ عز وجل ـ تجاهه فى كل حين، وعلى كل حال، فيهدأ قلبه ويطمئن، ويستحى أن يأتى بفعل يغضب ربه تعالى، ويعود عليه بالأضرار البالغة فى الدنيا والآخرة .

فلما تبين لى كل ما سبق، رأيت أنه لابد وأن أقوم بعمل بحث فى هذا الموضوع، موضوع أسماء الله ـ تعالى ـ الحسنى، يكون عونًا لى على جمع وفهم هذه الأسماء بصورة طيبة .

ثم قمت بعد ذلك بإعادة النظر فى هذا البحث وتهذيبه وإعادة ترتيبه وتبسيطه، وأضفت إليه بعض المفاهيم الشرعية التى لها علاقة بأسماء الله تعالى الحسنى، حتى خرج فى هذه الصورة التى أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل فيها النفع العظيم لى ولجميع إخوانى فى الدنيا والآخرة .

■ منهج الكتاب :

١ ـ قمت بجمع تسعة وتسعين اسمًا لله ـ عز وجل ـ بأدلتها من الكتاب والسنة .

وسبب جمعى لهذا العدد من الأسماء، هو قوله ﷺ : « **إنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الـجَنَّة**»[١] .

٢ ــ قمت بتقسيم هذه الأسماء إلى عدة أقسام ، كل قسم يضم الأسماء التى تشترك مع بعضها فى معنى عام ، كالعفو والغفور والتواب والغفار مثلاً ، فهذه الأسماء تشترك فى معنى عام هو : العفو والمغفرة .

٣ ــ ذكرت فى بداية كل قسم الأسماء التى تتبع هذا القسم، مع شرح المعنى الخاص لكل اسم، ثم اتبعت ذلك بشرح عام حول هذه الأسماء .

وقد تناولت عند الشرح العام ، كثيراً من المفاهيم الشرعية المهمة، التى يجب

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ وستجد هذه الأسماء وأدلتها فى جزء مستقل ملحق بنهاية الرسالة وهو الضميمة الثانية .

على كل مسلم معرفتها وفهمها، والتى يكون لها علاقة بهذه الأسماء، وذلك بحسب ما تيسر لى .

٤ ـ الأسماء التى لها أكثر من معنى ، أكتفى بذكر المعنى الذى يتعلق بالقسم الذى أنا بصدده، وقد أكرر الاسم الذى يحتمل أكثر من معنى فى أكثر من قسم، وذلك بحسب معناه، مثل اسم الله ـ عز وجل ـ (الحسيب) .

٥ ـ تناولى للأسماء يكون بتعريف الاسم، وشرحه بإيجاز، بحيث يكون القارئ على بينة منه وفهم. وقد أتغاضى عن هذا النهج قليلاً فى بعض الأسماء، كالإله، والرب، فأُفَصِّلُ الكلام قليلاً وأبسطه، لحاجته إلى ذلك .

٦ ـ ألحقت بهذا الكتاب جزءًا مستقلا ـ وهو الضميمة الأولى ـ يتناول بعض القواعد والتنبيهات الهامة المتعلقة بأسماء الله تعالى .

هذا وقد بذلت ما استطعت من جهد حتى لا أذكر فى هذا الكتاب من الأحاديث المرفوعة والموقوفة إلا ما كان صحيحًا أو حسنًا، وقد ألحقت بكل حديث، تخريجًا مختصرًا له، وحتى تطمئن قلوب بعض القراء، ألحقت بتخريج الأحاديث التى فى غير الصحيحين، تصحيح أو تحسين الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى له، مع بيان موضعه في كتبه .

وإنى لأنتهز الفرصة لأدعو كل من لديه القدرة من أهل العلم على الخوض فى بحر الأسماء الحسنى ، أن يجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد، فإن هذا العلم هو لُبُّ العقيدة والإيمان ، وهو الأصل والأساس ، الذى بدونه لن يكون هناك أى بناء . وعلى الرغم من ذلك، فإنك لا تكاد تراه مذكوراً في أكثر كتب العقيدة المتداولة فى أيدى الناس اليوم، وإذا ذُكر، فإنه يذكر بصورة غير وافية وغير مناسبة لأهميته الكبيرة، وهذا واقع غريب يؤسف له.

وإنى أيضًا لأنصح كل الدعاة إلى الله ـ تعالى ـ أن ينطلقوا فى دعوتهم من هذا العلم، فيعرفوا الناس بربهم ـ جل وعلا ـ فهذه نقطة البدء الصحيحة، لعلاج أى انحراف أو قصور، فى الفكر أو السلوك، فإن معرفة العبد بربه تثمر من الخير ،

ما لا يعلم قدره وعظمته إلا الله ـ تعالى ـ.

هذا وقد سميت هذا الكتاب المبارك ـ إن شاء الله تعالى ـ :

« المفاهيم المثلى فى ظلال شرح أسماء الله تعالى الحسنى » .

أسأل المولى ـ تبارك وتعالى ـ بجميع أسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، أن ينفعنا جميعـًا بما فيه ، فى الدنيا والآخرة، وأن يرزقنا ـ سبحانه ـ بره وذخره ، وأن يتقبله منَّـا ، إنه ـ تعالى ـ سميع قريب مجيب الدعاء .

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أبـو لــؤى

ولـيـد بـن مـحـمـود بـن حـسـن

عفا الله عنه

التقسيم والإيضاح لأسماء الله تعالى الحسنى
مع ذكر بعض المفاهيم المثلى التى تتعلق بها

أسماء تتعلق بألوهيته تعالى

■ نذكر منها : [الله ـ الإله]

ـ **الله** : هو علم دال على ذات المعبود بحق ـ جل وعلا ـ دلالة جامعة لجميع الأسماء الحسنى .

ـ **الإله** : هو سبحانه الذى يألهه كلُّ شىء لاستحقاقه وحده ذلك .

الشرح :

من المهم أن نعلم بداية أن لفظة الجلالة (الله) هو اسم تفرد به الله سبحانه وتعالى واختصه لنفسه المقدسة، وقدمه على جميع أسمائه. وأضاف أسماءه كلها إليه، وكل ما يأتى بعده من أسماء فهى نعت له، ومتعلقة به، وتوصف بأنها من أسماء الله ـ تعالى ـ . وهو اسم خاص بالمولى تبارك وتعالى جُعل ـ كما يُقال ـ للتعلق، لا للاتصاف والتخلق. وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه اسم مشتق، واختلفوا فى اشتقاقه وأصله. فقيل إن أصله (إله) مثل (فعَال) فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة، مثل (الناس) أصله (أناس). وقيل أصله (لاه) أى احتجب وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم. وقيل هو مشتق من (وله) إذا تحير فعلى هذا أصل (إلاه) هو (وِلاه) وأن الهمزة المبدلة من واو، كما أبدلت فى إشاح ووشاح، وإسادة ووسادة، وقيل غير ذلك . بينما ذهب آخرون إلى أنه اسم جامد غير مشتق ، موضوع للذات المقدسة ، وقالوا إن الألف واللام من بنية هذا الاسم، ولم يدخلا للتعريف، والدليل على ذلك دخول حرف النداء عليه، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام اللتين للتعريف، فأنت تقول (يا الله) ولا تقول: (يا الرحمن) ولا : (يا البصير) فدل على أن الألف واللام من بنية الاسم. هذا والله تعالى أعلم [١] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢٠) ، وتفسير القرطبى (١/٨٨, ٨٩) .

أما اسم الإله فهناك عدة أقوال فى أصل معناه وهى [1] :

ـ إن أصله (أَلِهَ ـ أُلُوهيةً) أى اتجه إلى شىء لشدة شوقه إليه، أو سكن إلى شىء أو فزع إلى شىء .

ـ إن أصله (أَلِهَ ـ أَلَـهـًا) أى تحير .

ـ إن أصله (أَلَهَ ـ أُلُوهيةً) أى عَبَد ، وهذا الأصل رجحه كثير من المحققين.

ـ إن أصله (لاَهَ ـ لَيْهـًا) أى احتجب .

فيمكن القول إن الإله ـ جل وعلا ـ هو سبحانه المحتجب عن الأسماء والأبصار. التى تحيرت فى حقائق صفاته العقول، وتاهت فيها الأفكار، وعجزت عنه التصورات، ليس كمثله شىء، وهو السميع البصير. وهو الذى لا يسكن العبد إلا إليه، فلا تسكن القلوب إلا بذكره، ولا تفرح العقول إلا بمعرفته، لأنه سبحانه الكامل على الإطلاق دون غيره. وهو الذى لا يفزع العبد ولا يلجأ إلا إليه، لأنه لا مجير حقيقة إلا هو، ولا ناصر حقيقة إلا هو. وهو الذى يلجأ إليه العبد بكل ذرة فى كيانه، التجاء شوق ومحبة، فهو سبحانه الكامل فى ذاته وصفاته، فلا يأنس إلا به، ولا يفتر عن خدمته، ولا يسأم من ذكره أبدًا. يكاد قلبه أن يتفتت من فرط محبته له، وتعلقه به. وهو الذى يخضع له العبد ويذل وينقاد تمام الخضوع والذل والانقياد، فيقدم رضاه على رضا نفسه فى كل حال، ويبعد وينأى عن سخطه بكل طريق، هذا مع تمام الرضا والمحبة له سبحانه، فهو يذل وينقاد له سبحانه مع تمام الرضا بذلك، والمحبة له ـ جلا وعلا ـ حيث إنه الإله الحق، الكامل فى ذاته وصفاته، المستحق لذلك كله. ومعنى أن الإله هو المألوه وحده، أى هو المستحق أن يُفرد بالعبادة وحده، وهذا هو أهم معانى هذا الاسم للعبد، وذلك حيث إن الله ـ عز وجل ـ ما خلق الجن والإنس إلا لتحقيق هذه الغاية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[2] .

---

(١) راجع المصطلحات الأربعة فى القرآن لأبى الأعلى المودودى .

(٢) الذاريات : ٥٦ .

وقــال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (١)
فوجب إذن على كل عبد أن يعلم بوضوح معنى كل من : (العبادة والطاغوت).
ومعنى (**العبادة**) كما قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ : « هى طاعة الله، بامتثال ما أمر الله به ، على ألسنة الرسل» (٢) . فعبادته سبحانه هى طاعته بفعل المأمور وترك المحظور . وقال **الإمام ابن تيمية أيضًا** : « العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة »(٣) .

وقال الإمام **ابن القيم** رحمه الله :

(العبادة) تجمع أصلين : غاية الحب ، بغاية الذل والخضوع .

والعرب تقول: طريق مُعَبَّدٌ: أى مُذلل. والتَّعَبُّدُ: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له. ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبًّا خاضعًا. فالله ـ تعالى ـ إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له، والانقياد لأمره. فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يُحب معه سواه، وإنما يُحب لأجله، وفيه، كما يُحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه. فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه سبحانه.

وإذا كانت المحبة له عز وجل ، هى حقيقة العبودية وسرها ، فهى إنما تتحقق باتباع أمره ، واجتناب نهيه . فعند اتباع الأمر واجتناب النهى تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل اتباع رسوله ﷺ عَلَمًا عليها ، وشاهدًا لِمَن ادعاها ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٤) . فانتفاء محبتهم لله، لازم لانتفاء المتابعة لرسوله. وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم. فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محب الله لهم بدون المتابعة لرسوله ﷺ.

---

(١) النحل : ٣٦ .

(٢) ، (٣) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد / ١٤ .وراجع بحث العبودية للإمام ابن تيمية مجموع الفتاوى [١٠/ ١٤٩ ـ ٢٣٧] وذلك لأهميته .

(٤) آل عمران : ٣١ .

ومتابعة الرسول ﷺ : هى حب الله ورسوله ، وطاعة أمره ﷺ ولا يكفى ذلك فى العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما. فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله .

وجميع الرسل إنما دعوا إلى عبودية الله تعالى، من أولهم إلى آخرهم. فقال نوح - عليه السلام - لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[1] وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم . قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [2] . وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[3] .

وقال قوم: إن أفضل العبادات: العمل على مرضاة الرب فى كل وقت، بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته :

فأفضل العبادات فى وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما فى حالة الأمن.

والأفضل فى وقت حضور الضيف مثلاً : القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك فى أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل فى أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل فى وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل فى أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

---

(١) الأعراف : ٥٩ .
(٢) النحل : ٣٦ .
(٣) الأنبياء : ٢٥ .

والأفضل فى أوقات الصلوات الخمس: الجِدُّ والنصح فى إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها فى أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بَعُدَ كان أفضل.

والأفضل فى أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل فى وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به. فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره، أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل فى وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد فى التضرع والدعاء والذكر دون الصوم الـمُضْعِفُ عن ذلك .

والأفضل فى أيام عشر ذى الحجة: الإكثار من التعبد لاسيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير الـمُتَعَيَّن .

والأفضل فى العشر الأواخر من رمضان: لزوم المسجد فيه، والخلوة والاعتكاف، دون التصدى لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل فى وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته، وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل فى وقت نزول النوازل وأَذَاةِ الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذى يُخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من الذى لا يخالطهم ولا يؤذونه. والأفضل خلطتهم في الخير، فهى خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم فى الشر، فهو أفضل من خُلطَتِهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم، أذاله أو قَلَّلَهُ ، فخلطتهم حينئذٍ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل فى كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله فى ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد الـمُطلَق. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض فى تعبد بعينه، يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبده عليها فهو لا يزال متنقلاً فى منازل العبودية، كلما رُفِعَتْ له منزلة ، عمل على سيره إليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه فى السير، حتى ينتهى سيره. فإن رأيت العلماء، رأيته معهم .

وإن رأيت العُبَّادَ ، رأيته معهم .

وإن رأيت المجاهدين ، رأيته معهم .

وإن رأيت الذاكرين، رأيته معهم .

وإن رأيت المتصدقين المحسنين ، رأيته معهم .

وإن رأيت أرباب الجمعية، وعكوف القلب على الله، رأيته معهم .

فهذا هو العبد المطلق، الذى لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيها لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها فى سواه. فهذا هو المتحقق بـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ حقًّا ، القائم بها صدقًا. ملبسه ما تهيأ. ومأكله ما تيسر. واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت بوقته. ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا. لا تملكه إشارة. ولا يتعبده قيد. ولا يستولى عليه رسم. حُرٌّ مُجَرَّدٌ. دائر مع الأمر حيث دار. يدين بدين الآمر أَنَّى تَوَجَّهت رَكَائِبَهُ. ويدور معه حيث استقلت مضاربه. يأنسُ به كُلُّ مُحِقٍّ. ويستوحش منه كل مُبْطِل. كالغيث، حيث وقع نفع. وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة، حتى شوكها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله. فهو لله وبالله ومع الله. قد صحب الله بلا خَلْقٍ. وصحب الناس بلا نَفْسٍ. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البَيْن، وتخلى عنهم. وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها. فَوَاهًا له . . ما أغربه بين الناس . . وما أشد وحشته منهم . .

وما أعظم أنسه بالله . . وفرحه به . . وطمأنينته وسكونه إليه. والله المستعان وعليه التكلان .

ولا يكون العبد متحققا بـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ ـ أى محققًا للعبودية ـ إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما : متابعة الرسول ﷺ .

الثانى : الإخلاص للمعبود سبحانه وتعالى .

قال تعالى : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾[1] .

قال **الفضيل بن عياض** رحمه الله :

العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه .

قالوا : يا أبا على ، ما أخلصه وأصوبه؟

قال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يُقبل. وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا، لم يُقبل، حتى يكون خالصًا، صوابًا .

والخالص : ما كان لله . . **والصواب** : ما كان على السُّنَّة . فلا يقبل الله من العمل إلا إذا كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله ، يُرَدُّ عليه ــ أحوج ما هو إليه ـ هباءًا منثورًا. أ هـ . بتصرف [2] .

فإذا قصر العبد فى طاعته لله ـ عز وجل ـ فهذا يعتبر خللاً فى عبوديته، يجب تداركه. لأنه إذا مات على ذلك، فهو لا يؤمن عليه من العذاب، والموت يأتى بغتة كما هو مُشاهد ومعروف، وهذا المعنى تجده فى هذا النداء الإلهى التحذيرى:
﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ**

---

(١) الملك : ٢ .

(٢) مدارج السالكين (١/ ٨٥ ـ ١١٧)

اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [1] . ذكر الإمام **القرطبى** ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الآية عن الحسن ـ رحمه الله ـ أن المقصود بذكر الله هنا جميع الفرائض، فيكون المعنى : « لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن طاعة الله، ومن شغلتهم أموالهم وأولادهم عن طاعة الله فأولئك هم الخاسرون» .

ولاحظ التحذير من مباغتة الموت فى قوله تعالى : ﴿ **مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ** ﴾ . فإن الـمُلهِىَّ عن طاعة الله عندما يباغته الموت، فإنه يترك كل شىء وراءه لغيره، وينظر بين يديه فلا يجد أنه قدم شيئًا لنفسه ينفعه فى هذه اللحظة، فيتمنى حينئذ أن يُمهل بعض الوقت حتى يطيع ربه، ويفعل ما أمر به، ولكن أَنَّى له هذا، فقد انتهت المهلة ﴿ **وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا** ﴾ .

ويقول الأستاذ **سيد قطب** رحمه الله :

« إن حقيقة العبادة تتمثل فى أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى العبودية لله فى النفس . أى استقرار الشعور على أن هناك عبدًا وربًا ، عبدًا يَعـبُد ، وربًا يُعْبَد، وأن ليس وراء ذلك شىء. ليس فى هذا الوجود إلا عابد ومعبود ، وإلا رب واحد، والكل له عبيد .

الثانى : هو التوجه إلى الله بكل حركة فى الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة فى الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة. وعندئذ يعيش الإنسان فى هذه الأرض شاعرًا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى، جاء ينهض بها فترة، طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها، ولا غاية له من ورائها، إلا الطاعة، وجزاؤها الذى يجده فى نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله، ومن أُنْسٍ برضى الله عنه ، ورعايته له، ثم يجده فى الآخرة تكريمًا ونعيمًا وفضلاً عظيمًا.

---

(١) المنافقون : ٩ـ ١١.

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقًّا. يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة. ويكون قد تحرر بهذا الفرار. تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال. وخلص لله، واستقر في الوضع الكوني الأصيل: عبداً لله خلقه الله لعبادته، وقام بما خُلِقَ له، وحقق غاية وجوده.

ومن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض، وينهض بتكاليفها، ويحقق أقصى ثمراتها؛ وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها؛ خالص القلب من جواذبها ومغرياتها. ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو، ولا لذاتها. ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها، ثم الفرار إلى الله منها.

ومن مقتضيات معنى العبادة كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها، فلتكن النتائج ما تكون، فالإنسان غير معلق بهذه النتائج. إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال، ولأن جزاءه ليس في نتائجها، إنما جزاءوه في العبادة التي أداها، فهذه النتائج ليست داخلة في واجبه ولا في حسابه، وليست من شأنه إنما هو قدر الله ومشيئته. وهو وجهده ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيئته. ومتى نقض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد؛ وشعر أنه أخذ نصيبه، وضمن جزاءه، بمجرد تحقق معنى العبادة في الباعث على العمل والجهد، فلن تبقى في قلبه حينئذ بقية من الأطماع التي تدعو إلى التكالب والخصام على أعراض هذه الحياة. فهو من جانب يبذل أقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف. ومن جانب ينفض يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض، وثمرات هذا النشاط. فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها، لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته» أ. هـ. بتصرف [1].

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٨٧، ٣٣٨٨).

■ والاستاذ سيد قطب أديب مرهف الحس، فصيح اللسان، ذو موهبة أدبية قوية، يقودها الحماس لبث فكرة إقامة الحكومة الإسلامية في الأرض، فجزاه الله خيراً على ما قدمه من كتابات في الإسلام. ولا يمنعنا ذلك من التحذير من الأخطاء التي وقعت له رحمه الله في كتابه (في ظلال القرآن)، وذلك لضعفه العلمي بأصول العقيدة عند أهل السنة والجماعة، وعلوم الحديث والأثر، ومن الأخطاء، بعض الشبهات =

أما الطاغوت : فمشتق من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد وهو لفظ يفيد المبالغة والضخامة .

والطاغوت عام : فكل ما عُبد من دون الله ، ورضى بالعبادة من معبود ، وكل متبوع أو مُطاع ، فى غير طاعة الله ورسوله ، فهو طاغوت .

قال الإمام **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ : « الطاغوت كل ماتجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع. فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله. فهذه طواغيت العالم. إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته. أ. هـ[1].

وقال صاحب الظلال :

«**والطاغوت**: صيغة من الطغيان، تُفيد كل ما يطغى على الوعى، ويجور على الحق، ويتجاوز الحدود التى رسمها الله للعباد، ولا يكون له ضابط من العقيدة فى الله، ومن الشريعة التى يسنها الله. ومنه كل منهج غير مستمد من الله، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد، لا يُستمد من الله. فمن يكفر بهذا كله، فى كل صورة من صوره، ويؤمن بالله وحده، ويستمد من الله وحده، فقد نجا. أ. هـ»[2].

فإذا تبين لك الآن معنى العبادة ومعنى الطاغوت. تبين لك الأصل فى كيف تعبد الله ـ عز وجل ـ وكيف تجتنب الطاغوت وهذا أصل عظيم من أصول الإسلام، بل هو أصل الأصول فى هذا الدين.

= التى وقعت له فى العقيدة، كتأثره بالقول بالحلول الصوفى ووحدة الوجود (انظر على سبيل المثال كلامه عند سورة الحديد:٣)، وكذلك وقوعه فى التأويل على طريقة الأشاعرة الكلاَّبية (انظر مثلاً كلامه عند سورة طه :٥)، وأيضًا جُرأته بعض الشىء فى الحديث عن بعض الأنبياء (انظر سورة الكهف : ٧١) فينبغى لمن يقرأ فى هذا الكتاب الحذر من مثل هذه السقطات .

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد/ ١٦ .

(٢) فى ظلال القرآن (١/ ٢٩٢) .

أسماء تتعلق بربوبيته تعالى

■ نذكر منها : [الرب ــ الملك ـ السيد]

ـ **الرب**: هو سبحانه مالك هذا الوجود كله، صاحب السلطة المطلقة فيه والحكم النافذ، وهو القيم على خلقه، المربى لهم.

ـ **الملك**: هو سبحانه صاحب الملك التام، المتصرف فى ملكه كله كيف يشاء.

ـ **السيد**: هو سبحانه صاحب الأمر والنهى، المُحتاجُ إليه بالإطلاق.

الشرح :

كلمة الرب تأتى فى اللغة بثلاثة معانٍ، هى :

ـ المُربى: وهو من ربَّى تربية، أى تعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه، حتى أدرك. والمفعول هنا يُسمى: مَرْبُوبٌ، ورَبِيبٌ.

ــ المالك: كما تقول العرب: (رب الدار) و(رب الناقة) أى: صاحبها ومالكها.

ـ السيد: كقوله تعالى : ﴿ **ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ [1] ، أى : ارجع إلى سيدك.

وعلى هذا يمكن أن نقول أن معنى اسم الرب هو: سبحانه مالك هذا الوجود كله وصاحبه، كما قال سبحانه : ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ** ﴾[2] ، وأنه سبحانه المتولى والمتعهد خلقه بالإنشاء والتربية والرعاية والإصلاح، وقد أشار إلى ذلك نبى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى قوله :﴿ **قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)** ﴾[3] . وأنه سبحانه السيد المطاع، صاحب السلطة النافذة

---

(١) يوسف : ٥٠ (٢) الصافات : ٥.

(٣) الشعراء : ٧٥ ــ ٨٢ .

الذى لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، كما قال سبحانه : ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾[1] وقال : ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾[2] وقال : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾[3] .

وكما تلاحظ أن معانى أسماء: الملك والسيد ومالك الملك، متضمنة فى معنى اسم الرب. فبالنسبة لملكه تعالى، فهو كما قال سبحانه : ﴿ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾[4] وقال: ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ** ﴾[5] فسبحانه هوا لملك الحق، المستغنى فى ذاته وصفاته عن كل شىء، ولا يستغنى عنه شىء، فى أى شىء. ولقد كلف الله ـ جلا وعلا ـ رسوله ﷺ أن يخبر الناس بهذه الحقيقة، فقال سبحانه: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾[6] .

وقد قال **الحليمى** ــ رحمه الله ـ عن اسم السيد: « إن سيد الناس إنما هو رأسهم الذى إليه يرجعون، وبأمره يعملون، وعن رأيه يصدرون، ومن قوله يستهدون، فإذا كانت الملائكة والإنس والجن خلقـًا للبارى جل ثناؤه، ولم يكن بهم غنية عنه فى بدء أمرهم، وهو الوجود، إذ لو لم يوجدهم لم يوجدوا، ولا فى البقاء بعد الإيجاد، ولا فى العوارض العارضة أثناء البقاء، كان حقـًّا له جل ثناؤه أن يكون سيدًا، وكان حقـًّا عليهم أن يدعوه بهذا الاسم. . . »أهـ[7] .

ومن كان ملكـًا وسيدًا لكل شىء ، أزلاً أو أبدًا، كان قطعـًا المُلك كله بيده، ولم يكـن له فيه شريك، وكان إن شاء مَلَّكَ من يشاء من عباده ما يشاء من

---

(١) الأعراف : ٥٤ .
(٢) الأنبياء : ٢٣ .
(٣) هود : ١٠٧ .
(٤) المائدة : ١٨ .
(٥) المائدة : ١٢٠ .
(٦) الأعراف : ١٥٨ .
(٧) الأسماء والصفات للإمام البيهقى (١/ ٦٩).

ملكه، وإن شاء نزعه منه، كما قال سبحانه: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[١] .

وتمليك العبد لشيء إنما هو تمليك العارية[٢] ، التى يستردها صاحبها ممن يشاء، عندما يشاء، فهى ملكية مؤقتة وغير أصلية له، ولهذا فتسمية صاحبها بالمالك، إنما هى تسمية مجازية، لأن المالك والملك الحق، هو الله رب العالمين.

والإيمان فقط بأن الله تعالى هو مالك هذا الوجود كله وخالقه، وأنه المدبر لكل شىء، والرازق لكل حى، وكل ما مر بنا من معانٍ، دون التوجه بكل أنواع العبادات، من صلاة ودعاء وذبح ونذر وطواف وتوكل واستعانة، وغير ذلك من العبادات الباطنة والظاهرة، إلى الله ـ جل وعلا ـ وحده، لا يكفى للنجاة يوم القيامة.

فإن المشركين كانوا يؤمنون بوجود الله تعالى، وأنه تعالى هو الخالق لكل شىء، وأنه صاحب الملك، وأنه القادر على كل شىء، وأنه هو الذى بيده النفع والضر، وأنه هو الرازق والمحيى والمميت، ولا يشركون به فى ذلك شيئًا، كما قال سبحانه: ﴿ **قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩)** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ**

---

(١) آل عمران : ٢٦ .

(٢) العارية، الإعارة، ومعناها: إباحة المالك منافع ملكه التى تبقى بعد استخدامها، لغيره، بلا عوض، على أن يعيدها إليه. وقيل :سميت عارية من العرى، وهو التجرد، لتجردها من العوض.

(٣) المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٩.

وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾[2] .

قال الإمام **ابن كثير** ـ رحمه الله ـ عند تفسير هذه الآيات :

« يقول الله مقرراً أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض، والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم وأرزاقهم، فتفاوت بينهم، فمنهم الغنى والفقير، وهو العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء، المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك، فَلِمَ يُعبدُ غيره؟ ولِمَ يُتوكلُ على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته، وكثيرًا ما يقرر تعالى **(مقام الإلهية)** بالاعتراف بتوحيد **الربوبية**، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك »[3] .

وكان السبب فى توجه المشركين لغير الله ـ عز وجل ـ ببعض العبادات، هو التقرب إلى الله ، واتخاذ هؤلاء المتوجه إليهم بالعبادات شفعاء عند الله تعالى كما زعموا، وكما أخبرنا تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[4] . وكما أخبرنا أيضًا : ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ

---

(١) يونس : ٣١.
(٢) العنكبوت : ٦١ ـ ٦٣.
(٣) تفسير ابن كثير (٣ / ٣٦٠) .
(٤) الزمر : ٣ .

اللَّه قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

ولم تنفعهم هذه الادعاءات وظلوا مشركين ولم ينفعهم الإيمان وحده بخلق الله لهذا الوجود وقيامه عليه وتدبيره لكل شيء فيه وقدرته على كل شيء وأنه هو وحده النافع الرازق المستعان، ملك هذا الوجود كله، لم ينفعهم الإيمان بذلك دون التوجه له سبحانه بكل أنواع العبادات، وعدم إشراك غيره فى أى شيء منها. فظهر لنا إذن وجوب إجتماع الإيمان بربوبية الله ـ عز وجل ـ لهذا الوجود مع التوجه له وحده سبحانه وتعالى بكل أنواع العبادات الظاهرة والباطنة[2] .

وفى الفصل التالى يأتى مزيد من التفصيل لهذه المسألة إن شاء الله .

* * *

---

(١) يونس : ١٨ .

(٢) انظر كلام الإمام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ فى مجموع الفتاوى (١/ ١٥٥ وما بعدها) فهو هام جدًا.

أسماء تتعلق بوحدانيته تعالى

■ **نذكر منها : [الواحد ـ الأحد]**

ـ **الواحد**: هو الفرد القائم بنفسه، والذى لا ند له ولا شريك له فى ألوهيته وربوبيته.

ـ **الأحد**: هو الذى لا شبيه ولا نظير له فى شىء من أسمائه وصفاته.

الشرح :

إن الله ـ عز وجل ـ واحد فى ذاته، قائم بنفسه، لا يحتاج إلى غيره، لا ند له ولا شريك، وذلك من حيث العدد. يقول سبحانه: ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ [1] .

قال **شارح الطحاوية**: «وإثبات التوحيد بهذه الكلمة ـ أى كلمة لا إله إلا الله ـ باعتبار النفى والإثبات المقتضى للحصر، فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال، ولهذا ـ والله أعلم ـ لما قال تعالى : ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ قال بعده : ﴿ **لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطانى: هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره، فقال تعالى : ﴿ **لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾»[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ** ﴾[3] ويقول : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ** ﴾[4] ويقول أيضًا: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم**

---

(١) البقرة : ١٦٣ .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية / ٧٢.
(٣) فاطر : ٣.
(٤) الأنعام : ٤٦ .

بلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾[١] .

ثم إليك هذا الفيض القرآنى : ﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)**﴾[٢] .

انظر فى نهاية كل آية من هذه الآيات إلى هذا السؤال المباغت: أإلهٌ مع الله؟ والذى لا مفر ولا مجال لكل ذى عقل أمامه إلا الإقرار والإذعان والقول: سبحانك لا إله إلا أنت، ولا رب سواك، ولا حول ولا قوة إلا بك، أنت مولانا، فنعم المولى ونعم النصير.

ولقد ذكر سبحانه الكثير من الأدلة على وحدانيته، ومن هذه البراهين الساطعة أيضًا، غير ما ذكرناه، قوله تعالى: ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾[٣] .

يقول **شارح الطحاوية** : «فتأمل هذا البرهان الباهر، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلاً، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشاركه فى ملكه، لكان له خلق وفعل،

---

(١) القصص : ٧١، ٧٢.

(٢) النمل : ٥٩ ـ ٦٤ .

(٣) المؤمنون : ٩١ .

وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك، وتفرده بالملك والإلهية دونه، فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه، وذهب بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكه إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه. فلا بد من أحد ثلاثة أمور:

- إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

- وإما أن يعلو بعضهم على بعض .

- وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره، من أدل الأدلة على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه. فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر فى الفِطَر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة ملزمة لتوحيد الإلهية. وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾[1] أ. هـ باختصار .

فالله - عز وجل - أحد في ربوبيته، لا شريك له في ملكه ولا مضاد ولا منازع ولا مغالب. أحد في ألوهيته، فلا معبود بحق سواه، ولا يستحق العبادة إلا هو، ولذا قضى ألا نعبد إلا إياه. أحد فى ذاته وأسمائه وصفاته، فلا شبيه له ولا مثيل، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

يقول شارح **سلم الوصول** - رحمه الله -:

« فكما أنه الأحد الفرد فى ذاته وإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، فهو - سبحانه - المتفرد فى ملكوته بأنواع التصرفات: من الإيجاد والإعدام، والإحياء والإماته، والخلق والرزق، والإعزاز والإذلال، والهداية والإضلال، والإسعاد والإشقاء، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والوصل والقطع، والضر والنفع. فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهما على إماتة

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية/ ٣٩.

من هو محييه أو إعزاز من هو مذله أو هداية من هو مضله أو إسعاد من هو مشقيه، أو خفض من هو رافعه، أو وصل من هو قاطعه، أو إعطاء من هو مانعه، أو ضر من هو نافعه، أو عكس ذلك، لم يكن ذلك بممكن فى استطاعتهم. وأنَّى لهم ذلك، والكل خلقه وملكه وعبيده وفى قبضته وتحت تصرفه وقهره، ماضٍ فيهم حكمه، عدل فيهم قضاءوه، نافذة فيهم مشيئته، لا امتناع لهم عما قضاه، ولا خروج لهم من قبضته، ولا تحرك ذرة فى السموات والأرض ولا تسكن إلا بإذنه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن أ.هـ[1] .

ومتى وعى الإنسان ما مضى، كان لقلبه وجوارحه قِبلة واحدة لا يحيد عنها أبدًا، وتوجه إلى هذا الإله الواحد، الذى لا إله إلا هو، بكل أعماله وتوكله وخوفه ورجائه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾[2] فتستقيم خطاه إلى هذا الإله الواحد، يستمد منه وحده، ويخدمه هو وحده، فلا تتشعب به السبل، وتتجمع بذلك طاقته وتتوحد، ويتحرك وهو ثابت القدمين على الأرض، متطلع إلى إله واحد فى السماء.

أما من أَبَى، ولم يتوجه إلى ربه بعمله كله، مخلصًا له النية فيه، فلا قيمة لعمله مهما عظم. جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، أرأيت رجلاً غزا، يلتمس الأجر والذكر، ما له ؟ قال ﷺ : « **لا شَيْءَ لَهُ** » فأعادها ثلاثة، كل ذلك يقول : « **لا شَيْءَ لَهُ** » ثم قال ﷺ : « **إِنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إلا مَا كَانَ خَالِصا لَهُ وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ** »[3] فهذا عبد توجه إلى خالقه بهذا العمل الجليل، ولكنه أشرك المخلوقَ مع الخالق فى توجهه، فأراد أيضًا المدح والثناء والتعظيم، فلم تعد قبلته بذلك قبلة واحدة، فلم ينتفع بعمله والعياذ بالله. ويؤيد هذا ما جاء عن أبى موسى الأشعرى - رضي الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ

---

(١) معارج القبول (١/ ٨٠).   (٢) الأنعام : ١٦٢، ١٦٣.

(٣) رواه النسائى. وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٥٦)، والصحيحة (٥٢) .

فقال : الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلمَغْنَمِ ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذكَرَ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَـكَانُهُ، فَمَنْ فِى سَبِيلِ اللهِ؟ قال : « **مَنْ قَاتَلَ لِتَـكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِىَ العُلْـيَا فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللهِ** »[1] .

ومن أشهر ما جاء فى خطر عدم إخلاص النية وعدم التوجه لله عز وجل وحده بالأعمال، ما جاء عن عقبة بن مسلم أن شَفِيًّا الأصْبَحِىَّ حدثه أنه دَخَل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا ؟ قالوا: أبو هريرة، قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت له: أسألك بحق وبحق، لما حدثتنى حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ وعقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ، عقلته وعلمته، ثم نَشَغَ[2] أبو هريرة نشغة، فمكثنا قليلاً ثم أفاق، فقال : لأحدثك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو فى هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيرى وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم أفاق ومسح عن وجهه، فقال: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو فى هذا البيت، ما معنا أحد غيرى وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه، فأسندته طويلاً، ثم أفاق، فقال : حدثنى رسول الله ﷺ :

« **إنَّ اللهَ تبَارك وَتَعالَى إذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَة، يَنْزِلُ إلَى العِبَادِ لِيَقْضِى بَيْنَهُم، وَكُلُّ أمَّة جَاثِيَةٌ، فَأوَّلُ مَنْ يُدْعَى به رَجُلٌ جَمَعَ القُرْآنَ ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِى سَبِيلِ الله، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الـمَال، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أنْزَلتُ عَلَى رَسُولِى؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَا عَملتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ قَال: كُنْتُ أقُومُ بِه آنَاءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهارِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الـمَلائكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ**

---

(١) متفق عليه .

(٢) نَشَغَ : أى شهق حتى كاد يُغشى عليه أسفًا أو خوفًا.

وتَعَالى: بَلْ أرَدْتَ أنْ يُقَالَ فُلانٌ قَارِئٌ، وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.، ويُؤْتَى بِصَاحِبِ الـمَال، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَلَمْ أوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أدَعْكَ تَحْتَاجُ إلى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَارَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَملتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، وأَتَصَدَّقُ، فَيقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، ويَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أنْ يُقَالُ فُلانٌ جَوَادٌ، وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، ويُؤتَى بالَّذِى قُتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: فِيمَاذَا قُتلتَ؟ فَيَقُولُ: أىْ رَبِّ! أَمَرْتَ بِالْجِهَادِ فِى سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتلتُ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الـمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أنْ يُقَالَ فُلانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ» ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ على رُكْبَتِى فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! أولَئِكَ الثَّلاثَةُ أوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .

قال الوليد أبو عثمان المدينى: وأخبرنى عقبة أن شَفيـًا هو الذى دخل على معاوية، فأخبره بهذا، قال أبو عثمان: وحدثنى العلاء بن أبى حكيم أنه كان سيافًا لمعاوية قال: فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبى هريرة، فقال معاوية: قد فُعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا، حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشر. ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16) ﴾[1] »[2] .

ولهذا، أكثر علماؤنا فى كثير من مصنفاتهم من بيان دقائق وأسرار النية،

---

(١) هود: ١٥، ١٦ .

(٢) أصل الحديث فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ولكن اللفظ هنا للنسائى وقد حسنه - ولابن حبان فى صحيحه، كلاهما بلفظ واحد وانظر (صحيح الترغيب والترهيب/ ٢٠) للألبانى.

وخطر الشرك فيها، فلترجع إلى تفصيلات ذلك للأهمية، في كتبهم، فإن المقام هنا لا يحتمل مثل هذا التفصيل الكبير، ولكننا رغم ذلك نشير إشارة سريعة إلى بعض العلامات التي إذا وَجَدت في نفسك شيئًا منها، كان ذلك دليلاً على وجود مرض الرياء في قلبك، أو على الأقل أصله.

والرياء مشتق من الرؤية، فالمرائي يُرى الناس أعماله الصالحة، طلبًا للمنزلة والمكانة عندهم.

*** وهذه العلامات هي :**

- يُحب أن يُحمد على طاعة الله عز وجل .

- يكره الذم، فيدع الطاعة من أجل الذم. كالذي يدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كراهية ذم من يأمره وينهاه.

- إذا عمل عملاً لم يعلم به إلا الله تعالى، لم تقنع نفسه بذلك، فيظل يُعَرِّضُ بالكلام والأفعال حينًا، ويُصرح في آخر، حتى يعلم أن الناس قد علموا ما فعل من الأعمال الصالحة. فحينئذ يرتاح قلبه لذلك ويُسَرُّ .

- أخف الناس عنده من حمده وأثنى عليه، وأثقلهم من ترك حمده والثناء عليه.

- إطلاع الناس عليه يكون مقويًا لنشاطه في الطاعة، ولو لم يطلع عليه أحد ثقلت عليه الطاعة، ولم يقم بها كما كان يفعلها أمام الناس.

* وقد قال بعض العلماء : لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال الصالحة.

أما في الأعمال التي لا يستطيع إخفاءها، كالذهاب للمسجد لصلاة الجماعة، فمن العلاج أن يستحضر مضرة الرياء الشديدة، وما يفوته من صلاح القلب، وطهارة النفس، والمنزلة عند الله تعالى، والمنزلة في الآخرة. وما سوف يتعرض له من ضياع ثواب العمل ومن العقاب في الآخرة .

وليعلم المرائى أن مدح الناس لا يزيد رزقه ولا أجله ولا ينفعه يوم حاجته، وكذلك ذمهم. فإن العباد كلهم عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا. فإذا قرر هذا فى نفسه، فترت رغبته فى الرياء، وأقبل على الله تعالى بقلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره.

وهناك صور أخرى للشرك أوضح من ذلك، كالذين يتوجهون بشىء من العبادات كالذبح والنذر والدعاء مثلاً لغير الله ـ عز وجل ـ كما نراه عند الأضرحة اليوم، يقول الله تعالى لهؤلاء الذين يدعون أصحاب هذه الأضرحة وغيرهم، ويطلبون منهم تيسير الأمور، وتفريج الكروب: ﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)** ﴾[١].

والقطمير: هى اللفافة الرقيقة التى تكون على نواة التمرة.

فحتى هذا الغلاف الزهيد، لا يملكه أولئك الذين يدعونهم من دون الله تعالى. ويقول جل وعلا: ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ** ﴾[٢].

فدعوة واحدة هى الحق، وهى التى تُستجاب، إنها دعوة الله تعالى وحده، والتوجه إليه، والاعتماد عليه، وطلب عونه ورحمته وهداه. وما عداها باطل هباء، لا ينال صاحبه منه إلا العناء.

والآيات تبين أن دعاء غير الله تعالى شرك وكفر؛ لأن الدعاء عبادة، والعبادات كلها لا تكون إلا لله ـ جل وعلا ـ.

ولأنهم بدعائهم لهؤلاء الأموات، وطلبهم منهم قضاء بعض الحاجات، اعتقدوا

---

(١) فاطر: ١٣، ١٤.

(٢) الرعد: ١٤.

فيهم التأثير فى قضاء الحاجات، فجعلوا لهم سلطة فى هذا الكون لم يأذن بها سبحانه، وبين أنها شرك فى كثير من الآيات.

ويقول تعالى مبينًا أن كل مدعو من دونه لا يملك نفع نفسه، فضلاً عن نفع غيره : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾[١] .

ولهذا كله فليس هناك أضل ممن يدعو هؤلاء من دونه سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) ﴾[٢] .

وعليه يأتى هذا التوجيه الشديد اللهجة : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) ﴾ [٣] .

وهذا الأمر الصريح : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ [٤] .

وهذا النهى القاطع : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾[٥] .

ويأتى هذا التساؤل، الذى تهتز له القلوب المؤمنة الموحدة، والذى فى الإجابة عليه حسم لهذه المسألة : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[٦] .

والذين يدعون أصحاب الأضرحة اليوم، إذا ضيقت عليهم الخناق فى النقاش، يقولون: نحن إنما ندعوهم لنتقرب بهم إلى الله فحسب، فهم قوم صالحون! ونتخذهم شفعاء عند الله، فهم قوم أصحاب منزلة عنده!

وسبحان الله، فهذه هى نفس مقولة المشركين من قبل، كما أخبر سبحانه عنهم

---

(١) النحل : ٢٠ ـ ٢٢.
(٢) الأحقاف : ٥ ، ٦ .
(٣) يونس : ١٠٥، ١٠٦.
(٤) الجن : ٢٠ .
(٥) الجن : ١٨ .
(٦) النمل : ٦٢ .

في قوله : ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[1] .

وفي قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2] .

فانظر مقولة أهل الشرك في الماضي : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾، وقولهم : ﴿ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾، فهي نفس مقولة الذين يدعون أصحاب الأضرحة اليوم، ويطلبون منهم قضاء الحاجات: ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[3] .

وقد قطع الله ـ تعالى ـ كل الأسباب التي يتعلق بها المشركون في آية واحدة جامعة، فقال سبحانه: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [4] فالمشرك إنما يدعو من يدعوه لما يحصل له من النفع، والنفع يحصل ممن فيه خصلة من هذه الأربع:

١ـ المالك لما يريده هذا العابد.

٢ ـ فإن لم يكن مالكـًا فيكون شريكـًا في الملك.

٣ ـ فإن لم يكن شريكـًا، كان معينـًا وظهيرًا لهذا الملك.

٤ ـ فإن لم يكن كذلك كان شفيعـًا عنده.

فنفى سبحانه هذه الأربع نفيـًا مرتبـًا من الأعلى إلى الأدنى. فنسأل الله تعالى أن يعصمنا من الشرك، وأن يتوفنا على التوحيد، إنه سبحانه سميع مجيب.

---

(١) الزمر : ٣.

(٢) يونس : ١٨ .

(٣) البقرة : ١١٨.

(٤) سبأ : ٢٢، ٢٣.

أسماء تتعلق بحياته تعالى المطلقة

■ **نذكر منها : [الحى ـ الأول ـ الآخر ـ الوارث]**

ـ **الحى**: هو سبحانه دائم الحياة الذى له البقاء المطلق.

ـ **الأول**: هو سبحانه الذى لا قَبْل له.

ـ **الآخر**: هو سبحانه الذى لا بَعْد له.

ـ **الوارث**: هو سبحانه الباقى بعد فناء خلقه.

الشرح:

إن حياة الله ـ عز وجل ـ حياة مطلقة ، فلم تحدث له سبحانه هذه الحياة بعد موت، ولا يعترضه سبحانه الموت بعد هذه الحياة. فهو سبحانه ليس قبله شىء، وكذا ليس بعده شىء. وهذا الأمر لا يستطيع عقل الإنسان المحدود أن يخوض فيه أكثر من ذلك فهو غير مؤهل لهذا، وليس عنده من العلم المقدمات لذلك.

ولذلك قال النبى ﷺ : « **إنَّ الشَّيْطَانَ يَأتِى أحَدَكُمْ، فيَقُولُ مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ اللهُ، فيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟! فَإذَا وَجَدَ أحَدُكُمْ ذَلكَ فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بالله وَرُسُله؛ فَإنَّ ذَلكَ يَذْهَبُ عَنْهُ**»[1] وفى رواية أخرى: «**يُوشكُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُون بَيْنَهُمْ حَتَّى يَقُولَ قَائلُهُمْ: هَذَا اللهُ خَلَقَ الخَلقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ؟! فَإذَا قَالُوا ذَلكَ فَقُولُوا: اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَم يَـكُنْ لَهُ كُفُوًا أحَدٌ، ثُمَّ ليَتْفُلَ عَنْ يَسَاره ثَلاثـًا، وَليَسْتَعذْ منْ الشَّيْطَان**»[2] .

والوارث جل وعلا هو صاحب البقاء الأبدى الذى يرجع إليه كل ما كان مَلَّكَهُ لعباده، بعد فنائهم أجمعين فسبحانه إليه مرجع كل شىء ومصيره.

---

(١) رواه الإمام أحمد عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ وصححه الألبانى فى (الصحيحة / ١١٦)

(٢) رواه أبو داود عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ وصححه الألبانى فى (الصحيحة / ١١٨)

يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [1] فلا مالك فى الحقيقة إلا الله، ولا مَلِك فى الحقيقة إلا هو سبحانه .

يقول تعالى : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾[2] . وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ وَيَطوِى السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الـمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ ؟!» [3] .

ومن آمن بأن ربه سبحانه وتعالى هو الحى الذى لا يموت أبدًا، والذى لا تأخذه سنة ولا نوم، يكون توكله فى جميع أموره عليه وحده، ويكون ربه هو ذخره وملجأه في كل حين، يقول الله تعالى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾[4] .

فسبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لا إله إلا أنت، عليك توكلنا ولا حول لنا ولا قوة إلا بك.

* * *

---

(١) مريم : ٤٠.

(٢) غافر : ١٥، ١٦.

(٣) متفق عليه.

(٤) الفرقان : ٥٨.

أسماء تتعلق بتنزيهه تعالى التنزيه المطلق

■ نذكر منها : [القُدُّوس ـ السُبُّوح ـ السَّلام]

ـ **القُدُّوس**: هو سبحانه الطاهر فى ذاته ، طهارة مطلقة.

ـ **السُبُّوح**: هو سبحانه المنزه عن كل سوء، على وجه التعظيم.

ـ **السَّلام**: هو سبحانه ذو السلامة المطلقة من كل ما لا يليق بجلال ذاته وكمال صفاته وحكمة أفعاله.

الشرح:

إن اسم القدوس يتضمن إثبات شىء ممدوح لله ـ عز وجل ـ ألا وهو الطهارة المطلقة، واسم السبوح يتضمن نفىَ كل عيب ونقص عن الله تعالى؛ على وجه التعظيم، وكلاهما يتضمن الآخر.

قال **الحليمى** ـ رحمه الله ـ : «فالتقديس مضمن فى صريح التسبيح، والتسبيح مضمن فى صريح التقديس، لأن نفى المذام إثبات للمدائح، كقولنا: «لا شريك له ولا شبيه» إثبات أنه واحد أحد. وإثبات المدائح له نفىٌ للمذام عنه، كقولنا «إنه قادر» نفى للعجز عنه. إلا أن قولنا هو كذا، ظاهره التقديس، وقولنا ليس بكذا ظاهره التسبيح، ثم التسبيح موجود فى ضمن التقديس، والتقديس موجود فى ضمن التسبيح» أ.هـ باختصار يسير[١] .

وقال الإمام **ابن كثير** ـ رحمه الله ـ : «وقوله تعالى: ﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ قال ابن جرير: التقديس هو التعظيم والتطهير. ومنه قولهم : سبُّوح قُدُّوس، يعنى بقولهم: سبوح؛ تنزيه له، وبقولهم: قدوس؛ طهارة وتعظيم له. وكذلك قيل للأرض، أرض مقدسة، يعنى بذلك المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذًا ﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ** ﴾ ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك.

---

(١) الأسماء والصفات (١/ ١٠٧).

و ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك » أ . هـ[1] .

وهناك من التنزيه ما لا يكون على وجه التعظيم، كأن تقول : رئيس الدولة ليس بلص، ولذا كان هذا القيد: (على وجه التعظيم) مضافًا لاسم السبوح.

والله - عز وجل - هو المنزه عن أن يكون له ند، أو يكون له شريك فى ملكه، سبحانه الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. سبحانه الذى لا تأخذه سنة ولا نوم. سبحانه الذى يُجير ولا يُجار عليه. سبحانه الذى لا يموت أبدًا، وكل خلقه يموت. سبحانه القادر على كل شىء، ولا يقدر عليه شىء. سبحانه الذى لا يحتاج إلى شىء ويحتاج إليه كل شىء. سبحانه العالم بكل شىء ولا يخفى عليه شىء.

سبحانه المنزه عن كل وصف يدركه حس أو يتصوره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضى به تفكير، بل هو سبحانه المنزه عن كل وصف من أوصاف الكمال يمكن أن يظنه عبد، فمهما تصور وتخيل العبد من العظمة والكمال لأى صفة من صفات ربه، فالله - عز وجل - منزه عن هذا التصور، وهو أعظم منها بكثير كثير، سبحانه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

وإذا أراد العبد أن يتقرب من ربه السبوح القدوس - جلا وعلا - فعليه أن ينزه نفسه ويقدسها من المعاصى والآثام، وليعلم أن كل معصية، إنما هى خطوة فى طريق انتكاس قلبه وقسوته، وبالتالى هى خطوة فى البعد عن ربه - جل وعلا - فعن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**تُعرضُ الفتنُ على القلوبِ كَعَرْضِ الحصير عُودًا عُودًا، فأىُّ قلبٍ أُشْرِبُها، نُكتَتْ فيه نُكْـتةٌ سوداءُ، وأىُّ قلبٍ أنكرها، نُكتتْ فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصيرَ القلوبُ على قلبين: على أبيض مثلِ الصَّفَا، فلا تضرُه فتنةٌ ما دامت السمواتُ والأرضُ. والآخر أَسْوَد**

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٦) .

مُرْبَادًّا، كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرفُ معروفًا، ولا يُنكر مُنكرًا، إلا ما أُشْرِبَ من هواه»[1].

فالفتن تعرض على قلوبنا ليل نهار، وهى تأتى فى أشكال وفى صور عديدة، فقد تكون فى عمل يعرض عليك، وهو حرام أو فيه شبهة، وأنت فى حاجة للمال. وقد تكون فى رشوة تعرض عليك، أو قد تكون فى امرأة متبرجة جميلة، تمر من أمامك، وقد تكون فى جار يؤذيك بعض الشىء، وقد تكون فى فرصة جاءتك لتغتاب فيها أخاك، كأن يذكره أحد أمامك بسوء، أو نحو ذلك، وغير ذلك مما لا يكاد أن يحصى، ومع كل فتنة، يجد العبد نفسه أمام طريقين: طريق الله تعالى، وطريق الشيطان، فإذا اختار طريق الشيطان، وعصى ربه، نُكِتَتْ فى قلبه نكتة سوداء، وأظلم قلبه بعض الشىء، فإذا استمر على المعصية، الواحدة تلو الأخرى يأتى وقت عليه يَسْوَد فيه قلبه، وينتكس ـ والعياذ بالله ـ ويصبح كالكوز مجخيًا، أى كالكوز المائل أو المقلوب، فالكوز المقلوب مهما وضعت فيه من ماء فهو لا يمكث فيه ولا يبقى، وهكذا صاحب هذا القلب، فمهما جاءه من الهدى، ومهما استمع إلى الوعظ والنصح والإرشاد، فإنه لا ينتفع بشىء من ذلك، ولا يستجيب، فقد طُمِسَ عليه قلبه، ورَانَ عليه كَسْبُه ، وأُغْلِقَت أبوابه، وضاعت مفاتيحها، وبعد عن ربه كل البعد.

وقد أحسن الإمام ابن المبارك ـ رحمه الله ـ فى قوله :

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوبَ ... وقد يُوْرِثُ الذلَّ إدمانُها

وتركُ الذُنوب حياةُ القلوبِ ... وخيرٌ لنفسِكَ عصيانُها

وقد ضرب الله تعالى لنا مثلاً جميلاً يبين خطر المعاصى على العبد، ويوضح فى نفس الوقت حاجة الإنسان الشديدة لكل عمل من أعماله الصالحة يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا**

---

(١) رواه مسلم .

الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمرَاتِ وأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

قال **الحسن البصرى** ـ رحمه الله ـ :«هذا مثل، قَلَّ والله من يَعْقِلَهُ من الناس» .

فهذا رجل عنده هذه الجنة الوارفة الظليلة التى تجري من تحتها الأنهار، لا يملك غيرها، وكبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها، ولم تعد به قوة لذلك. وليس له من يعينه، بل إن له ذرية ضعفاء، كَلٌّ عليه، لا ينفعونه بقوة ولا بتصرف، وهم مسؤولون منه، ونفقتهم عليه، لضعفهم وعجزهم، فكيف تكون حاجة هذا الرجل إلى جنته هذه حينئذٍ ؟ .

فإذا تصورت هذا الحال، وهذه الحاجة، فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار، وهو الريح التى تستدير فى الأرض ثم ترتفع فى طبقات الجو كالعمود، وفيها ـ أى فى هذه الريح ـ نار، مرت بتلك الجنة فأحرقتها، وصيرتها رمادًا ؟

فهكذا تكون مصيبة العبد عندما تحرق المعاصى التى ارتكبها أعماله الصالحة .

روى الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يومًا لبعض أصحاب النبى ﷺ: **فِيمَ تَرُونَ هَذِهِ الآية نَزَلَتْ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ﴾؟ قَالُوا : اللهُ أَعْلَم. فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ : قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لا نَعْلَمُ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِى نَفْسِى مِنْهَا شَىْءٌ يَا أَمِيرَ الـمُؤْمِنِينَ. قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِى! قُلْ وَلا تُحَقِّرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاس: ضُرِبَتْ مَثَلاً لِعَمَلٍ . قَالَ عُمَرُ : أَىُّ عَمَلٍ ؟ قَال ابنُ عباسٍ : لِرَجُلٍ غَنِى يَعْمَلُ بِطاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالـمَعَاصِى حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَه.**

فمن ذا الذى يود هذا ؟ ومن ذا الذى يفكر فى ذلك المصير ثم لا يتقيه ؟

---

(١) البقرة : ٢١٦ .

فصدق والله الحسن ـ هذا مثل قل من يعقله من الناس ـ ولذا نبه الله سبحانه وتعالى على عظم هذا المثل، وحدا القلوب إلى التفكير فيه لشدة حاجتها إليه، فقال: ﴿ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾.

فالعبد إذا عمل بطاعة الله ثم أتبعها بما يبطلها ويحرقها من المعاصى، كانت كالإعصار ذى النار المحرقة للجنة التى غرسها بطاعته وعمله الصالح.

وتحضرنى الآن مسألة فقهية، ليس الشاهد منها هو الحكم الفقهى الذى تتضمنه ـ رغم أهميته ـ ولكنه المعنى الذى تشير إليه، وهو خطر المعصية على العبد.

فقد ذهب الإمام ابن حزم الظاهرى ـ رحمه الله ـ فى كتابه المحلى (٦/ ١٧٧) إلى أن فعل أى معصية كانت، عمداً ـ كالكذب أو الغيبة أو ترك الصلاة أو النظر لما يحرم أو الظلم أو التبرج أو غير ذلك من كل ما يحرم على المرء فعله ـ يُبطل صوم العبد الصائم، فكل من كان صائما وارتكب معصية، بطل صومه. واستدل على مذهبه هذا بأدلة، نذكر منها ما يلي :

* ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : «**والصيامُ جُنَّةٌ، فإذا كان يومُ صومِ أحدكُم، فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ ، فإن سابَّهُ أَحدٌ أو قاتلهُ، فليقل : إنى صائمٌ**» .

وفى رواية عند البخارى، قال ﷺ للصائم : « **وَلا يَجْهَلْ** » .

فالصوم جُنة، أى وقاية وستر من المعاصى، لأنه ﷺ قال بعدها ما معناه : إذا كان أحدكم صائما، فليبتعد عن المعاصى، حتى وإن شتمه أحد أو تعارك معه أو قاتله، فلا يرد عليه بالمثل، لأنه فى عبادة جليلة، تستدعى السكينة والوقار، وليرد عليه فقط بقوله : إنى صائم .

* قال الإمام ابن حزم : فنهى ﷺ عن الرفث والجهل فى الصوم، فكأن من فعل شيئًا من ذلك ـ عامدًا أو ذاكرًا لصومه ـ لم يصم كما أمر، ومن لم يصم كما أمر، فلم يصم، لأنه لم يأت بالصيام الذى أمره تعالى به، وهو السالم من الرفث والجهل، وهما اسمان يعمان كل معصية.

* واستدل أيضًا بما رواه الإمام البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: « **مَنْ لم يَدعْ قولَ الزورِ والعملَ بهِ، فليسَ للهِ حاجةٌ فى أن يَدعَ طعامَهُ وشرابَهُ**». فمن لم يدع الكذب والقول الباطل، فلا حاجة لله فى ترك طعامه وشرابه، فصح أنه سبحانه لا يرضى صومه ذلك ولا يتقبله، وإذا لم يرضه ولا قبله، فهو باطل.

فليس الصيام مجرد إمساك عن الأكل والشرب والجماع فحسب، بل هو إمساك عن كل ما يتنافى مع تقوى الله عز وجل، ولذلك ، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش.

* واستدل بأدلة أخرى، ولكننا نكتفى بما سبق. وقد نقل أيضًا عن عمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، وأبى ذر الغفارى، وجابر بن عبد الله، وأبى هريرة، وأنس، رضى الله عنهم أجمعين، ما يدل على ما ذهب إليه من أن المعاصى تُبطل الصوم.

وقد خالف جمهورُ العلماء الإمامَ ابن حزم، وقالوا: إنَّ الذى يَبْطُل هو أجر الصوم وليس الصوم نفسه.

وليس المقام هنا لمناقشة هذين المذهبين، وأدلة كل منهما، والترجيح بينهما، فإنما يُرجع لذلك فى كتب الفقه، ولكن المقصود هنا كما ذكرت فى البداية هو بيان خطر المعاصى وأثرها السيئ على العبد. فها هى هنا فى مسألتنا: إما أن تُحْبطَ الصوم من أصله، أو تُحْبِطَ أجره، وكلا الأمرين خسران مبين.

فلا تستهن بأى معصية ، قال أنس رضي الله عنه كما جاء فى صحيح الإمام البخارى عنه : «**إنَّكُم لتعملونَ أعمالاً هى أَدَقُّ فى أعينكُم من الشَّعْر، إنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا على عهد النبى ﷺ من المُوبِقات**» . والموبقات : أى المهلكات.

إن تهوين المعصية وتصغيرها فى عين المرء من أعظم تلبيسات الشيطان، ولذا حذر أهل العلم من محقرات الذنوب، فإنه متى يُؤْخَذُ بها صاحبها تُهْلِكه.

وأعظم الذنوب على الإطلاق: هو الشرك، فالشرك دَنَسٌ، يدنس النفس، ويبعدها كل البعد عن ربها، ولذا فقد قال سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** ﴾(1).

وتنزيه النفس من المعاصى والآثام ليس هو كل الطريق إلى الله ـ جل وعلا ـ بل هو جزء منه، فإذا أردت أن تعرف بقية الطريق إلى القرب من الله ـ عز وجل ـ فانظر فى هذا الحديث التالى، فعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى قال: مَنْ عَادَى لى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْب، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِى بِشَيْء أَحَبَّ إِلَيَّ ممَّا افتَرَضْتُ عَلَيْه، وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافل حَتَّى أحبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذى يَسْمَعُ به، وَبَصَرَهُ الَّذى يُبْصرُ به، وَيَدَهُ الَّتى يَبْطشُ بهَا، وَرِجْلَهُ الَّتى يَمْشِى بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنى لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنى لأُعيذَنَّهُ**» (2).

فالمحافظة على الفرائض، كالصلاة والزكاة وبر الوالدين وغض البصر والأكل والشرب واللبس من المال الحلال، وغير ذلك من أعظم القربات إلى الله ـ عز وجل ـ وهى فى نفس الوقت تزيد العبد طهارة ونقاء، قال سبحانه عن الصلاة مثلا: ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾(3) وقال عن الزكاة: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾(4).

ثم تأتى بعد ذلك المحافظة على النوافل، وهى السنن، كسنن الصلاة وسنن الصيام، وسنن الطعام والشراب، وكل ما جاء من السنن عن النبى ﷺ فهذه خطوة أخرى لمزيد من القرب منه سبحانه وتعالى.

---

(1) التوبة: ٢٨.

(2) رواه البخارى. وقوله تعالى (ولئن استعاذنى)، فيه وجه آخر هو: (ولئن استعاذ بى)، قال ابن حجر فى الفتح (١١/ ٣٥٢): والأشهر الأول.

(3) العنكبوت: ٤٥.

(4) التوبة: ١٠٣.

فإذا استقام العبد على هذه وتلك ـ أى الفرائض والسنن ـ بلغ هذه المنزلة العليا ونال هذه الجائزة العظمى: « **كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذى يَسْمَعُ به، وَبَصَرهُ الَّذى يُبْصِرُ به، وَيَدَاهُ الَّتى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتى يَمْشِىْ بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنى لأعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنى لأعِيذَنَّهُ**» . فاللهم أعن ويسر، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك.

وقد قال بعض العلماء إن من عوامل قرب العبد من ربه أيضًا أن ينزه العبد إرادته وعلمه:

* **أما إرادته:** فينزهها عن أن تدور حول الحظوظ البشرية التى ترجع إلى لذة الشهوة والغضب، ومتعة المطعم والمنكح والملبس والمنظر، فهذه الإدراكات والحظوظ، تشارك فيها البهائم العبد، فينبغى أن يترقى عنها إلى ما هو من خواص الإنسانية، فجلالة العبد على قدر جلالة مراده، وأجل مراد، هو القرب من الله ـ عز وجل ـ بحيث لا يريد العبد إلا الله ـ عز وجل ـ ولا يأنس إلا بالله تعالى، ولا يكون له شوق إلا إليه، ولا يبقى له حظ إلا فيه سبحانه، ولا يسأم من خدمته، ولا يفتر عن ذكره جل وعلا.

* **وأما علمه:** فينزهه عن كل ما لاينفع، وعن كل ما لا يعود عليه بفائدة، فيجعل نظره وفكره وجهده في تحصيل أشرف العلوم، وهو العلم بالله تعالى، وأسمائه، وصفاته، والعلم بكيفية عبادة هذا الرب سبحانه وتعالى، والعلم بمهمة الإنسان ورسالته، التى أرسله الله إلى الأرض من أجل تحقيقها، والقيام بها، والعلم بكل ما تصح به تصوراته وأخلاقه وعقائده، والعلم بكل ما يحبط العمل من الشركيات، حتى لا يجد أعماله يوم القيامة وكأنها هباءً منثورًا، والعلم بكل ما فيه النفع له ، وللمسلمين. كما ينبغى عليه أيضًا أن ينزه علمه عن كل ما هو منحرف وضال من العلوم، والتى لا توافق ما جاء فى شريعة الله تعالى المطهرة، كتعلم الموسيقى مثلاً، ونحو ذلك من الأمور الفاسدة .

أسماء تتعلق بأنه تعالى هو الحق ولا حق سواه

■ **نذكر منها : [الحق]**

ـ **الحق**: هو سبحانه المتحقق وجوده وإلهيته وربوبيته أزلاً وأبدًا، بلا أدنى ريب.

الشرح:

إن الله تعالى هو صاحب الوجود الحقيقى، فهو سبحانه القائم بذاته، الذى لا يحتاج مطلقًا فى وجوده إلى أى شىء، وهذا على عكس جميع مخلوقاته، التى لا وجود لها بذاتها، إنما وجودها، ووجود الوجود كله، لا يكون إلا به سبحانه، ولذا كان وجوده هو الوجود الحق، ووجود كل ماسواه غير ذلك، فكل مخلوق فى هذا الوجود، مستمد لوجوده هذا منه ـ جل وعلا ـ ولا يقدر على القيام بذاته، ووجود كل ما سواه سبحانه قابل للتغير والعدم، بينما وجوده سبحانه لا يطرأ عليه تغير ولا زوال ولا عدم، فهو وجود أزلى، أبدى واقع فى كل حين، وفى كل حال، قال سبحانه : ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)** ﴾[١]، وقال ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[٢] ولذلك كان سبحانه هو الحق ، وكل ما عداه فهو باطل ، كما قال النبى ﷺ : « **أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ** »[٣] .

والمقصود بالباطل هنا : المضمحل الفانى.

وبمثل هذا المفهوم تعلم أن الله تعالى هو الرب الحق، بكل معانى الربوبية التى سبق بيانها، وأنه هو الإله الحق، بكل معانى الألوهية التى عرفناها، فلا رب، ولا إله على الحقيقة، إلا هو سبحانه، يقول تعالى : ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ**

(١) الرحمن : ٢٦، ٢٧.   (٢) القصص : ٨٨ .

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ .

الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) ﴾[1] فالذى يملك هذا كله هو الله، وهو الرب الحق دون سواه.

ويقول سبحانه: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ [2] ، فلا ملك على الحقيقة، تعنو له الوجوه، وتخضع له النفوس، ويأمن فى ظله المؤمنون، ويخيب فى حضرته الظالمون، إلا الله تعالى، الملك الحق.

ويقول جل وعلا: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [3] وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾[4] ، وقال :﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾[5] فلا خالق على الحقيقة إلا الله عز وجل، وهذا الوجود كله، بكل ما فى خلقه من دقة وإحكام وحكمة وإبداع وتناسق ملحوظ عجيب، ليدلك على هذا الخالق الحق، الذى لم يخلق كل هذا لهوًا وعبثًا، سبحانه، بل خلقه لحكمة ولغاية محددة.

ولأنه سبحانه وتعالى هو الحق، فقوله هو القول الحق، ووعده هو الوعد الحق، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[6] ، فوعده سبحانه لا يمكن أبدًا أن يخلف أو يتخلف، ووعده سبحانه آت لا ريب فيه. ولأن الحياة الدنيا تغر وتخدع، ولأن الشيطان

---

(١) يونس : ٣١، ٣٢.
(٢) طه : ١١٤.
(٣) الدخان : ٣٨، ٣٩ .
(٤) الأنعام : ٧٣.
(٥) المؤمنون : ١١٥، ١١٦.
(٦) لقمان : ٣٣.

يوسوس ويعد بالأمانى الكاذبة الخادعة، جاء هذا التحذير منهما، فمن لم يتيقن وعده تعالى الحق، واغتر بالحياة الدنيا، وانخدع بتزيين الشيطان، تجيئه هذه اللطمة يوم القيامة ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] ففى هذه اللحظة، وبعد فوات الأوان، يكشف الشيطان لأتباعه الذين اتبعوا وسوسته وتزيينه لهم، عن هذه الحقيقة المخزية، وهى أنه قد غرهم وخدعهم، وأنهم هم الذين عليهم اللوم فى ذلك وليس هو، لأنه لم يفعل أكثر من أن دعاهم إلى المعصية، فاستجابوا له، ونسوا وعد الله الحق، ونسوا العداوة التى بينهم وبينه، والتى أخبرهم بها سبحانه مرارًا، وحذرهم منها، فيتركهم الشيطان والحسرة والندامة تملؤهم ، بعد أن يتبرأ منهم أيضًا !! ويخبرهم أنه لا يملك لهم شيئًا.

وبعلم الإنسان أن الله تعالى هو الحق، وجب عليه أن يقدره ـ سبحانه ـ حق قدره، فيقبل عليه بكليته، محبًا ومطيعًا له، خاضعًا ذليلاً بين يديه، تائبًا عن معصيته، ويذكره فلا ينساه، ولا يطيع إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه ولا يستعين إلا به، فإن لم يفعل ذلك، فهذا دليل على عدم تيقنه لهذه الحقيقة. فيتيقنها يوم القيامة: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾[2] . ولكن بعد فوات الأوان.

ومن علم أن الله تعالى هو الحق، لم يعجب بنفسه، ولم يغتر بها مهما أوتى من نعم الدنيا، كالمال والجمال والعلم، وغير ذلك، فمن كانت بدايته نطفة قذرة، ونهايته جيفة منتنة ، وبين هذه البداية والنهاية يعيش يحمل النجاسات فى أحشائه، فأنى له أن يغتر أو يتكبر ؟!

---

(١) إبراهيم : ٢٢.　　(٢) النور : ٢٥.

أسماء تتعلق بتصديقه تعالى لنفسه

■ نذكرمنها: [المؤمن]

ـ المؤمن: هو سبحانه المُصَدِّقُ لنفسه.

الشرح:

إن أصل الإيمان هو التصديق، ومعنى المؤمن، أى هوسبحانه الموحد لنفسه والمصدق لها، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ** ﴾[1] . فشهد سبحانه لنفسه بنفسه، وكفى به سبحانه وتعالى شهيدًا. وصدق سبحانه نفسه بنفسه، فكفى به ـ جل وعلا ـ مصدقًا ، فمن أصدق من الله قيلا؟ ومن أصدق من الله حديثًا ؟ وفى شهادته وتصديقه تعالى لنفسه غناية عن كل شهادة، وعن كل تصديق.

والمؤمن سبحانه وتعالى يحب من عباده، العبد المؤمن، الذى شهد لربه تعالى بالوحدانيــة، وأفـرده سبحــانه وتعــالى وحده بالعــبودية، ولـم يجــعل له ندًّا ولا شريكًا، والذى صدق بما جاءه من ربه من الغيبيات تصديقًا يجعله وكأنه يراها رؤيا العين. فيرى القبر، وسؤاله الشديد، وعذابه المخيف، ويرى نفسه وهو مقبل على ذلك، ويرى الحشر والحساب وأهوال القيامة كلها، فيرى نفسه وكأنه فيها، فيجتهد للنجاة . ويرى الجنة وما فيها من النعيم الذى لا يخطر على قلب بشر، فيجتهد للفوز بها.

فالمؤمن لا يؤمن بهذا كله، ثم ينصرف عنه، بل يستعد له، ويجاهد من أجله.

والمؤمن يدخل فى دين الله كافة، فيتمسك بكل أوامره وتعاليمه وآدابه أشد التمسك، ولا يفرط فى شىء من ذلك، حتى ولو بدا فى نظره أنه أمر يسير، فإن الأمر قد يبدو عند العبد يسيرًا هينًا، وهو عند الله تعالى غير ذلك، وما ذلك إلا من تلبيس الشيطان. فانظر مثلاً إلى عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ عندما

---

(١) آل عمران : ١٨.

رأى النبى ﷺ عليه ثوبين معصفرين، فقال له : «**أُمُّكَ أَمَرَتْكَ بِهَذَا؟**» فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: أغْسِلهُمَا؟، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ أحْرِقهُمَا**»[1] . والثوب المعصفر: هو الثوب المصبوغ بالعصفر، والعصفر، نبات يستخرج منه صبغ أحمر، تصبغ به الأقمشة. ومعنى قوله « **أمُّكَ أَمَرَتْكَ بِهَذَا؟** » أى أن هذا من لباس النساء وزيهن وأخلاقهن، وقد ورد فى رواية عند مسلم أيضًا : «إن هذه من ثياب الكفار، فلا تلبسها»، فانظر هنا إلى شدة لهجة النبى ﷺ مع **عبدالله** بن عمرو ــ رضى الله عنهما ـ لمجرد لبسه لهذا الثوب، الذى فيه تشبه بالنساء وبالكفار، من ناحية اللون فقط، وانظر إلى تغليظ الزجر له بأمره أن يحرق هذين الثوبين ولا يغسلهما من هذا العصفر.

وعن عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ رأى خاتمًا من ذهب فى يد رجل، فنزعه، فطرحه، وقال: «**يَعْمَدُ أحَدُكُمْ إلى جَمْرة من نَار، فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**» ، قِيلَ للرَّجُلِ بَعْدَمَا ذَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ : خُذْ خَاتَمَكَ، فَانْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لا، وَاللهِ لا آخُذُه أبَدًا، وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ الله ﷺ[2].

فانظر إلى هذه الشدة من النبى ﷺ ــ وطرحه للخاتم، بعد نزعه من يد الرجل ـ فى هذا الأمر، والذى قد يبدو فى نظر بعض الناس اليوم هينًا !!.

وعن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : «**أنْهِكُوا الشَّوارِبَ، واعْفُوا اللّحَى**»[3] .

وعن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَنْ لَمْ يَأخُذْ من شَارِبِه فَلَيْسَ مِنَّا**»[4] ، فهذا أمر بقص الشارب وإحفاء ما طال عن الشفتين كما قال علماؤنا، وبإعفاء اللحية وعدم حلقها أو قص شيء منها أو نتفه، ثم يأتى

(١) رواه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو ــ رضي الله عنهما ـ .

(٢) رواه مسلم . (٣) رواه البخارى .

(٤) رواه أحمد والنسائى والترمذى وقال حديث صحيح، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع / ٦٥٣٣).

الحديث الثانى ليبين عظم هذا الأمر - وهو قص الشارب، فمن لم يفعله، فهو ليس منا، كما قال ﷺ مع أن هذا الأمر قد يبدو فى نظر البعض يسيرًا !!.

وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ**»[1] ، وعن أبى ذر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» قال : فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أبو ذر : خابوا وخسروا، من هم يارسول الله؟ قال : «**الـمُسْبِلُ، والـمَنَّانُ، وَالـمُنْفِقُ سِلعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ**» [2] ، وفى رواية : «**الـمُسْبِلُ إِزَارَهُ**».

وعن عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : دخلت على النبى ﷺ وعلى إزار يتقعقع، فقال : « **مَنْ هَذَا** »؟ قلت : عبدالله . قال : « **إِنْ كُنْتَ عَبْدَ اللهِ فَارْفَعْ إِزَارَكَ**». فرفعت إزارى إلى نصف الساقين، فلم تزل إزرته حتى مات[3] .

فهذا رسول الله ﷺ يبين للأمة أن الله - عز وجل - لا يكلم يوم القيامة المسبل، ولا ينظر إليه ولا يزكيه ويعذبه عذابـًا أليمـًا، والمسبل هو من أطال ثوبه أو إزاره إلى ما أسفل الكعبين، والكعبان هما العظمتان الناتئتان عند ملتقى الساق والقدم، عن اليمين وعن اليسار، وليس كما يظن العامة أن الكعب هو العَقب، فهذا الجزء الذى فى مؤخرة القدم من أسفل، والذى هو أكبر عظام القدم، لا يُسمى كعبًا كما تقول العامة، بل يسمى عقبًا، أما الكعب فهو كما بينا، وهذا الحكم خاص بالرجال دون النساء، فكل رجل أطال ثوبه حتى زاد عن الكعبين، فيعذب على ذلك يوم القيامة . قال الإمام **الخطابى** - رحمه الله - فى قوله ﷺ : «**ما أسفل من الكعبين من الإزار فى النار**»: « يريد أن الموضع الذى يناله الإزار من أسفل الكعبين فى النار، فكنى بالثوب عن بدن لابسه، ومعناه أن الذى دون الكعبين من

---

(١) رواه البخارى.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أحمد، وصححه الألبانى فى (الصحيحة/١٥٦٨) .

القدمين يعذب عقوبة. وقال: ويحتمل أن تكون (ما) سببيه، ويكون المراد الشخص نفسه».

فهذه هي عقوبة الإسبال، الذى قد يبدو فى نظر البعض أنه أمرٌ يسير!!.

وعن عبدالله بن مسعود - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أن رسول الله ﷺ قال: «**لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ وَالـمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالـمُتَنَمِّصَاتِ، وَالـمُتَفَلِّجَاتِ للحسن، الـمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله**»[1].

ففى هذا الحديث أن التى تضع وشمًا والتى تضعه لها، والتى تنمص حاجبها ليصير حسنًا، والتى تباعد بين أسنانها قليلا للحسن، كل هؤلاء، ملعونات، مطرودات من رحمة الله تعالى، من أجل فعلهن هذه الأمور، والتى قد تبدو فى نظر البعض - وذلك لجهلهم - أنه لا شيء فيها !!.

فما على العبد إلا أن ينقاد إلى شرع الله تعالى دون إعمال عقله فى ذلك، لأنه إن فعل ذلك، فسيضل كما ضل الكثيرون، ممن قسموا هذا الدين إلى قشور ولباب، عاملهم الله تعالى بعدله، وصرف عن المسلمين ضلالهم وخبثهم، وقد قال تعالى: ﴿ **وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ** ﴾[2].

فالمؤمن يقبل على هذا الدين بكل ما فيه بالطاعة والامتثال، كما أمر سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾[3]. والسِّلم هنا بمعنى الإسلام، كما بين الأئمة: ابن كثير والطبرى والقرطبى وغيرهم فى تفاسيرهم.

يقول الإمام **ابن كثير** - رحمه الله - عند تفسير هذه الأية:

«يأمر الله تعالى عباده المؤمنين به، المصدقين برسوله، أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك» أ. هـ.

---

(١) متفق عليه. (٢) النور: ١٥.

(٣) البقرة: ٢٠٨.

ويُحـــذر تعالى مَنْ يفعلون أموراً من الدين ، ويُعْرِضُونَ عن أخرى ، فيقول :
﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتمسكين بهذا الدين كله، وألا يجعلنا من المفرطين فى شىء منه، تحت حجج وأعذار واهية، هى من تلبيس الشيطان.

* * *

(١) البقرة : ٨٥ .

أسماء تتعلق بعلوه تعالى وكبريائه

■ **نذكر منها : [الأعلى ـ العلى ـ المتعال ـ الظاهر ـ المتكبر]**

ـ **الأعلى** : هو سبحانه صاحب العلو المطلق فى الشأن والذات، الذي لا يدانيه فى ذلك شيء.

ـ **العلى** : هو سبحانه صاحب الذات العلية ، وصاحب العلو والفوقية ، على جميع خلقه بلا كيفية

ـ **المتعال**: هو كالعلى ولكنه أكثر مبالغة.

ـ **الظاهر**: هو سبحانه الذى له صفة علو الذات وعلو الغلبة.

ـ **المتكبر**: هو سبحانه المتعالى عن صفات الخلق، الذى لا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه.

الشرح:

إن الله ـ عز وجل ـ هو البالغ الكمال فى الرفعة والعلو والكبرياء، فهو سبحانه العظيم فى ذاته، الذى تعالى عن كل نقص ينافى ألوهيته وربوبيته وكمال أسمائه وصفاته، فهو سبحانه صاحب الذات العلية، البالغة الرفعة والعظمة والكبرياء والمجد والعزة والشرف، بلوغـًا لا يمكن أن يصل إليه شيء من مخلوقاته، لا من قريب ولا من بعيد، فسبحانه الذى لا يعلو إلى مقامه الرفيع أحد، والذى لا رتبة فوق رتبته، وجميع المراتب منحطة عنه، المستحق لعظيم درجات المدح والثناء لما له من الرفعة والعظمة والكمال ، سبحانه وتعالى الذى ﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ (١) .

وهو سبحانه الظاهر بقدرته فوق كل شيء، ظهور غلبة، وظهور علو، أما ظهور الغلبة، فما من مخلوق فى ملكه إلا وهو فى قبضته، وتحت مشيئته، وأما ظهور العلو والفوقية على جميع مخلوقاته، فهذا هو الثابت له ـ جل وعلا ـ كما أخبرنا فى كتابه الكريم وكما جاءت بذلك السنة المطهرة، أنه سبحانه وتعالى عال فوق جميع خلقه، ومما جاء من الأدلة العديدة جداً على ذلك ما يلى :

(١) الشورى: ٤.

■ **تصريحه تعالى عن ذاته بالفوقية :**

قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾[١] . وقال عن ملائكته : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾[٢] .

■ **تصريحه تعالى بعروج الملائكة والكلم الطيب إليه :**

والعروج هو الصعود والارتفاع، وقد ثبت هذا فى قوله تعالى: ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ** ﴾[٣] وقوله : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾[٤] .

■ **تصريحه تعالى برفع عيسى - عليه السلام - إليه :**

كما فى قوله تعالى عنه - عليه السلام - ﴿ **بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ** ﴾[٥] .

■ **تصريحه تعالى بتنزيل الكتاب من عنده:**

كما قال سبحانه : ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾[٦] .

■ **تصريحه تعالى أنه فى السماء :**

كما قال سبحانه : ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ** ﴾[٧] ومعنى : فى السماء كما قال المفسرون من أهل السنة والجماعة: أى (على السماء وفوقها)، وقد جاء نحو ذلك فى القرآن، كما فى قوله تعالى حكاية عن قول فرعون للسحرة عندما آمنوا: ﴿ **وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** ﴾[٨]، أى على جذوع النخل، وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ** ﴾[٩] ، أى على الأرض، وهناك وجه آخر فى تفسيرها: وهو أن المراد بالسماء العلو.

---

(١) الأنعام :١٨ .
(٢) النحل : ٥.
(٣) المعارج : ٤ .
(٤) فاطر : ١٠.
(٥) النساء : ١٥٨.
(٦) الزمر : ١.
(٧) الملك : ١٦, ١٧.
(٨) طه : ٧١.
(٩) الروم : ٤٢ .

■ **تصريح النبى ﷺ بنزول الله تعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة:**

فعن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ قال : «**يَنْزِلُ رَبُّنا كُلَّ لَيْلَةَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيا حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونى فَأستَجِيبُ لَهُ، مَنْ يَسْألُنى فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنى فَأغْفِرُ لَهُ**»(١) .

■ **إقرار النبى ﷺ للجارية، عندما سألها عن مكان وجود الله تعالى بلفظ: «أين» فقالت : «فى السماء» .**

فعن معاوية بن الحكم السُّلَمى - رضي الله عنه - أنه قال : « كانت لى جارية ترعى غنمـًا قِبَلَ أُحُد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذِّيبُ قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بنى آدم، آسف كما يأسفون، لكنى صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فَعَظَّمَ ذلك علىَّ، قلت : يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: « **ائْتنى بها** » فأتيته بها، فقال لها : « **أينَ الله** » ؟ قالت : « فى السماء ». قال : « **أعْتِقْهَا فَإنَّهَا مُؤْمِنَةٌ** » (٢) .

■ **إشارة النبى ﷺ إلي ربه - جل وعلا - بما يفيد علوه تعالى :**

فعن جابر - رضي الله عنه - فى حديث طويل أن النبىﷺ قال فى حجة الوداع: «**أنْـتُمْ مَسْؤُولُون عَـنِّى، فَمَاذَا أنْـتُمْ قَائِلُونَ ؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فرفع أصبعه السبابة إلى السماء قائلا: « **اللَّهُمَّ اشْهَدْ** »(٣) . فرفع ﷺ أصبعه الكريمة إلى السماء إلى من هو فوقها وفوق كل شىء.

■ **رفع الأيدى إلى الله تعالى فى الدعاء:**

فعن سلمان - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ قال: « **إنَّ الله تَعَالى حَيِىٌّ كَرِيمٌ ، يَسْتَحى إذا رفعَ العبدُ إليه يَدَيْه ، أنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ** »(٤) وقد ثبت عن النبى ﷺ رفع

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه مسلم. (٣) رواه مسلم .

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع / ١٧٥٧) .

اليدين إلى السماء عند الدعاء فى مواضع عديدة، كما فى حديث القنوت والاستسقاء.

ولا تحسبن هذا لأن السماءَ قِبْلَةُ الدُّعاء كما يقول بعض الذين انحرفوا عن الصواب، فإن هذا القول باطل - أى قول: السماء قبلة الدعاء - من عدة أوجه:

* **أحدها:** أنه ليس عليه دليل من كتاب ولا من سنة ولا قال به أحد من سلف الأمة، فهو قول ما أنزل الله به من سلطان. وهذا من الأمور الشرعية الدينية، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها.

* **الثانى:** أن قبلة الدعاء هى قبلة الصلاة، فإنه يستحب للداعى أن يستقبل القبلة، وقد ثبت ذلك عن النبى ﷺ فى أكثر من موطن، منها ما جاء عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - **أنَّ النَّبى ﷺ اسْتَقْبَلَ البَيْتَ، فَدَعَا على سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْش**[1]. فمن قال إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة، أو إن له قبلتين: أحدهما الكعبةً، والأخرى السماء، فقد ابتدع فى الدين بدعة ضلالة.

* **الثالث:** أن القبلة هى ما يستقبله العابد بوجهه، كما تستقبل الكعبة فى الصلاة والدعاء والذكر والذبح، وكما يوجه إليها المحتضر والمدفون، ولذلك سميت وجهة، والاستقبال خلاف الاستدبار، فالاستقبال بالوجه والاستدبار بالدبر. فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعى وجهه إليها، وهذا لم يشرع، والموضع الذى ترفع اليد إليه لا يسمى قبلة، حقيقة ولا مجازاً.

هذا والمستقبل للكعبة يعلم أن ربه ليس هناك، بخلاف الداعى، فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه، ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده، فأمر التوجه فى الدعاء إلى الجهة العلوية ، أمر مركوز فى الفِطَر.

■ تصريح أم المؤمنين بفوقية الله - عز وجل - :

فعن أم المؤمنين زينب بنت جحش - رضى الله عنها - أنها كانت تفخر على

---

(١) متفق عليه .

أزواج النبى ﷺ وتقول : « **زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِى اللهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ**» [١] .

■ **تصريح النبى ﷺ بصعوده إلى ربه فوق السماء السابعة ليلة المعراج:**

فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - فى حديث الإسراء الطويل أن النبى ﷺ قال لهم أنه : عُرِج به إلى السماء السابعة، فلقى فيها إبراهيم ، فسلم عليه، ورحب به وأقر بنبوته، ثم رُفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عُرِج به إلى الجبار، جل جلاله، وتقدست أسمائه»[٢] .

■ **تصريح النبى ﷺ بصعوده إلى ربه ثم نزوله إلى موسى - عليه السلام - ليلة المعراج لتخفيف الصلاة:**

ففى حديث أنس - رضي الله عنه - السابق أنه بعد أن فُرضت الخمسين صلاة، وعاد النبى ﷺ، فمر على موسى فى السماء السادسة، فسأله: بِمَ أُمرت؟ قال: بخمسين صلاة، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. فالتفت ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار أن: نعم، إن شئت، فعلا به جبريل حتى أته به الجبار تبارك وتعالى» .

■ **صعود أرواح المؤمنين إلى الله - عز وجل - بعد السماء السابعة كما فى حديث البراء بن عازب المشهور:**

ففى هذا الحديث قال ﷺ عن روح المؤمن بعد موته: «.. **فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فلا يَمُرُّونَ عَلَى مَلأٍ من الـمَلائكَةِ إلا قَالُوا : مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّـيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ - بأَحْسَنِ أَسْمَائه الَّتى كَانُوا يُسَمُّونَهُ بهَا فى الدُّنْيا - حَتّى يَنْـتَهُوا به إلى سَمَاءِ الدُّنْيَـا، فَيَسْـتَفْتحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ منْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُـوهَا إلَى السَّمَاءِ الَّتى تَليهَا حَتّى يَـنْـتَهِى إلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْـتُبُوا كتَابَ عَبْـدِى فِى علِّيِّينَ...**» [٣] .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦).

■ **تصريحه تعالى عن فرعون ـ لعنه الله ـ أنه أراد الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى ـ عليه السلام ـ :**

وفى ذلك إشارة إلى إخبار موسى ـ عليه السلام ـ له بفوقية وعلو الله ـ جل وعلا ـ فقد قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾[١] .

وأسباب السموات : أى أبواب السماوات، أو : طريق السماوات.

■ **وقد قال بعلو الله تعالى على خلقه وفوقيته جماعة الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم من علماء الأمة وأئمة المسلمين**[٢] .

والعبد عندما يعلم ويؤمن أن ربه ـ جلا وعلا ـ فوق السماء، عالٍ على عرشه بلا حصر ولا كيفية، صار لقلبه قبلة فى صلاته وتوجهه ودعائه، فإذا لم يعرف ذلك صار ضائعـًا تائهـًا، لا يعرف وجهة معبوده، والعياذ بالله[٣] .

وأما بالنسبة لكبريائه تعالى: فهو سبحانه العظيم ذو الكبرياء، الذى يرى الكل حقيرًا بالنسبة لذاته، وينظر إلى المخلوقات كلها نظرة الملك لعبيده المملوكين. تفردت ذاته بالعظمة، وكل ما سواه يتصف بالذل أمام هذه العظمة وأمام هذه العزة، وليس هذا إلا لاستحقاقه تعالى ذلك شهودًا وتحقيقـًا، فهو سبحانه الذى ليس لملكه زوال، ولا فى عظمته انتقال.

وعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **العِزُّ إزَارهُ، وَالكِبْرِيَاءُ**

---

(١) غافر : ٣٦، ٣٧

(٢) راجع كتاب (مختصر العلو) للإمام الذهبى بتحقيق فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى.

(٣) راجع بحث العلو من كتاب شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٣٧٥ ـ ٣٩٤) فهو هام .

رِدَاؤه. وَقَالَ تَعَالَى: فَمَنْ يُنَازِعْنِي عَذَّبْـــتُهُ»[1] وفى رواية عند ابن ماجة أنه سبحانه يقول: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالعِزَّةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْـــتُهُ فِي النَّارِ»[2]. فالكبرياء والعظمة لا يكونان إلا لله ـ جلا وعلا ـ لأنه سبحانه هو وحده المستحق لذلك لكمال عظمته وجلاله .

* * *

---

(١) رواه مسلم دون قوله :(وقال تعالى)، وهى لا بد منها حتى ينتظم الكلام.

(٢) رواها أحمد وأبو داود وابن ماجة وغيرهم وصححها الألبانى فى الصحيحة (٥٤١) .

أسماء تتعلق بجماله تعالى وبهائه

■ **نذكر منها : [الجميل]**

ـ **الجميل:** هو سبحانه الذى له كمال الحسن والبهاء والجلال فى ذاته وأفعاله وأسمائه وصفاته.

الشرح:

إن من أعز أنواع المعرفة، معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهى معرفة خواص الخلق، فلا يدرك سموها إلا هم. وجمال الرب جل وعلا يكون على أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، وجمال الصفات. فأسمائه سبحانه كلها حسنى، فهى بالغة فى الحسن منتهاه. وصفاته تعالى كلها صفات عُلى، بالغة فى كمالها الكمال المطلق. وأفعاله جل وعلا كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة. وأما جمال الذات وما هو عليه، فأمر لا يدركه عقل بشر ، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات، تَعَرَّف بها سبحانه إلى من أكرمه من عباده، وهذا الجمال محجوب بستر الرداء والإزار، كما قال ﷺ فيما يرويه عن ربه ـ عز وجل ـ :« **العِزُّ إزَارى والكِبْرِيَاءُ رِدَائى..**»[1] فسبحانه الكبير المتعال.

قال بعض السلف: «حجب الرب سبحانه الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، فما ظنك بجمال حُجب بأوصاف الكمال، وسُتر بنعوت العظمة والجلال ؟ » .

ومن هذا المعنى تُفهم بعض معانى جمال ذاته، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلي معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات. فإذا شاهد شيئًا من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات.

ويكفى فى جماله سبحانه، أنه لو كشف الحجاب عن وجهه الكريم، لأحرقت

---

(١) سبق تخريجه في مجموعة الأسماء السابقة .

سبحات وجهه ـ أى أنواره ـ ما انتهى إليه بصره من خلقه، كما قال ﷺ. ويكفى فى جماله سبحانه، أن كل جمال ظاهر وباطن فى الدنيا والآخرة، فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال؟ ويكفى فى جماله سبحانه، أنه نور السموات الأرض، فبنوره تعالى أضاءتا، وأنه يوم القيامة إذا جاء سبحانه لفصل القضاء، تشرق الأرض بنوره، كما قال تعالى : ﴿ **وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ** ﴾[1] .

ويكفى فى جماله أنه سبحانه له العزة جميعًا والقوة جميعًا والجود كله والإحسان كله والعلم كله والفضل كله ، سبحانك يا ربى لا يستطيع أحد من خلقك أن يحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

وأعلم أن قوله ﷺ : « **إن الله جميل يحب الجمال** » يشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة وآخره سلوك. فعلى العبد أن يعرف الله سبحانه بالجمال الذى لا يماثله فيه شىء، وهذه هى المعرفة. ثم عليه أن يعبده بالجمال الذى يحبه سبحانه من الأقوال والأعمال والأخلاق. فلا يرد على لسانه إلا كل جميل من الأقوال. ولا يرد على قلبه إلا كل جميل من الأمور الباطنة، كالمحبة والإخلاص والإنابة والتوكل. ولا يرد على جوارحه إلا كل جميل من الطاعات، كالصلاة مثلاً، فلا يجعلها العبد بلا خشوع ولا خضوع، فإنه سبحانه لا يحب ذلك، بل يحب الجمال، والذى لا يكون فيها إلا بالخشوع والخضوع والتدبر. وهذا هو السلوك. فمن تحققت فيه هذه المعرفة وتلك السلوك، فقد نال حظًّا عظيمًا من هذا الاسم[2] .

* * *

---

(١) الزمر : ٦٩ .

(٢) انظر (الفوائد / ١٧٧) . للإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ .

أسماء تتعلق بعظمته تعالي ومجده

■ **نذكر منها : [العظيم ـ المجيد ـ الكبير ـ الرفيع ـ النور]**

ـ **العظيم:** هو سبحانه البالغ فى العظمة قدرًا جل عن إدراك العقول.

ـ **المجيد:** هو سبحانه البالغ النهاية فى المجد والشرف.

ـ **الكبير:** هو سبحانه الذى صغر دونه كل كبير وعظيم.

ـ **الرفيع:** هو سبحانه صاحب السمو والرفعة والمقام العالى والصفات العُلى.

ـ **النور:** هو سبحانه الذى بنوره أضاءت السموات والأرض.

الشرح:

إن عظمة الله تعالى أمر لا يمكن للعقول أن تتصوره، فضلاً عن أن تبلغ كنهه، فهى أمر يضيق نطاق التعبير عن بيانه ويكل اللسان عن وصفه، ويعجز العقل عن التفكر فيه، فإله تفرد بالملك والملكوت، والحياة التى لا بداية لها ولا نهاية، والقيام بالذات والغنى عن كل كائن فى الوجود، والوجود الذاتى الذى يمد بالوجود كل موجود.

لا ينام أبدًا ولا تأخذه حتى مجرد سِنَة، له ما فى السموات والأرض وما بينهما، هو الذى خلق كل شىء، عليم محيط بكل شىءٍ، فلا تخفى عليه خافية، يعلم ما فى الغيب ويعلم عاقبة الأمور، قائم على هذا الوجود كله بالحفظ والتدبير، لا صاحبة له ولا ولد، ولا معين ولا مشير، لا يكون إلا ما أراد، فلا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، مشيئته نافذة فى الوجود كله، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون. إله بلغ فى المجد والشرف المنتهى، والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها. إله صغر دونه كل كبير وعظيم فى هذا الوجود، ولا نقصد من الكبر والصغر هنا الأحجام والمقادير، فسبحانه منزه عن المقدار والحجمية، بل المقصود القدر والمنزلة والرتبة.

إله بلغ الكمال فى أسمائه وصفاته كلها، فهو السيد الذى كمل فى سؤدده،

*

والغنى الذي كمل فى غناه، والعالم الذى كمل فى علمه، والقادر الذى كمل فى قدرته، والحليم الذي كمل فى حلمه، والجبار الذى كمل فى جبروته، وهكذا إلى آخر أسمائه تعالى وصفاته. إله له السمو والرفعة والكبرياء، ظاهر وعال فوق جميع مخلوقاته، جليل القدر، مهاب السلطة، كل من فى السموات والأرض فى قبضته، له الجلالة التى تدك الشامخ العالى، وله العزة التى ترفع شأن المطيع الموالى، من عرفه، خاف من جانبه، وعكف على بابه، ولم يرج إلا سواه، ولم يحب إلا إياه.

إله غمر بفضله وإحسانه كل حى فى السموات والأرض. إله هذه بعض صفاته وأوصافه، فكيف تكون عظمته؟ وكيف يكون هو؟ سبحانه العلى العظيم الذى ليس كمثله شيء.

والله تعالى صاحب السمو والرفعة، يحب لعبده أن يسمو بنيته فى أعماله كلها، فلا يجعلها إلا لله - عز وجل - فلا يتعلق قلبه بالناس، ولا ينظر إليهم، وإلى المنزلة عندهم، وليتعلق قلبه برب الناس وحده، الذى إليه المرجع والمآب. وأن يسمو بأخلاقه وسلوكه مع الآخرين، فلا يجهل على الجاهلين، ولا يصخب على الصاخبين، بل يكون كما قال الله - جل وعلا - لرسوله ﷺ : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)** ﴾[١] .

﴿ **خُذِ الْعَفْوَ** ﴾: الميسر الممكن من أخلاق الناس فى المعاشرة والصحبة، ولا تطلب إليهم الكمال، ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق، واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم. كل ذلك فى المعاملات الشخصية، لا فى العقيدة الدينية ولا فى الواجبات الشرعية، فليس فى عقيدة الإسلام ولا شريعته يكون التغاضى والتسامح، ولكن فى الأخذ والعطاء والصحبة والجوار، وبذلك تمضى الحياة سهلة

---

(١) الأعراف : ١٩٩، ٢٠٠.

لينة. فالإغضاء عن الضعف البشرى، والسماحة معه، واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء.

يقول أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ : « كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه بُردٌ نجرانى غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابى، فجَبَذهُ بردائه جَبذَةً شديدةً، فنظرتُ إلى صفحة عَاتقِ النبى ﷺ. وقد أثَّرت بها حاشيةُ البُرد من شدة جذبته، ثُمَ قال: يامحمدُ مُرْ لى من مال الله الذى عندك! فالتفتَ إليه النبى ﷺ **فضحكَ، ثم أمرَ له بعطاء**»[1] . ويروى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لى قرابة أصِلُهَم ويقطعونى، وأُحسِنُ إليهم ويسيئون إلىَّ، وأحلمُ عليهم ويجهلونَ علىَّ! فقال ﷺ: **«لَئِنْ كُنْت كمَا قُلتَ فكَأنَّمَا تُسِفُّهُم الـمَلَّ، ولَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْـهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلكَ»**[2] .

ومعنى تسفهم المَلَّ: أى كأنك تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم.

هذا هو السمو فى المعاملات الذي نقصده.

﴿ **وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ** ﴾ : وهو الخير المعروف الواضح الذى لا يحتاج إلى مناقشة وجدال.

﴿ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ : والجهالة ضد العلم وضد الرشد، والإعراض يكون بالترك والإهمال والمرور بما يجهلون به من التصرفات والأقوال، مر الكرام، وعدم الدخول معهم فى جدال لا ينتهى إلى شىء إلا الشد والجذب، وإضاعة الوقت والجهد. وقد ينتهى السكوت عنهم، والإعراض عن جهالتهم إلي تذليل نفوسهم وترويضها، فإن لم يؤد إلى هذه النتيجة، فإنه يسقطهم من أعين الآخرين، الذين يرون هذا العفو والإعراض، أمام هذه الجهالة.

ولكن لطبيعة تكوين الإنسان، فقد تثور نفسه أحيانًا على جهالة الجهال وسفاهة السفهاء لذا يأمره ربه هنا أن يستعيذ بالله، ليصرف هذا الغضب، ويأخذ

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم .

على الشيطان طريقه. والله هو السميع العليم، سميع لجهل الجاهلين وسفاهتهم، عليم بما تحمله نفس العبد من أذاهم، وفى هذا ترضية وتسرية للنفس فحسبها أن الجليل العظيم يسمع ويعلم، فماذا تبتغى نفس بعد ما يسمع الله ويعلم ما تلقى من السفاهة والجهل، وهى صابرة كما أمرها سبحانه على هؤلاء الجاهلين.

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

قال شقيق بن إبراهيم: أُغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء:

اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم فى العلم وتركهم العمل، و المسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بأفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

قلت[١]: وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها، واستبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير، وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون. فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته فى شرف النفس ونبلها وكبرها. وأصل الشر، خستها ودناءتها وصغرها، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾[٢] أى: قد أفلح من كبرها وكثرها، ونماها بطاعة الله، وقد خاب من صغرها وحقرها بمعاصى الله. فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذبابُ على الأقذار. فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾[٣] [٤].

وهذا كلام جميل فى أهمية سمو النفس وعلوها، فاللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

---

(١) القائل هو الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ .

(٢) الشمس ٩، ١٠.

(٣) الإسراء : ٨٤.

(٤) (الفوائد / ١٧٣) باختصار يسير .

أما بالنسبة لنوره تعالى[1] ، فقد قال سبحانه : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[2] .

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: « وقد فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ بكونه مُنَوِّر السموات والأرض، وهادى أهل السموات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذى هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم النور، الذى هو أحد الأسماء الحسنى. والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلي موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله، فالأول كقوله ـ عز وجل ـ ﴿ **وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا** ﴾ فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء. ومنه قوله ﷺ : «**أعوذ بوجهك، أو بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات**» فأخبر ﷺ أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله، كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه» . وهذا الذى قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أقرب إلى تفسير الأئمة من قول من فسرها بأنه هادى أهل السموات والأرض.

وأما من فسرها بأنه مُنَوِّر السموات والأرض، فلا يتنافى مع قول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها » أ.هـ[3].

---

(١) راجع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى على اسمه سبحانه (النور) فى مجموع الفتاوى(٦/ ٣٧٤).

(٢) النور : ٣٥ .

(٣) التفسير القيم : (٣٧٥، ٣٧٦) .

ثم قال ـ رحمه الله ـ على الضمير فى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ : «الصحيح أنه يعود على الله سبحانه وتعالى، والمعنى: مثل نور الله سبحانه وتعالى فى قلب عبده. وأعظم عباده نصيبًا من هذا النور: رسول الله ﷺ. قال أُبى بن كعب: «مثل نوره فى قلب المسلم» وهذا هو النور الذى أودعه الله فى قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره. وهو نوره الذى أنزله إليهم فأحياهم به، وجعلهم يمشون بين الناس، وأصله فى قلوبهم، ثم تقوى مادته، فتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وإن كان سائر الخلق له منكر. فإذا كان يوم القيامة، برز ذلك النور، وصار بأيمانهم، يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه فى قلوبهم فى الدنيا.

منهم من نوره كالشمس، وآخر كالقمر، وآخر كالنجوم، وآخر كالسراج، وآخر يُعْطَى نورًا على إبهام قدمه يضئ مرة ويطفأ أخرى، إذا كانت هذه حال نوره فى الدنيا، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عيانـًا. ولما لـم يكن للمنافق نور ثابت فى الدنيا، بل كان نوره ظاهرًا لا باطنـًا، أعطى نورًا ظاهرًا، مآله إلى الظلمة والذهاب.

وضرب الله ـ عز وجل ـ لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلاً بالمشكاة، وهى الكُوَّة فى الحائط، فهى مثل الصدر، وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج، حتى شبهت بالكوكب الدرى فى بياضه وصفائه، وهى مثل القلب، وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافـًا هى فى قلب المؤمن، وهى الصفاء والرقة والصلابة، فيرى الحق والهدى بصفائه، وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته، ويجاهد أعداء الله تعالى ويغلظ عليهم ويشتد فى الحق، ويصلب فيه بصـلابته، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ولا تعارضها، بل تساعدها وتعاضدها ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

وفى الزجاجة مصباح، وهو النور الذى فى الفتيلة، وهى حاملته، ولذلك النور

مادة وهو زيت قد عصر من زيتونة فى أعدل الأماكن، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فزيتها من أصفى الزيوت وأبعده من الكدر، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار، فهذه مادة نور المصباح، وكذلك مادة نور المصباح الذى فى قلب المؤمن: هى من شجرة الوحى التى هى أعظم الأشياء بركة وأبعدها عن الانحراف، بل هى أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها، لم تنجرف انجراف النصرانية، ولا انحراف اليهودية، بل هى وسط بين الطرفين المذمومين فى كل شيء فهذه مادة مصباح الإيمان فى قلب المؤمن.

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاءوه حتى كاد أن يضيء بنفسه، ثم خالط النار، فاشتدت بها إضاءته وقويت مادة ضوء النارية فيه، كان ذلك نورًا على نور، وهكذا المؤمن: قلبه مضيء، يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله، ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحى فباشرت قلبه، وخالطت بشاشته، فازداد نورًا بالوحى علي نوره الذى فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحى إلى نور الفطرة، نور على نور، فيكاد ينطق بالحق، وإن لم يسمع فيه أثرًا، ثم يسمع الأثر مطابقـًا لما شهدت به فطرته، فيكون نورًا على نور، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملاً، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلاً، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحى وعن شهادة الفطرة» أ. هـ[1] .

رحم الله تعالى إمامنا الجليل - ابن القيم - وجزاه الله خيرًا على هذا البيان الجميل.

* * *

---

(١) التفسير القيم (٣٧٢ - ٣٧٤)، (٣٧٧).

أسماء تتعلق بكماله تعالى المطلق

■ **نذكر منها: [الواسع ـ الحميد]**

ـ **الواسع:** هو سبحانه الذى لا حدود لمدلول أسمائه وصفاته .

ـ **الحميد:** هو سبحانه المستحق للثناء الكامل لاتصافه بجميع أوصاف الكمال.

الشرح:

إن سعة الله تعالى فى أسمائه وصفاته لهى أمر فوق إدراك العقول، فهو سبحانه الواسع المطلق، الذى إن نُظر إلى ملكه، فلا نهاية لسلطانه، وإن نُظر إلى غناه، فإنه لا حدود له، وإن نظر إلى علمه، فإنه لا ساحل لبحر معلوماته، وإن نُظر إلى كرمه، فلا حد لنعمه وإحسانه، وهكذا بالنسبة لسائر أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

يقول تعالى فى الحديث القدسى المشهور : **«يا عبادي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ قامُوا فِي صَعِيد واحد، فسألُونى، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْألَتَهُ، ما نقصَ ذلِكَ مِمَّا عِندِي إلا كما يُنْقِصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ»**[1] .

(والمخيط: أى الإبرة) . فما ظنك إذن بسعة ما عنده سبحانه؟.

وقال ﷺ : **«إنِّى لأعْلَمُ آخِرَ أهل النارِ خروجًا منها، وآخِرَ أهلِ الجنةِ دخولاً الجنةَ، رجلٌ يخرجُ من النار حَبْوًا، فيقولُ الله عز وجل لهُ: «اذْهب فادخلِ الجنة» فيأتيها، فَيُخَيَّلُ إليه أنها مَلأى، فيرجِعُ فيقولُ يا ربِّ وجدْتُها مَلأى، فَيقُولُ الله عز وجل له: «اذْهَبْ فادخلِ الجَنَةَ» فيأتيها، فَيُخَيَلُ إليه أنها مَلأى، فيرجعُ، فيقولُ يارِبِّ وجدْتُها مَلأى! فيقولُ الله عز وجل لُه: «اذْهَبْ فادخَلِ الجنةَ، فإنَّ لكَ مثل الدنيا وعشرةً أمثالَهَا» أو: «إن لك مثلَ عشرةِ أمثال الدنيا» فيقولُ: أتسخرُ بِى،**

---

(١) رواه مسلم عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ .

أوتضحك بى، وأنت الملكُ». يقولُ عبدالله بن مسعود، راوى هذا الحديث: فلقدْ رأيتُ رسولَ الله ضَحِكَ حتى بَدَتْ نواجِذُهُ، وكان يقولُ: «ذَلِك أَدْنَى أهلِ الجنةِ مَنْزلةً»[1] .

فإذا كان سبحانه وتعالى يعطى أدنى رجل فى الجنة مثل عشرة أمثال هذه الحياة الدنيا، فما ظنك إذن بسعة غناه عز وجل؟

ويقول تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[2] فلو أن جميع أشجار الأرض جُعلت أقلامًا وجعل البحر مدادًا لها، وأمده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله، الدالة على علمه وعظمته، لتكسرت الأقلام وانمحت، ولنفد كل هذا المداد، ولم تنفد هذه الكلمات.

وعندما ركب موسى والخضر عليهما السلام السفينة، وقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره فى البحر، فقال الخضر لموسى: « **ما علمُكَ وعلمِى وعلمُ الخلائقِ فِى علمِ الله، إلا مِقدارَ ما غَمَسَ هذا العصفورُ منقَارَه**»[3] .

فما ظنك بعد ذلك بسعة علمه سبحانه؟

سبحانك ربى، لا أحد يستطيع أن يحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

ولذا فإنَّ الله عز وجل قد حمد نفسه، وافتتح كتابه بحمده قائلاً: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أى: سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يحمدنى أحد من خلقى، فهو ـ جل وعلا ـ يعلم عجز عباده عن الحمد الجدير به سبحانه، مهما رسخت أقدامهم فى العلم، وعظم حظهم من الفهم، ألا ترى سيد المرسلين ﷺ كيف أظهر هذا العجز بقوله: « **لا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ** » .

---

(١) متفق عليه . (٢) لقمان : ٢٧ . (٣) رواه البخارى.

وقد قال بعض السلف: «حمد الله تعالى نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده، فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المنة».

والعبد عندما يقول: الحمدلله، فهو يثبت له سبحانه جميع المحامد، وجميع الصفات العلى، وجميع مننه على خلقه، فهو سبحانه له صفات الكمال ونعوت الجلال، التى لأجلها استحق الحمد في الأولى والآخرة.

وقد كان النبى ﷺ يبدأ خطبه ومواعظه بقوله: « **إنَّ الحَمْدَ لله** »، مثبتا له سبحانه جميع المحامد. وقد حمد الله تعالى نفسه أيضًا بما أنعم بهِ على عباده فقال: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)** ﴾[1] . وحمد رب العزة نفسه على عدم اتخاذ الولد، المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبد كل شىء له، فقال: ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** ﴾[2] . وحمد جل وعلا نفسه على هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذى تحدى البشر أن يأتوا بسورة من مثله، فقال :﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا** ﴾[3]. ومما حمد به سبحانه نفسه أيضًا، خَلقِ السموات والأرض بما فيهما من إعجاز يعجز عن بيانه أى واصف، مهما كانت بلاغته، فقال: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾[4] . وأخبر جل وعلا أنه محمود في كل مكان وفى كل زمان، وأنه

---

(١) غافر : ٦٤، ٦٥.

(٢) الإسراء : ١١١.

(٣) الكهف : ١ .

(٤) الأنعام : ١ .

ما من شيء مخلوق إلا وهو يسبح بحمده تعالى، فقال: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1] وقال: ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[2] وقال: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[3].

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[4] سبحان الله، السماوات تلك الخلائق الضخمة الهائلة، تكاد أن يتشققن، لجلال الله تعالى وعظمته، وكماله المطلق، في كل صفاته واتصافه سبحانه بجميع المحامد. ثم إن القلب ليرتجف حين يتصور أن كل حبة وكل حجر وكل ورقة وكل زهرة وكل ثمرة وكل شجرة وكل جماد وكل حشرة وكل طائر وكل حيوان وكل إنسان وكل دابة على الأرض وكل أهل السماء، كلها تسبح بحمد الله، وتتوجه إليه في علاه.

والحمد فى كلام العرب معناه: الثناء الكامل؛ والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد المطلق، إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا.

والحمد نقيض الذم، وهو أعم من الشكر، لأن الحمد هو: ثناء على الممدوح بصفاته اللازمة والمتعدية. أما **الشكر** فهو: ثناء على المشكور بصفاته المتعدية فقط. فإنك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة ومواهبه ـ وهذه الصفات اللازمة ـ وعلى ما أولاه لك من المعروف ـ وهذه صفاته المتعدية ـ ولكنك لا تشكره إلا على معروفه إليك فقط، دون صفاته ومواهبه.

---

(١) القصص: ٧٠.
(٢) الروم: ١٨.
(٣) الإسراء: ٤٤.
(٤) الشورى: ٥.

أما **المدح** فهو أعم من الحمد، لأنه يكون للحى، وللميت، وللجماد، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، على الصفات اللازمة والمتعدية، فهو أعم.

قال الإمام **ابن القيم** رحمة الله تعالى عليه :

« **الحميد**: فعيل من الحمد، وهو بمعنى محمود ، وأكثر ما يأتى فعيلاً فى أسمائه تعالى بمعنى (فاعل)، كسميع وبصير وعليم وقدير وحكيم وحليم، وكذلك (فعول) كغفور وشكور وصبور . وأما (الحميد): فلم يأت إلا بمعنى المحمود، وهو أبلغ من المحمود، فإن فعيلاً إذا عُدِلَ به عن مفعول، دل على أن تلك الصفة قد صارت مثل السجية والغريزة والخلق اللازم، كما إذا قلت : فلان شريف وكريم.

فالحميد: هو الذى له من الصفات وأسباب الحمد ما يقتضى أن يكون محمودًا وإن لم يحمده غيره، فهو حميد في نفسه، والمحمود من تعلق به حمد الحامدين.

والحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود، فمن أحببته ولم تثن عليه، لم تكن حامدًا له، وكذا من أثنيت عليه لغرض ما، ولم تحبه، لم تكن حامدًا له، حتى تكون مثنيا عليه محبـًا له» أ. هـ[1] .

وفى معنى: (سبحان الله وبحمده) قال الإمام **ابن حجر** رحمه الله:

« قيل الواو للحال، والتقدير: أسبح الله متلبسًا بحمدى له من أجل توفيقه. وقيل عاطفة، والتقدير: أسبح الله وأتلبس بحمده. ويحتمل أن تكون الباء متعلقة بمحذوف متقدم، والتقدير: أسبح الله وأثنى عليه بحمده، فيكون (سبحان الله) جملة مستقلة، و(بحمده) جملة أخرى»[2] .

* * *

---

(١) (جلاء الأفهام/ ٢٥٣) بتصرف.

(٢) فتح البارى(١٣/ ٥٥٠) بتصرف يسير .

أسماء تتعلق بغناه تعالى المطلق

■ **نذكر منها: [الغنى]**

الغنى: هو سبحانه المستغنى فى ذاته وصفاته وأفعاله عن كل ما سواه، والمفتقر إليه كل ما عداه.

الشرح:

لا جدال أن الله عز وجل هو الغنى عن كل ما سواه، وكل شىء فقير إليه، فلا صاحبة له ولا ولد يعينه على تدبير أمور ملكه، أو غير ذلك من الأمور، كما قال تعالى: ﴿ **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾[1] فإن البشر غالبًا يحتاجون إلى الولد من أجل أن يعينهم فى كفاحهم فى هذه الحياة، أو فى تحصيل المال، أو تعويضًا عن القوة حين يشيخون ويضعفون، ولكن الله سبحانه وتعالى مستغن عن ذلك كله فسبحانه له ما في السموات وما في الأرض، وهو سبحانه لا يهرم ولا يموت أبدًا.

هو سبحانه الغنى، بكل معانى الغنى عن خلقه أجمعين، سواء منهم من آمن به أو من كفر، فلا يزيد فى ملكه عِبَادَةُ من عَبَده، ولا ينقص شيئًا من ملكه كُفْرُ من كَفَر، ﴿ **وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾[2].

وقد قال النبىﷺ فيما روى عن ربه تبارك وتعالى: «.. **يَا عِبَادَى إنكم لن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى يا عِبَادى لو أنَّ أَوَّلَكَمْ وآخركُمْ وإنسكُمْ وجِنَّكُمْ كانوا على أتقى قلب رَجُلٍ واحد منكم، ما زاد ذلكَ فى ملكى شيئًا. يا عبَادِىَ لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وآخركُمْ وإنسكُمْ وجنكُمْ كانوا على أفجر قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما نَقَصَ ذلك من مُلِكى شيئًا**»[3].

---

(١) يونس: ٦٨. (٢) النمل: ٤٠.

(٣) رواه مسلم.

هو سبحانه الكامل بما له وبما عنده، فلا يحتاج إلى أحد فى رزق أو غيره: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾[١] . فالله عز وجل له الغنى المطلق فى كل شىء، مستغن فى كل شىء، عن كل شىء.

هذا وفى نفس الوقت فإن الخلق أجمعين مفتقدون إلى ربهم جل وعلا وفقراء إليه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[٢] . وهذا الفقر نوعان: فقر إلى ربوبيته تعالى، وهو فقر المخلوقات بأسرها. وفقر إلى ألوهيته تعالى، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين[٣]. وهذا الفقر الثانى ناتج عن معرفتين: معرفة العبد بحقيقة ربه، ومعرفته بحقيقة نفسه، فمتى حصلت هاتان المعرفتان، نتج هذا النوع من الفقر النافع، الذى هو عين غنى العبد، وعنوان فلاحه وسعادته، وتفاوت الناس فى هذا الفقر، بحسب تفاوتهم فى هاتين المعرفتين.

وبالنسبة لغنى العبد، فحقيقته فى قوله ﷺ: «**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، ولكنَّ الغنَى غِنَى النَّفسِ**»[٤] . قال ابن بطال رحمه الله: «معنى الحديث: ليس حقيقة الغنى كثرة المال، فكثير من الموسع عليهم فيه لا ينتفع بما أوتى، جاهد فى الازدياد، لا يبالى من أين يأتيه، فكأنه فقير من شدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى، غنى النفس، وهو من استغنى بما أوتى وقنع به ورضى ولم يحرص على الازدياد، ولا ألح فى الطلب» أ.هـ .

والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعًا بما قسم الله له، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلح فى الطلب، بل يرضى بما قسم له، فكأنه واجدٌ أبدًا، والمتصف بفقر النفس على الضد منه. ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره، علمـًا بأن الذى عنده سبحانه خير وأبقى.

---

(١) الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨.   (٢) فاطر : ١٥.

(٣) سبق بيان معنى وحقيقة كل من الربوبية والألوهية، فليرجع إلى ذلك.

(٤) متفق عليه من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ .

وقد قال بعض العلماء: «وإنما يحصل غنى النفس، بغنى القلب، بأن يفتقر إلى ربه فى جميع أمره، فيتحقق أنه المعطى المانع، فيرضى بقضائه، ويشكر على نعمائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى النفس عن غير ربه. والغنى الوارد فى قوله تعالى ﴿ **وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ** ﴾ ينزل على غنى النفس، فإن الآية مكية، ولا يخفى ما كان فيه ﷺ قبل أن يفتح عليه خيبر وغيرها من قلة المال».

قال الإمام **القرطبي**: «وإنما كان الممدوح (غِنَى النفس) لأنها حينئذ تكف عن المطامع فَتَعِز وتعظم، ويحصل لها من الحظوة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذى يناله مع كونه فقير النفس لحرصه، فإنه يورطه فى رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله وحرصه، فيكثر من يذمه من الناس، فيصغر قدره عندهم، فيصير أحقر من كل حقير وأذل من كل ذليل»(١) .

وقد جاء عن عبدالله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**قَدْ أفلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَـنَّعَهُ الله بما آتاهُ**» (٢) . والكفاف: هو الذى ليس فيه فضل عن الكفاية.

وفى بيان خطر الحرص على المال قال النبى ﷺ : « **مَا ذِئْـبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فى غَنَمٍ بأفسدَ لَها من حِرْصِ المرءِ على المالِ والشرفِ لدينه**»(٣) .

فالمفسدة التى تحدث فى دين المرء، نتيجة حرصه على المال والجاه، أكبر من المفسدة التى تحدث نتيجة إطلاق ذئبين جائعين فى قطيع من الغنم.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده الأتقياء الأغنياء، وأن يعصمنا من هذا الحرص الذى يجلب الشقاء.

* * *

---

(١) انظر دليل الفالحين لابن علان(٢/٥١٦، ٥١٧).

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه عن كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أحمد والترمذى وقال : حديث حسن صحيح، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع/ ٥٦٢٠) .

أسماء تتعلق بعلمه تعالى وبحكمته

■ **نذكر منها:** [العالم ـ العليم ـ اللطيف ـ الخبير ـ الحكيم]

ـ **العالم:** هو سبحانه المحيط علمًا بحقيقة كل شىء.

ـ **العليم:** هو كالعالم، ولكنه أكثر مبالغة.

ـ **اللطيف:** هو سبحانه العالم بدقائق الأمور وخفاياها.

ـ **الخبير:** هو سبحانه العالم بكنه كل شىء والمطلع على حقيقته.

ـ **الحكيم:** هو سبحانه الذى لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، لكمال حكمته وعلمه.

الشرح:

إن علم الله عز وجل هو صفة أزلية تكشف الحقائق على ما هى عليه بلا زيادة ولا نقصان. فالله عز وجل يعلم حقيقة ذاته وأسمائه وصفاته، ويعلم ما كان وما يكون، فهو الذى يعلم الغيب، وعنده علم الساعة، وهو الذى يعلم ما فى الأرحام، وهو الذى يعلم متى ينزل الغيث، ويعلم ما تكسب كل نفس، وبأى أرض تموت. وهو سبحانه الذى يعلم تفاصيل الأمور، ودقائق الشئون، وخفايا الضمائر والنفوس، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض. يستوى عنده العلم بالأشياء قبل وجودها وبعد وجودها، تنزه سبحانه أن يستفيد علمًا جديدًا من الحوادث لأنه غنى عن العالمين.

قال بعض العلماء: والعلم إذا أضيف إلى دقائق الأمور، كان صاحبه لطيفًا، أما إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة، كان صاحبه خبيرًا. هذا ولكمال علمه سبحانه ولطفه وخبرته، فهو يضع كل شىء فى موضعه الذى ينبغى له، وذلك بحسب المصلحة التى يراها، فيأتى كل شىء منه سبحانه فى أكمل تدبير وفى أحسن تقدير، فهو سبحانه المنزه والمقدس عن فعل ما لا ينبغى.

وقد قال البعض: إن **الحكمة** هى: «معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم» .

ولما كان أفضل العلوم على الإطلاق، هو علمه سبحانه الأزلى الدائم، المطابق لحقيقة الأشياء، والذى لا يتطرق إليه شبهة ولا خفاء، كان سبحانه الحكيم الحق، ذو الحكمة المطلقة.

واعلم أن مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع من علم الرب وعزته وحكمته، ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين من هذه الثلاثة كثيرًا، كقوله: ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾(١) ، وقوله ﴿ **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾(٢) .

وقد تخفى حكمته تعالى فى بعض الأمور على كثير من الناس، وما هذا إلا لأنه كما قال سبحانه: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾(٣) ولذا قال: ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾(٤) ، فهذه الآية تتضمن الحض على التزام أمر الله، وإن شق على النفس، وعلى الرضا بقضائه، وإن كرهته النفوس، ولذلك قال **الحسن البصرى** رحمه الله: لا تكرهوا النقمات الواقعة، والبلايا الحادثة فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تؤثره فيه عطبك، ولهذا شرع سبحانه الاستخارة، ودعاؤها كما فى صحيح البخارى وغيره: «**اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْتَخيرُكَ بعلمكَ، وأَسْتَقْدرُكَ بقُدْرَتكَ، وَأَسْأَلُكَ منْ فَضْلكَ العظيم، فَإِنَّكَ تَقْدر وَلا أَقْدرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلامُ الغُيُوب، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لى فى دينى وَمَعَاشى وَعَاقبَة أَمْرِى، فَاقْدُرْهُ لى ويَسِّرْهُ لى، ثُمَّ بَارِكْ لى فيه، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لى فى دينى وَمَعَاشى، وَعَاقبَة أَمْرِى، فَاصْرِفْهُ عَنِّى وَاصْرِفْنِى عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِىَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِى بِهِ**».

فلما كان العبد يحتاج فى فعل ما ينفعه فى معاشه ومعاده إلى علم ما فيه من

---

(١) الزمر: ١.
(٢) فصلت: ١٢.
(٣) الإسراء: ٨٥.
(٤) البقرة: ٢١٦.

المصلحة وقدرته عليه وتيسره له، وليس له من نفسه شيء من ذلك، أرشده النبى ﷺ إلى محض العبودية، وهو جلب الخيرة من العَالِم بعواقب الأمور وتفاصيلها، وخيرها وشرها، وطلب القدرة منه، وإلا فهو عاجز، وطلب فضله منه، فإن لم ييسره له ويهيئه له، فهو متعذر عليه. ثم إذا اختاره له بعلمه، وأعانه عليه بقدرته، ويسره له من فضله، فهو يحتاج إلى أن يبقيه عليه، ويزيده بالبركة التى يضعها فيها. والبركة تتضمن ثبوته ونموه، وهذا قدر زائد على إقداره عليه وتيسيره له. ثم إذا فعل ذلك كله فهو محتاج إلى أن يرضيه به، فإنه قد يهيىء له ما يكرهه، فيظل ساخطًا، ويكون قد خار الله له فيه.

فالمقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبله، والرضا بعده.

فمن توفيق الله لعبده وإسعاده إياه أن يستخير قبل وقوعه، ويرضى بعد وقوعه، ومن خذلانه له، ألا يستخيره قبل وقوعه، ولا يرضى به بعد وقوعه.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

فاحذر كل الحذر أن تسأله تعالى شيئًا معينًا خِيَرتُه وعاقبته مُغَيَّبَةٌ عنك. وإذا لم تجد من سؤاله بدًا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخِيَرَة. وقدم بين يدى سؤالك الاستخارة. ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها. ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا. بل إن وُكِّلَ إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته، وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته. ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه، ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده.

وقال أيضًا رحمه الله تعالى:

وليتأمل العاقل هذا فى نفسه وفى غيره. وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة، فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته.

ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه. ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له. فيمنعه حماية وحفظًا، لا بخلاً. وهذا إنما يفعله بعبده الذى يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه . فيظن ـ بجهله ـ أن الله لا يحبه ولا يكرمه. ويراه يقضى حوائج غيره، فيسيء الظن بربه. وهذا حشو قلبه ولا يشعر به. والمعصوم من عصمه الله. والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حمله على الأقدار، وعتابه الباطن لها. فوالله لو كُشِفَ عن حاصِلِه وسِرِّه، لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغى أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتى، والأمر ليس إلىَّ ؟ !

والعاقل خصم نفسه. والجاهل خصم أقدار ربه. أ. هـ [1] .

وقال بعض السلف : ويحك! أنت لسانك يتقي وقلبك يفجر، لسانك يشكر وقلبك يعترض. إذا كان التوحيد بباب الدار، والشرك داخل الدار، فهو النفاق بعينه. الاعتراض على الحق عز وجل عند نزول الأقدار، هو موت الدين، موت التوحيد، موت التوكل والإخلاص، والقلب المؤمن لا يعرف: لِمَ، وكيفَ ؟ مع أقدار الله عز وجل، بل هو التسليم والرضا التام.

والله تعالى، العليم الحكيم، حث عباده على العلم وأمر به. وكان أول توجيه وجهه لرسوله ﷺ فى أول لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى، وفى أول خطوة من خطواته فى طريق الدعو هو ﴿ **اقْرَأْ** ﴾.

كما أمره عز وجل بعد ذلك بالحرص على الازدياد فى العلم فقال: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾[2] ،فكلما ازداد العلم النافع، ازدات الخشية، وازدادت الرعاية لحقوق الله تعالى، ولذا فالعالم يرتفع إلى مكانة لا يستوى معه فيها غيره من الجاهلين، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[3]،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٩١).

(٢) طه : ١١٤.

(٣) الزمر : ٩.

وقال: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[1] ، والمقصود بالعلم هنا هو العلم النافع فى الدنيا والآخرة.

وقد جاء عن أبى أمامة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال مبينًا فضل أهل العلم والعلماء: « فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَلائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الخَيْرَ»[2] .

وقال أيضًا: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلتَمِسُ فِيهِ عِلمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ»[3]

والعالم الذى يدعو غيره إلى الهدى يكون له الأجر والثواب العظيم؛ فعن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»[4] .

وعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ قال لعلى بن أبى طالب - رضي الله عنه -: «فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمْ»[5] .

وفضل العلم وثوابه العظيم مستمر ودائم على العبد، حتى بعد موته، فعن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَو عِلمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »[6] .

---

(١) المجادلة : ١١.

(٢) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع/ ٤٢١٣).

(٣) رواه مسلم من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - .

(٤) رواه مسلم. (٥) متفق عليه .

(٦) رواه مسلم .

وفى قصة نبى الله موسى - عليه السلام - وتكبده من المشقة و العناء الكثير حتى يصل إلى الخضر - عليه السلام - ليتعلم منه، وهو نبى الله ورسوله، لدرس جميل على أهمية طلب العلم النافع والسعى إليه.

ولكن الحذر من التعلم للمباهاة والتكبر، وطلبًا للمنزلة والرفعة عند الناس، فليس وراء ذلك إلا الهلاك، فعن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ تَعَلَّم علمًا مما يُبْتَغى به وَجهُ الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يَتَعَلَّمُهُ إلا ليُصيبَ بِهِ غَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامة»**[1]، ومعنى (عرف الجنة): أى ريحها.

فلا تتعلم العلم لتباهى به العلماء، أو لتمارى به السفهاء، أو لتصرف به وجوه الناس إليك، أو لأى غرض دنيوى، وراقب نفسك فى ذلك.

فإذا فتح الله على عبده بشىء من العلم النافع، والآيات البينات، فليعض على ذلك بالنواجذ، وليعلم أنه فُتح له بابٌ عظيمٌ من أبواب الخير، وأنه أُوتِى كنزًا ثمينًا، فالله عز وجل لا يفتح باب العلم النافع لكل أحد من خلقه.

ومن يؤتيه الله تعالى العلم والآيات، ثم بعد ذلك يُعرض عنها ويؤثر الدنيا وعاجلها على الله تعالى والدار الآخرة، فهذا يتركه الله عز وجل حينئذ لنفسه، وينساه، كما قال سبحانه: ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾[2]، وحينئذ يتمكن منه الشيطان، ويضله ضلالاً كبيرًا، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث** ﴾[3].

شبه الله هنا من آتاه العلم، الذي منعه عن غيره، فأعرض عنه، وترك العمل

---

(١) رواه أبو داود والحاكم وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع/٦١٥٨).

(٢) التوبة: ٦٧.

(٣) الأعراف: ١٧٥، ١٧٦.

به، واتبع هواه، وآثر دنياه على آخرته، بالكلب، والذى هو من أخس الحيوانات نفسًا، وأوضعها قدرًا.

ولنتوقف قليلاً عند بعض ألفاظ هاتين الآيتين :

ففى قوله تعالى: ﴿ **آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا** ﴾: يخبر سبحانه أنه هو الذى آتاه آياته، حيث إنها نعمة، والله عز وجل هو الذى أنعم بها عليه، فأضافها سبحانه إلى نفسه. وأيضًا قوله ﴿ **فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾: فلا هداية ولا حفظ ولا نجاة إلا بالله جل وعلا وإعانته لعبده، فإذا ترك الله العبد لنفسه، اتبعه الشيطان وتمكن منه وأضله، فلا نجاة له حينئذ.

وفى قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا** ﴾: أن الرفعة عند الله تعالى ليست بمجرد العلم، وإنما هى باتباع الحق الذى فى هذا العلم وإيثاره، وقصد مرضاة الله. وفيه أنه سبحانه هو الذى يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العِلمْ، فإن لم يرفعه الله، فهو موضوع، لا يرفع أحد به رأسًا، فسبحان الذى يرفع من يشاء ويخفض من يشاء، ونعوذ به تعالى من علم لا ينفع، ومن السلب بعد العطاء.

وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿ **إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث** ﴾:

فما هى حقيقة هذا اللهاث الذى لا ينقطع؟ إنه اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا البالية، ذلك اللهاث القلق، الذى لا يطمئن أبدًا. والذى لا يتركه صاحبه، سواء وعظته أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبدًا، لا ينقطع عنه، حتى يفارق هذه الحياة[1] !!

وقد أشار الله عز وجل إلى ذم الذين ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها، ولا علم لهم بأمور دينهم، وأمور آخرتهم، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)** ﴾[2].

(١) انظر كلام الإمام ابن القيم - رحمه الله - على هاتين الآيتين فى (إعلام الموقعين [١/ ١٩٧-٢٠٣]).

(٢) الروم : ٦، ٧.

قال الإمام **ابن كثير** رحمه الله عند تفسيره لهذه الآيات عن هؤلاء:

« فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها - أى الدنيا - ووجوه مكاسبها، وهم غافلون فى أمور الدين وما ينفعهم فى الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة، قال الحسن البصرى: «والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلى» أ.هـ [1] .

ولاحظ قوله تعالى فى آخر الآية الأولى ﴿ **لا يَعْلَمُونَ** ﴾، وفى بداية الآية الثانية ﴿ **يَعْلَمُونَ** ﴾، وكأنه - والله تعالى أعلم - فيه إشارة إلى أن هؤلاء الذين هم على علم بأمر الدنيا، وفى أمر الدين جهال، أنهم فى الحقيقة لا يعلمون شيئـًا.

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٥) .

أسماء تتعلق بقوته تعالى المطلقة

■ نذكر منها: [القوى ـ المتين ـ العزيز ـ القاهر ـ القهار]

ـ **القوى**: هو سبحانه ذو القوة التامة.

ـ **المتين**: هو سبحانه الشديد القوة الذى لا يضعف أبدًا ولا يفتر، ولا يستولى عليه عجز فى حال من الأحوال.

ـ **العزيز**: هو سبحانه الذى لا يُوصَل إليه ولا يمكن إدخال مكروه عليه.

ـ **القاهر**: هو سبحانه الذى له الغلبة التامة على جميع خلقه.

ـ **القهار**: هو سبحانه الذى يقصم ظهور أعدائه المتجبرين ويذلهم.

الشرح:

إن الله عز وجل بالغ النهاية فى القوة، لا يلحقه أبدًا ضعف فى ذاته، ولا فى صفاته، ولا تلحقه أبدًا مشقة ولا كلفة فى أفعاله، ولا يناله أبدًا سأم ولا نصب ولا لُغوب فى تدبيره، ليس لقوته غاية تقف عندها، ولا نهاية تنتهى إليها. غالب لا يُغلب، قاهر لا يُقهر، يُجير ولا يُجَار عليه، لا ممانع له فى أمره، ولا مُعَقب له فى حكمه، ولا راد له فى قضائه. سبحانه الذى يستحيل إدخال مكروه عليه، وكل خلقه فى قبضته، يقضى فى كل شىء بما يريد، ولا يكون فى ملكه شىء إلا بقضائه وإرادته. سبحانه الذى يؤثر بقوته في كل شىء، ولا يمكن أن يؤثر فيه شىء، سبحانه الذى لا يمكن الوصول إليه. وعندما حاول نبى الله موسى أن يراه فقط، لم يستطع، وخر صعقا عندما رأى ما حدث للجبل، عندما تجلى له الله جل وعلا. فسبحانه العظيم الجليل العزيز.

يقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)** ﴾[١].

---

(١) ـ الحج: ٧٣، ٧٤.

فكل من يدعو من دون الله شيئًا، سواء كان هذا الشيء صنمًا أو وثنًا أو شخصًا، فهذا الشيء، بل كل هذه الأشياء التي تُدعى من دون الله، لن تستطيع ولو اجتمعت أن تخلق هذا المخلوق الصغير الحقير، الذباب. بل إن سلبهم الذباب شيئًا، فلا يستطيعون أن يستردوه منه، ويا له من ضعف مزرٍ. فهل من يدعو هؤلاء الضعفاء، ويستنصر بهم من دون الله، ويستعين بقوتهم، ويطلب منهم النصر والجاه، قد قدر الله عز وجل حق قدره؟ سبحانه وتعالى القوى العزيز، القاهر فوق جميع خلقه، الذى بسط سلطانه على كل مخلوق، فلا يوجد موجود إلا وهو مسخر تحت سلطان قهره وعزته، الآخذ بنواصى عباده، فمن تمرد وعصى، قصمه وأذله، وقهره ولو بعد حين، يقول سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠)** ﴾[1] وهذا التدمير كما قلنا قد يكون بعد حين، كما قال سبحانه: ﴿ **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** ﴾[2] .

والقوى سبحانه يحب لعبده أن يكون قويًا فى دينه، فيتمسك به وبتعاليمه وبأوامره ونواهيه بمنتهى القوة، فعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وأَحَبُّ إلى الله من الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ على مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بالله ولا تَعْجَزْ. وإِنْ أَصَابَكَ شَىءٌ فلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ ومَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[3] .

قال الإمام **النووى** ـ رحمه الله ـ : «والمراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة فى أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو فى الجهاد، وأسرع خروجًا إليه، وذهابًا فى طلبه، وأشد عزيمة فى الأمر بالمعروف والنهى

---

(١) محمد : ٨ ـ ١٠ . (٢) الطارق : ١٧ .

(٣) رواه مسلم.

عن المنكر، والصبر على الأذى فى كل ذلك، واحتمال المشاق فى ذات الله تعالى، وأرغب فى الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلبًا لها، ومحافظة عليها، ونحو ذلك»[1] .

والمؤمن القوى لا يقدم شيئًا على رضى ربه، يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[2] . فَرِضَى الله تعالى وحبه، وحب رسوله ﷺ، واتباع هذا الدين بكل ما فيه، والجهاد فى سبيله بكل أنواع الجهاد المعروفة، وليس الجهاد الحربى فقط، كل هذا لا بد وأن يأتى أولا وقبل كل شىء عند العبد، فإن قدم شيئًا من الأمور المذكورة فى الآية على ذلك، فلينظر ما سوف يحل به من العقاب، ولينتظر جزاء الفاسقين.

والمؤمن القوى، هو الذى لا يستصعب شيئًا، فى سبيل تحقيق عقيدته، وفى سبيل نصرة دينه، وتهون جميع المشاق أمامه، فى سبيل تحقيق ذلك، فيسعى فى تحقيق هذا جاهدًا، صابرًا، محتسبًا، راضيًا، مضحيًا بكل عَرَضٍ من أعراض الدنيا، يحول بينه وبين تحقيق ذلك. فهو لا يكون كهؤلاء الذين يتثاقلون عن الدفاع عن دينهم، وعن نشر عقيدتهم، والذين لا يتحركون إلا لمصلحة دنيوية، أو عَرَضٍ تافه رخيص، الذين يقطعون آلاف الكيلو مترات، ويبذلون حياتهم وعمرهم وكل ما يستطيعون، من أجل المال، ولكنهم عندما يُطالبون بعمل شىء لدينهم يتثاقلون، ويتباطئون، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾[3] ، فهم لا يفعلون شيئًا من

---

(١) شرح مسلم للإمام النووى (٨/ ٤٥٥).

(٢) التوبة : ٢٤.

(٣) التوبة : ٤٢.

أمور الدين إلا إذا كان مأمون العاقبة بالنسبة لدنياهم، أما إذا وجدوا فى شىء من ذلك مشقة، أو خطرًا على دنياهم، تثاقلوا إلى الأرض، قال تعالى: ﴿ **فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)** ﴾[1] .

وإن الماسك على دينه، لا بد وأن يواجه صعوبات عديدة، وفتنًا شتى، وخاصة فى هذه الأيام، والأيام التى تليها، كما قال ﷺ: «**يأتى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ**»[2] . وهذه الفتن لا بد منها، فهى التى تكشف قوة إيمان العبد من ضعفه، ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾[3] .

وإن القلوب لتضطرب أشد ما تضطرب فى مواضع الابتلاء والمحن، فمنها ما يثبت عندها، ويظل على حاله الذى كان عليه، ومنها ما يزداد قوة وصلابة ويقينًا، ومنها ما يضعف ويرتد إلى الوراء، ومنها ما لا يقدر على الصمود، فيتزلزل وينهار، وإن هذا التباين فى ردود الأفعال لهو راجع إلي مدى صحة العقيدة التى فى القلوب، ومدى فهمها، ومدى اليقين بها. إن الإيمان ليس كلمة تُقَال وينتهى الأمر، إنما هو كلمة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهد يحتاج إلى احتمال، وجهاد يحتاج إلى صبر، فهؤلاء الذين ينطقون بالإيمان، لا يُتركوا لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة، فيثبتوا عليها ـ بعون الله تعالى وفضله ـ ويخرجوا منها صافية عناصرهم، خالصة قلوبهم، كما تفتن النار الذهب، لتفصل

---

(١) التوبة : ٨١، ٨٢.

(٢) رواه الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه وصححه الألبانى فى (الصحيحة/ ٩٥٧)

(٣) العنكبوت : ٢، ٣ .

بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به، فهكذا تصنع الفتنة، ويصنع الابتلاء بالقلوب، ناهيك عن تكفير السيئات ورفع الدرجات.

إن سلعة الله غالية، والطريق إليها شاق، ولن يقدر عليه إلا من كان زاده المجاهدة والصبر، كما قال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾[1].

أى: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبْتَلوا، ويرى الله فيكم المجاهدين والصابرين فالجنة لا تُنال بالأمانى؛ وبكلمات اللسان؛ وإنما تنال بتلك المجاهدة والصبر للاستقامة على طريقة الإيمان.

إن الاستقامة على دين الله تعالى، والصبر على مقتضيات وتكاليف هذا الدين، والمداومة على ذلك حتى آخر لحظة فى حياة الإنسان، وعدم الروغان من هذه التكاليف أحيانًا كروغان الثعالب، لهو أمر حقًّا عظيم، ولذلك انظر إلى ما الذى ينتظر أصحاب هذه الاستقامة من ثواب عظيم، يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)** ﴾[2].

ويقول أيضًا: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)** ﴾[3]. ثواب عظيم بلا جدال، ولكن لمن؟ لأصحاب هذه المقولة ﴿ **رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾ الذين استقاموا على طاعة الله حتى لقوا ربهم سبحانه وتعالى.

---

(١) آل عمران: ١٤٢.
(٢) فصلت: ٣٠ ـ ٣٢.
(٣) الأحقاف: ١٣، ١٤.

ولذلك فعندما ذهب سفيان بن عبد الله - رضي الله عنه - إلى النبي ﷺ وقال له : يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال له ﷺ: « **قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ** »(١) .

فقد سأل سفيان - رضي الله عنه - عن قول فى دينه وشريعته، جامع لمعانى الدين، واضح فى نفسه، يعمل به ويكتفى به، ولا يحتاج معه لسؤال أحد غير رسول الله ﷺ، لما يشتمل عليه من بديع الإحاطة والشمول، ونهاية الإيضاح والظهور، فكانت هذه الإجابة الجميلة.

والفتن تتنوع وتختلف، فقد تكون مثلاً فى اضطراب الأمور من حول الناس، بحيث من يتمسك بدينه، فإنه يتعرض للمخاطر، وهى ما تسمى بفتنة الخوف، أو بنقص فى الرزق، أو بمال حرام، أو مال فيه شبهة، أو فى امرأة شيطانة تفتن الرجال، أو غير ذلك كثير، قال سبحانه: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾(٢) .

ومن الفتن والابتلاءات أن يجد المؤمن المتمسك بدينه نفسه غريبًا بين الناس، لأن أكثر الناس بعيدون عن الحق، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾(٣) ، وقال: ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾(٤) ، وقال: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾(٥) . فعليه ألا يجزع من ذلك، ويصبر، فعن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «**إِنَّ الإِسلامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبى للغُرَبَاء**»(٦) .

ومن الفتن والابتلاءات أيضًا أن يجد المتمسك بدينه، شياطين الإنس من حوله من البشر، يسخرون منه، ويسخرون من هديه ومن سَمْتِه، ويشنعون عليه بألقاب

---

(١) رواه مسلم .
(٢) البقرة : ١٥٥ .
(٣) هود : ١٧ .
(٤) يوسف : ١٠٣ .
(٥) الأنعام : ١١٦ .
(٦) رواه مسلم .

شتى، كما كان يفعل الكفار مع النبى ﷺ، ويقولون عليه: ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون. قال تعالى حاكيًا عن هذا الأمر: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) ﴾[1] ، ولكن هذا الحال ينقلب يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) ﴾[2] . وأخبرنا سبحانه أيضًا عن حال هؤلاء الذين يسخرون من عباد الله المؤمنين، عندما يدخلون النار عقابًا لهم على ذلك، فقال: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) ﴾[3] ، فكان هذا جزاءهم فى الآخرة لسخريتهم من عباد الله المؤمنين، الذين صبروا على هذا الاستهزاء من هؤلاء السفهاء، وما زادهم إلا قوة وتمسكا بدينهم.

والابتلاء قد يكون بالخير، كما قد يكون بالشر، كما قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[4] ، والابتلاء بالخير قد يكون أشد وطأة، وإن خُيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر. فإن كثيرين يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف مثلا، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة. كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان، فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والجاه، وما يثيرانه من شهوات وأطماع. كثيرون يصبرون على الإيذاء ويصبرون على التهديد والوعيد، فلا يرهبهم، ولكن قليلين هم الذين

---

(١) المطففين : ٢٩ ـ ٣٢ .

(٢) المطففين : ٣٤، ٣٥ .

(٣) المؤمنون : ١٠٦ ـ ١١١ .

(٤) الأنبياء : ٣٥ .

يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء. كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدَّعَة والراحة، ثم لا يصابون بالحرص، الذى يذل أعناق الرجال، وبالاسترخاء الذى يُقْعِد الهمم.

إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث المقاومة، ويجند الأعصاب، فتكون قوى الإنسان كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء، فيرخى الأعصاب، ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة، لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، ولكنهم إذا جاءهم الرخاء سقطوا فى الابتلاء، وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك، ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل.

وإنه لكثيرًا ما يجهل الإنسان نفسه ومخابئها ودروبها ومنحنياتها، وكثيرًا ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها، وحقيقة ما ترسب فيها من رواسب لا تظهر إلا بمثير.

وعندما تأتى الفتن، وعندما تأتى التجربة العملية، يعلم أنه لم يتهيأ بعد لمثل هذا المستوى من الضغوط، وإنه من الخير أن يعلم هذا من نفسه، وذلك ليعاود المحاولة معها فى سبكها من جديد على مستوى التكاليف التى تقتضيها كلمة الإيمان، وعلى الثبات على المعاناة والابتلاء.

إن سلعة الله غالية، والطريق إليها شاق، ولن يقدر عليه إلا من كان زاده المجاهدة والصبر، الصبر على الابتلاء، الصبر على الاستقامة على طريق الإيمان، الصبر على الضعف الإنسانى، فى النفس وفى الغير ممن يتعامل معهم، الصبر على فترات العسر، فذلك هو طريق الجنة، وعلى من أرادها حقًا أن يوطن نفسه على ذلك كله.

وقد دل الشرع على أن المؤمن كثير الابتلاء، وأن ذلك مُكَفِّرٌ لسيئاته ورافع لدرجاته، أما الكافر فقليلها، ولا تكفر شيئًا من سيئاته، ومن الأدلة على ذلك ما جاء فى الصحيحين عن كعب بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ **الـمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الـخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُفيئُها الرِّيحُ، تَصْرَعُهَا مَرَّةً وتَعْدِلها أُخْرَى حَتَّى**

تَهِيجَ، وَمَثَلُ الكَافِرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ الـمُجذِبَة ، لا يُصِيبُها شَيْءٌ حَتَّى يَكُون انْعِجَافُها مَرَّةً وَاحِدَةً .

و(الخامة): هى الطرية اللينة الغضة.

و(الأرزة): قيل هى شجرة الصنوبر. وقيل: هى شجرة معتدلة صلبة، لا يحركها هبوب الرياح .

ومعنى(انعجافها): أى انقلاعها.

وفى الصحيحين أيضًا عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «**ما يُصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غَمٍّ ـ حتى الشَّوكَةَ يُشاكُها ـ إلا كفرَّ اللهُ بها من خَطَايَاه**».

و(النصب): أى التعب.

و(الوصب): أى المرض.

ومما يدل أيضًا على أن الابتلاء خير للمؤمن، ما جاء عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِه الـخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فى الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِه الشَّرَّ، أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِه حَتَّى يُوَافِى بِه يَوْمَ القِيَامَة**» ، وقال ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الـجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِىَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**»[1] .

ومن الناس من يتعامل مع الدين والإيمان على أنه صفقة فى سوق التجارة، فإذا كسب، فرح واطمأن، وقال إن الإيمان خير، وإن أصابته فتنة فزع منها وولى عن طريق الإيمان مدبرًا، كما قال سبحانه: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ**

---

(١) روى ذلك الترمذى وغيره وصحح الألبانى الجزء الأول فى(الصحيحة١٢٢٠)، وصحح الجزء الثانى فى (الصحيحة/١٤٦)، وفى (صحيح الجامع/ ٢١١٠).

أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾[1] .

فهو يعبد الله (على حرف)، وأصل ذلك ومعناه: (حرف الشيء وهو طرفه)، فهو كالقائم على حرف الجبل والحائط ونحو ذلك، فيكون قيامه ضعيفًا مضطربًا، يسقط بسهولة عند أى دفعة، فإن أصابه خير دنيوى اطمأن به وثبت على دينه واستمر على عبادته، وإن أصابته فتنة في ماله أو أهله أو نفسه ارتد ورجع، وذلك هو الخسران المبين .

نسأل الله تعالى حُسْن الثبات على الإسلام حتى الممات .

❊ ❊ ❊

(١) الحج : ١١.

*

أسماء تتعلق بقدرته تعالى البالغة

■ **نذكر منها: [القادر - القدير - المقتدر - الجبار - القابض - الباسط - المقدم - المؤخر].**

القادر: هو سبحانه ذو القدرة المطلقة الذى لا يعجزه شيء.

القدير: هو كالقادر، ولكنه أبلغ فى الوصف.

المقتدر: هو كالقادر، ولكنه أكثر مبالغة.

الجبار: هو سبحانه الذى تنفذ مشيئته فى عباده قهرًا وتظهر عليهم أحكامه جبرًا ولا يخرج أحد عن قبضة تقديره.

القابض - الباسط: هو سبحانه الذى بحكمته وقدرته يبسط العطاء لعباده أو يقتره عليهم.

المقدم - المؤخر: هو سبحانه الذي بحكمته وقدرته ينزل الأشياء منازلها، فيقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء.

الشرح:

إن قدرة الله تعالى ليس لها حد ولا نهاية، فهى قدرة تامة بالغة، فهو سبحانه إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، إنما أمره إذا أراد شيئًا، أن يقول له كن فيكون. هو سبحانه القادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، مستغن فى ذلك عن المعين والمشير، فالوجود كله تحت سيطرته سبحانه وحده، ولا يوجد من يعارضه فيه، فكل المخلوقات فى قبضته، يفعل بها ما يشاء وما يريد. هو سبحانه الذى تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار فى كل أحد، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، والذى يجبر كل أحد، ولا يجبره أحد.

هو سبحانه الذى بكمال علمه وحكمته وقدرته، يضع كل شيء فى مكانه الذى ينبغى له، فيؤتى الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء. هو سبحانه الذى خلق الإنسان، فقدمه على جميع المخلوقات، وهو

سبحانه الذى أوجد هذه الأمة، أمة الإسلام، وقدمها على جميع الأمم، وهو سبحانه الذى أرسل رسوله، محمد ﷺ، وقدمه على جميع الرسل والبشر. هو سبحانه الذى رفع العلماء على الجهلاء، وجعلهم نور الاهتداء. هو سبحانه الذى قدم أولياءه المقربين، وحبب إليهم الطاعات، وأخر أولياء الشيطان وتركهم غارقين فى بحر الشهوات، فهو عز وجل المقدم والمؤخر لما شاء كيفما شاء.

وهو سبحانه الذى بكمال علمه وحكمته وقدرته، يطوى بره ومعروفه ورزقه عمن يريد من خلقه، فيضيق ويقتر ويَحْرم، لحكمة يراها سبحانه، ولا يراها العبد، وكذا ينشر فضله ومعروفه ورزقه على من يريد من خلقه، فيعطى ويوسع ويمكن، أكثر مما يحتاج إليه الخلق. يقول تعالى : ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** ﴾[1] ، فهو سبحانه يعلم أن عباده لا يطيقون الغنى إلا بقدر، فهم ضعاف، وتحملهم إلى حد، ولذا لو بسط إليهم الرزق، لبغو وطغوا، ولهذا جعل رزقهم فى الأرض مقدرًا محدودًا، بقدر ما يطيقون، فهو سبحانه الذى خلقهم، وهو الخبير بهم وبتكوينهم. والقبض والبسط لا يكونان فى الرزق المادى فقط، بل هما فى كل شىء، كالعلم والجسم مثلاً، كما قال تعالى فى حق طالوت الملك: ﴿ **وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ** ﴾ [2] .

فسبحانه الذى يقبض العقل فلا يفهم،ويقبض القلب فلا يغنم، ويقبض الصدر فلا ينشرح، ويقبض النفس فلا تمرح، ويقبض الرزق فلا يمنح، ويبسط كل ذلك أيضًا بقدرته، فسبحانه العليم الحكيم فى فعله وتقديره.

والعارف بربه جل وعلا يكون حاله من الثبات واليقين عند البسط والقبض سواء. أما من لم يعرف ربه فينقلب عند أدنى قبض، ولو تعلق به جناح بعوضة لضج وانزعج، كما قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ**

---

(١) الشورى : ٢٧.　　(٢) البقرة : ٢٤٧.

الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾[1] . ولذلك كانت الخطوة الأولى هى معرفة الخالق جل وعلا، والإيمان واليقين بهذه المعرفة، فإن تم ذلك، كانت هناك ركيزة إيمانية راسخة قوية فى قلب العبد، وعندئذ، فإن الدنيا تضطرب من حوله، ويثبت هو. وتتجاذبه الفتن والأحداث والدوافع، فيتشبث هو بهذه الركيزة، التى لا تتزعزع أبدًا. فاللهم امنحنا قوة نقبض بها على زمام أنفسنا، فلا نخرج عن مرضاتك أبدًا. وارزقنا قوة، تنبسط معها جميع جوارحنا بأفضل الطاعات والمعاملات.

و(**المقدم ـ المؤخر**) جل وعلا يحب من عباده أن يقدموا ما قدم، ويؤخروا ما أخر، ومن أهم الأمور التى تتبع هذا المعنى، أن يقدم العبد إخوانه المؤمنين ويواليهم، ويؤخر الكافرين، فيتبرأ منهم. ولكن هناك استثنائات فى المعاملات بين المسلم وأهل الكفر، لا تنقض أصل البراءة منهم، لإجازة الشرع لها، نذكر منها:

(أ) اللين عند عرض الدعوة: فلا تعنى البراءة من الكافرين حجب دعوة الإسلام عنهم وتركهم وشأنهم، وتركهم على ما هم فيه من الضلال، بل يحتم الإسلام على أهله دعوتهم إلى الخير والحرص على هدايتهم والرغبة الأكيدة فى تحولهم إلى الإسلام، ولأن هذا كله لا يتم إلا بالدخول إلى النفوس من مداخلها واستجلاب رضاها وراحتها، فإن الإسلام جعل سبيل الدعوة مع الكفار وغيرهم هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى، كما قال تعالى: **﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾**[2] .

فالقلوب القاسية والنفوس الشاردة لا تذعن إلى الحق وتهتدى إلا بمثل هذه السبل، وإلا بالملاينة وإظهار العطف والحرص على ما فيه الخير لها، ولهذا قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام، عندما أرسلهما إلى فرعون: **﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾**[3] ، فمقام الدعوة إلى الدين، هو مقام هذه السبل

---

(١) الحج : ١١.

(٢) النحل : ١٢٥.

(٣) طه : ٤٤.

التي بينها الله عز وجل، وليست البراءة من الكافرين تعنى سبهم وإغلاظ القول لهم فى مجال الدعوة، فهذا يكون جهلاً.

(ب) حِل الزواج بالكتابية وأكل ذبيحة الكتابى:

فهذا مما لا يعارض البراءة منهم يهودًا كانوا أو نصارى، لإباحة الشرع لذلك، كما قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾[1] . ولكن يتنبه إلى أن الطعام المباح للمسلم من طعامهم هو ما كان حلالاً طيبًا، مباح فى الإسلام، فلا يباح مثلا أكل الخنزير ونحوه من المحرمات والعياذ بالله. وكذلك يجب التنبه إلى أن الله عز وجل أباح للمسلم الزواج من المحصنة من أهل الكتب، وليس الزواج من أى واحدة منهن، كما هو مذكور فى الآية، والمحصنة هى العفيفة الحرة التى لا ترضى بالزنا، فهذه هى التى يجوز الزواج منها، وهذا أمر قل من يتنبه إليه.

(جـ) برُّ المعاهد والذمى والمستأمن منهم ومعاملته بالقسط:

كما قال تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾[2] فإن الإسلام دين سلام وعقيدة وحب، يهدف إلى جمع الناس جميعًا تحت لوائه، إخوة متعارفين متحابين، ولا يغير هذا الهدف إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله. وقد رخص الله تعالى هنا للمسلمين فى بِرِ من لم يقاتلوهم فى الدين ولم يخرجوهم من أرضهم، وفى معاملتهم بالعدل والقسط، فلا يبخسوا من حقوقهم شيئًا.

ومن مظاهر هذا البر قبول النبى ﷺ لهداياهم، فقد قبل الشاة المصلية من اليهودية فى خيبر[3] ، وكان ﷺ يدعو لهم بالهداية[4] ، وأهدى عمرُ بنُ الخطابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حُلة لأخ له مشرك بمكة[5] .

---

(١) المائدة : ٥ . (٢) الممتحنة : ٨.

(٣) ، (٤) ، (٥) رواهم البخارى.

أسماء تتعلق بخلقه تعالى لكل شىء

■ **نذكر منها : [الخالق ـ الخلاق ـ البارئ ـ المصور]**

ـ **الخالق:** هو سبحانه الذى قدر الأشياء كلها وهى فى طوايا العدم، وأوجدها على غير مثال سابق .

ـ **الخلاق:** هو كالخالق، ولكنه أكثر مبالغة.

ـ **البارئ:** هو سبحانه الموجد لكل شىء سبق تقدير وجوده، من غير تفاوت ولا اختلال.

ـ **المصور:** هو سبحانه المعطى لكل مخلوق صورته، على ما اقتضت حكمته.

الشرح :

قال **الحافظ ابن حجر العسقلانى** رحمه الله :

« قال الطيبى: إن (**الخالق**) من الخلق، وأصله التقدير المستقيم، ويطلق على الإبداع، وهو إيجاد الشىء على غير مثال، كقوله تعالى: ﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾، وعلى التكوين كقوله تعالى: ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ** ﴾.

و(**البارئ**) من البرء، بفتح الباء أو ضمها وسكون الراء. وأصله خلوص الشىء عن غيره، إما على سبيل التقصى منه، وعليه قولهم: برأ فلان من مرضه، والمديون من دينه، وإما على سبيل الإنشاء ومنه: برأ الله النَّسَمَةَ.

وقيل البارئ: الخالق، البرىء من التفاوت والتنافر المخلين بالنظام.

و(**المصور**) مبدع صور المخترعات ومرتبها بحسب مقتضى الحكمة. فالله خالق كل شىء بمعنى أنه موجده من أصل ومن غير أصل، وبارئه بحسب ما اقتضته الحكمة من غير تفاوت ولا اختلال، ومصوره فى صورة يترتب عليها خواصه، ويتم بها كماله» [1] . أهـ.

---

(١) فتح البارى (١٣/ ٤٠٢) .

وهناك قول آخر لبعض العلماء فى الفرق بين (الخالق والبارئ) وهو: إن (الخالق) هو المقدر. و(البارئ) هو المنفذ والمخرج لما قدره وقرره إلى الوجود، هذا والله تعالى أعلم.

وقد بين الله عز وجل أنه مستحق للعبادة لأنه هو الخالق، الذى خلق الناس أجمعين ووهب لهم الحياة، بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

وخَلَقُ السموات والأرض وما بينهما، هو أعظم دليل على وجود الخالق جل وعلا، كما قال سبحانه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾[2] .

وبالنسبة لاسم (البارئ) فقد ذُكر مرتين فى القرآن الكريم فى قول موسى - عليه السلام - لقومه: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾[3] وفى قوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾[4] . وجاء من قبل الفعل مرة واحدة فى قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[5] . وأنت تقول مثلا: بريت السهم، أى جعلته مناسبًا وصالحًا للرمى، وتقول: بريت القلم، أى جعلته مناسبًا وصالحًا للكتابة. وهكذا.

فسبحانه وتعالى البارئ، الذى خلق جميع المخلوقات بريئة من التفاوت، وملائمة لمهمة خلقها، وبالغة فى الإتقان والإحكام.

وسبحانه وتعالى المصور، المخترع لصور جميع المخلوقات، فأعطى كل واحد منها صورته التى تناسبه، بمنتهى الحكمة، والتى قد تذهل عنها بعض العقول[6].

قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[7] .

---

(١) البقرة: ٢١. (٢) الطور: ٣٥، ٣٦. (٣) البقرة: ٥٤.

(٤) الحشر: ٢٤. (٥) الحديد: ٢٢.

(٦) إقرأ فى إبداعه تعالى لخلقه: مفتاح دار السعادة للإمام ابن القيم (١/ ١٨٧-٢٧١).

(٧) غافر: ٦٤.

أسماء تتعلق بإحسانه تعالى لكل شيء

■ **نذكر منها: [المحسن]**

ـ **المحسن**: هو سبحانه الذى أحسن كل شيء خلقه، والذى يحسن إلى عباده فى الدنيا والآخرة.

الشرح:

إنك إذا نظرت إلى مخلوقات الله تعالى فستشعر بقوله سبحانه: ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** ﴾[1] ، فكل ما خلق، وكل ما صنع سبحانه تام الحسن، كامل الإتقان، بديع الإحكام، وإذا نظرت إلى معاملته سبحانه لعباده المؤمنين، فستجد سابق الإحسان لهم فى الدنيا بالكفاية والرعاية والهداية، وتمام الإحسان لهم فى الآخرة، بالعفو والمغفرة وبالجنة وبرؤية وجهه الكريم، كما قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾[2] . وقال: ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾[3] . والزيادة كما قال الجمهور من السلف والخلف: هى النظر إلى وجهه تعالى الكريم.

وقد أمر سبحانه عباده كذلك بالإحسان فقال لهم: ﴿ **وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[4] . وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾[5] .

قال الإمام **ابن رجب** ـ رحمه الله ـ: «وهذا الأمر بالإحسان تارة يكون للوجوب، كالإحسان إلى الوالدين والأرحام بمقدار ما يحصل به البر والصلة، والإحسان إلى الضيف بقدر ما يحصل به قراه وتارة يكون للندب، كصدقة التطوع ونحوها، فإحسان كل شئ بحسبه»[6] أهـ.

---

(١) السجدة : ٧ .
(٢) الأنبياء : ١٠١ .
(٣) يونس : ٢٦ .
(٤) البقرة : ١٩٥ .
(٥) النحل : ٩٠ .
(٦) (جامع العلوم والحكم/ ١٨٢) بتصرف .

والقيام بالقسط من الإحسان . . (القسط) على إطلاقه . . فى كل حال وفى كل مجال . (القسط) الذى يمنع البغى والظلم فى الأرض ، والذى يكفل العدل بين الناس ، والذى يُعطى كل ذى حق حقه من المسلمين وغير المسلمين . ففى هذا الحق يتساوى عند الله المؤمنون وغير المؤمنين ، ويتساوى الأقارب والأباعد ، ويتساوى الأصدقاء والأعداء ، ويتساوى الأغنياء والفقراء . قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا** ﴾[1] .

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يمينـًا ولا شمالاً ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف . وأن يقيموا الشهادة ، أى يشهدوا الحق ، ابتغاء وجه الله ، حتى ولو عاد عليهم ضرر من الشهادة بالحق ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجـًا ومخرجـًا من كل أمر يضيق عليه . حتى لو كانت الشهادة بالحق على والديك أو أقاربك ، فلا تراعهم فيها حتى وإن عاد عليهم ضرر منها ، فإن الحق حاكم عل كل أحد . حتى الغنى والفقير ، فلا تراعِ هذا لغناه ، ولا تشفق على ذاك لفقره ، فالله أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما . فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل وترك الشهادة بالحق ، ولتلزموا العدل والحق فى كل أمر ، وعلى كل حال ، ومهما سبب لكم من أضرار تعود عليكم ، فسوف يجعل الله تعالى لكم منها مخرجـًا ، طالما أنكم تبغون رضاه ، وتنفذون أوامره . والقيام بالقسط وشهادة الحق بهذه الصورة أمر شاق ولا شك ، ولا يعلم هذا إلا من يحاول أن يزاوله واقعيـًّا ، ولكنه ابتلاء من الله ـ عز وجل ـ ، سوف ينجح فيه المقسطون الصادقون، ويسقط فيه الظالمون الكاذبون .

ويقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا**

---

(١) النساء : ١٣٥ .

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[١] .

فلا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل اعدلوا مع كل أحد ، صديقـًا كان أو عدوًا .

وإن النفس البشرية لا ترقى هذا المرتقى قط ، إلا حين تتعامل فى هذا الأمر مباشرة مع الله ، وحين تستشعر تقواه ، وتبغى رضاه .

وما من عقيدة فى هذه الأرض تكفل العدل المطلق للأعداء ، كما يكفله لهم الإسلام . فالإسلام يكفل للناس جميعـًا ـ معتنقيه وغير معتنقيه ـ أن يتمتعوا فى ظله بالعدل ، ويجعل هذا العدل فريضة على معتنقيه ، يتعاملون فيها مع ربهم ، مهما لاقوا من الناس من بغض وعداء .

وأكرر : إن القيام بالقسط يحتاج إلى مجاهدة ، فإن الناس قد يعرفون المبادئ ، ويدعون إليها ، ويهتفون بها ، ولكن إذا جاء الواقع العملى ، وجدت شيئـًا آخر !! .

فمعرفة المبادئ وترديدها شىء ، وتحقيقها فى عالم الواقع شىء آخر . وإذا تحول الدين فى حياة إنسان إلى بعض الشعائر المفرغة من مضمونها ، وبعض المبادئ التى تُردد فحسب ، وليس لها واقع عملى فى حياته ، وتخلى الدين عن حكم نظام حياته ، فاعلم أنه لم يعد لحقيقة الدين وجود فى حياة هذا الإنسان .

والتقوى والصبر من الإحسان، قال تعالى : ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[٢] . وقد سُئل بعض السلف عن التقوى، فقال للسائل: أما سلكت طريقـًا ذا شوك؟ قال: بلى. قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى.

---

(١) المائدة : ٨ .

(٢) يوسف : ٩٠.

والتقوى: هى اتخاذ وقاية تقيك مما تخافه وتحذره، فتقوى العبد لله: أن يجعل بينه وبين ما لا يُرضى الله وقاية تقيه من ذلك، وهى امتثال أوامره تعالى واجتناب نواهيه، مَن فعل ذلك فهو من المتقين، الذين شرفهم الله تعالى فى كتابه بالمدح والثناء: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾. وبالحفظ من الأعداء: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾. وبالتأييد والنصرة: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ وبالنجاة من الشدائد، والرزق الحلال: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾. وبإصلاح العمل وغفران الذنب: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾. وبكفلين من الرحمة والنور: ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ** ﴾ وبالقبول: ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾. وبالإكرام والإعزاز عند الله تعالى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾. وبالنجاة من النار: ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا** ﴾. وبالخلود فى الجنة التى قال تعالى عنها: ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾. وبانتفاء الخوف والحزن، وحصول البشارة فى الدنيا والآخرة والفوز العظيم: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)** ﴾. وبالغاية القصوى، وهى محبة الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾،

فالتقوى كما يتبين لك مما تقدم، هى خير زاد للعبد، كما قال سبحانه: ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ** ﴾[1].

---

(١) البقرة: ١٩٧.

وقد قال الأعشى :

إذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى   وَلاقَيْتَ بَعْدَ الـمَوْتِ مَنْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى ألا تَـكُونَ كَمِثْلِهِ   وَأَنَّكَ لَمْ تَرْصُدْ كَمَا كَانَ أرْصَدَا

أما الصبر: فهو حبس النفس عن الجزع والعبس عند البلاء. ولقد رأى أحد الصالحين رجلاً يشتكي إلى أخيه، فقال له: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك. والعبادة كلها مبنية على الصبر، لأنه إذا اجتهد العبد لتحقيق العبودية لله عز وجل استقبلته شدائد وعقبات. وكلما اجتهد فى طلب رضى الله عز وجل، وفى طلب الآخرة اشتدت الابتلاءات، حيث إن المرء يُبتلى على قدر دينه. فإذا لم يكن العبد صابرًا على ذلك، لم يحقق العبودية المطلوبة لله ـ عز وجل ـ فإن العبودية طريق شاق طويل، مليء بالعقبات، والصابرون على هذا الطريق وعلى عقباته هم وحدهم الذين يوفون أجورهم يوم القيامة بغير حساب، وهم أصحاب البشرى والفلاح فى الآخرة؛ ولذا قال ﷺ: «**مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[1] .

يقول الله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)** ﴾[2] .

قال الإمام **الشوكانى** رحمه الله[3] :

---

(١) متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ .

(٢) الزمر : ٩، ١٠ . ينبغى دراسة موضوعى التقوى والصبر باستفاضة من كتب الأخلاق والرقاق لأهميتهما، فإن ما ذكرناه هنا مجرد إشارة فقط .

(٣) فتح القدير : (٤/ ٤٥٤).

« . . . لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم ومن لا يعلم، وبَيَّنَ أنه ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ أمر رسوله ﷺ بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه والإيمان به. ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى ، بين لهم ما فى هذه التقوى من الفوائد، فقال ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أى: للذين عملوا الأعمال الحسنة فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص، حسنة عظيمة، وهى الجنة. ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليهم فعل الطاعات والإحسان فى وطنه، أرشد الله سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة، فقال: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ أى: فليهاجر إلى حيث يمكنه طاعة الله، والعمل بما أمر به، والترك لما نهى عنه. ثم لما بين سبحانه ما للمحسنين إذا أحسنوا، وكان لا بد فى ذلك من الصبر على فعل الطاعة، وعلى كف النفس عن الشهوات، أشار إلى فضيلة الصبر، وعظيم مقداره، فقال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ والآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له، لأن كل شىء يدخل تحت الحساب، فهو متناه، وما كان لا يدخل تحت الحساب، فهو غير متناه، وهذه فضيلة عظيمة، ومثوبة جليلة، تقتضى أن على كل راغب فى ثواب الله، وطامع فيما عنده من الخير، أن يتوفر على الصبر، ويزم نفسه بزمامه، ويقيدها بقيده ، فإن الجزع لا يرد قضاءً قد نَزَل، ولا يجلب خيراً قد سُلب، ولا يدفع مكروهـًا قد وقع، وإذا تصور العاقل هذا حق تصوره، وتعقله حق تعقله، علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم، وظفر بهذا الجزاء الخطير. وغير الصابر قد نزل به القضاء، شاء أم أبى، ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره، ولا يبلغ مداه، فضم إلى مصيبته مصيبة أخرى، ولم يظفر بغير الجزع »أهـ باختصار يسير.

وقال صاحب الظلال رحمه الله [1] :

« . . . يعرض الله تعالى صورة القلب الخائف الوَجِل، الذى يذكر الله ولا ينساه فى سراء ولا ضراء والذى يعيش حياته على الأرض فى حذر من الآخرة،

(١) فى ظلال القرآن (٥/ ٣٠٤٢، ٣٠٤٣).

وفى تطلع إلى رحمة ربه وفضله، وفى اتصال بالله ينشأ عنه العلم الصحيح المدرك لحقائق الوجود. وهى صورة مشرقة مرهفة. فالقنوت والطاعة والتوجه ـ وهو ساجد وقائم ـ وهذه الحساسية المرهفة ـ وهو يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ـ وهذا الصفاء وهذه الشفافية التى تفتح البصيرة ، وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقى. هذه كلها ترسم صورة مشرقة وضيئة من البشر.

ثم يتجه إلى الذين آمنوا، يناديهم، ليتقوا ويحسنوا، ويتخذوا من حياتهم القصيرة على هذه الأرض، وسيلة للكسب الطويل فى الحياة الآخرة.

وفى التعبير: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ التفاتة خاصة . فهو فى الأصل: (قل لعبادى الذين آمنوا). . قُل لهم: اتقوا ربكم. ولكنه جعله يناديهم، لأن فى النداء إعلانـًا وتنبيهـًا. والرسول ﷺ لا يقول لهم (ياعبادى) فهم عباد الله. فهناك هذه الالتفاتة فى أثناء تكليفه بتبليغهم أن يناديهم باسم الله. فالنداء فى حقيقته من الله. وما محمد ﷺ إلا مبلغ عنه للنداء .

﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ** ﴾ والتقوى هى تلك الحساسية فى القلب، والتطلع إلى الله فى حذر وخشية، وفى رجاء وطمع، ومراقبة غضبه ورضاه ، فى توفز وإرهاف .

﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ** ﴾ وما أجزل العطاء! حسنة فى الدنيا القصيرة الأيام، الهزيلة المقام، تقابل حسنة فى الآخرة، دار البقاء والدوام. ولكنه فضل الله على هذا الإنسان .

﴿ **وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ** ﴾ فلا يقعد بكم حب الأرض، وإلف المكان، وأواصر النسب والقربى والصحبة فى دار، عن الهجرة منها، إذا ضاقت بكم فى دينكم، وأعجزكم فيها الإحسان. فإن الالتصاق بالأرض فى هذه الحالة، مدخل من مداخل الشيطان، ولون من اتخاذ الأنداد لله فى قلب الإنسان، وهى لفتة قرآنية لطيفة إلى مداخل الشرك الخفية فى القلب البشرى.

ثم يشير إلى الصبر وجزائه المطلق عند الله بلا حساب: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ . . أهـ بتصرف واختصار.

أسماء تتعلق بهيمنته تعالى على هذا الوجود والقيام على حفظه

■ نذكر منها: [المهيمن ـ القيوم ـ الحافظ ـ الحفيظ]

ـ **المهيمن**: هو سبحانه الرقيب والمسيطر على هذا الوجود كله، والحافظ له.

ـ **القيوم**: هو سبحانه القائم على ملكه بالتدبير، والمقيم لكل شيءٍ فيه.

ـ **الحافظ**: هو سبحانه القائم بالعناية والرعاية لجميع خلقه.

ـ **الحفيظ**: هو كالحافظ ولكنه أكثر مبالغة.

الشرح:

إن الله تبارك وتعالى هو الرقيب والمسيطر والمتصرف فى ملكه كله كيف يشاء، بيده سبحانه أَزِمَّةُ الأمور كلها، وكل شىء تحت تدبيره وقهره: ﴿ **لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[1] . فكل خزائن السموات والأرض ومفاتيحها بيد الله تعالى وقيادة هذا الوجود كله إليه سبحانه، وهو ـ أى الوجود ـ يسير وفق نظامه الذى قَدَّرَهُ له، ولا توجد إرادة أخرى غير إرادته عز وجل تتدخل فى تصريفه.

وهو سبحانه القائم بنفسه على الدوام، الغنى فى قيومته عن كل شىء، المقيم لكل من سواه، إذ لا قوام لأى شىء إلا به سبحانه. وهو القائم على كل خلقه بالرعاية والتدبير. فتفكر مثلاً فى السموات والأرض، يقول سبحانه عنهما : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾[2] ، فهذه الأرض وهذه السموات وهذه الأجرام الهائلة التى لا حصر لها والتى لو انحرف إحداها عن مساره بعض المليمترات، لاختل ذلك النظام الفضائى الهائل، وتحطم وتناثر، لا يدبر أمرها إلا الله عز وجل، ولا يقدر على ذلك إلا هو سبحانه، فمن ذا الذى يستطيع أن يقوم على ذلك من دونه جل وعلا ؟

---

(١) الشورى : ١٢.

(٢) فاطر : ٤١.

ويقول الله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾[1] . وذلك كحفظه تعالى لعبده، كما فى قوله : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[2] ، فهناك ملائكة تحفظ العبد من السوء والحوادث وتكون كالحرس عليه، وذلك بأمر الله لها وبإذنه. كما أن هناك حفظًا خاصًا لأوليائه سبحانه زائدًا على ما تقدم، فيحفظهم عما يضر إيمانهم ويزلزل يقينهم من الفتن والشبهات والشهوات، فيعافيهم منها ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس فينصرهم عليهم ويدفع كيدهم عنهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[3]، وهذا عام فى دفع جميع ما يضرهم فى دينهم ودنياهم. وكحفظه تعالى للسموات والأرض: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[4] ، وكحفظه تعالى لسمائه من الشياطين أن تسترق السمع : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) ﴾[5] ، وكحفظه تعالى لكتابه الكريم، القرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[6] .

ومن أهم عوامل حفظ الله لعبده: حفظ العبد لله، كما قال النبى ﷺ لعبد الله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: « احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احفظ اللهَ تَجِدهُ تُجاهَكَ»[7]. ومعنى حفظ العبد لله، أى أن يحفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك يكون بالوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده، فلا يتجاوز ما آمر به وأذن فيه إلى ما نهى عنه. ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله تعالى : الصلاة، فإنها عماد الدين وغرة الطاعات، وأول ما يحاسب

---

(١) سبأ : ٢١ .
(٢) الرعد : ١١ .
(٣) الحج : ٣٨.
(٤) البقرة : ٢٥٥.
(٥) الحجر : ١٦, ١٧.
(٦) الحجر : ٩ .
(٧) رواه أحمد والترمذى وقال : حديث حسن صحيح، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع/ ٧٩٥٧).

عليه العبد يوم القيامة، ولأهميتها وعِظَم قدرها يقول رسول الله ﷺ: «**بَيْنَ الرَّجُل وَبَيْنَ الكُفْر، تَرْكُ الصَّلاَة**»[1] . وعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**خَمْسُ صَلَوات كَتَبَهُنَّ اللهُ عَلَى العبَاد، مَنْ أتَى بِهِنَّ، لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا، اسْتِخْفَافًا بحقهنَّ، كَانَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّة ومَنْ لَمْ يَأت بِهِنَّ، فَليسَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ إنْ شَاء عَذَّبَهُ، وإنْ شَاء غَفَرَ لَهُ**» [2] .

والخشوع وحضور القلب هما روح الصلاة، وبدونهما تكون الصلاة هذيانـًا وصورة لا اعتبار بها. فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال. ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة، وذلك لأن النطق إذا لم يُعرب عما فى الضمير، كان بمنزلة الهذيان. وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ولم يكن القلب حاضرًا، لم يحصل المقصود، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده، بقى صورة بلا معنى، لا اعتبار بها.

قال الله تعالى: ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾[3] فالتقوى هى المقصودة، ولذا كانت أهمية النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب.

فلا بد من الخشوع وحضور القلب، ولا بد من التفهم لمعنى الكلام الذى يُقال فى الصلاة، ولا بد من تعظيم الله عز وجل وهيبته فيها . فإن ذلك سبب لجلاء القلب من الصدأ، وحصول أنوار الإيمان فيه، التى بها تتلمح عظمة المعبود جل وعلا، وتطلع على أسرار العبودية له، وما يعقلها إلا العالمون.

أما من هو قائم بصورة الصلاة فقط دون هذه المعانى، فإنه لا يطلع على شىء من ذلك، بل قد ينكر وجوده.

---

(١) رواه الجماعة إلا البخارى والنسائى، من حديث جابر رضى الله عنه .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وصححه الألبانى فى (صحيح الترغيب والترهيب/٣٦٣).

(٣) الحج : ٣٧ .

وحفظ الله لعبده الصالح، قد يمتد إلى ما بعد موته وذلك فى ذريته، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى حكاية لقول الخضر لنبى الله موسى، عليهما السلام: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[1]، فهذا الجدار الذى أقامه الخضر - عليه السلام - ولم يطلب عليه أجرًا من أهل القرية - وهما جائعان، وأهل القرية لا يضيفونهما - كان يخبئ تحته كنزًا لغلامين يتيمين ضعيفين فى المدينة ولو ترك الجدار ينهار لظهر من تحته الكنز، فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه، ولما كان أبوهما - صالحًا - وهذا هو الشاهد هنا - فقد نفعهما الله تعالى بصلاحه، فى طفولتهما وضعفهما، فأراد سبحانه أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما حينئذ، وإن فى هذا لدرسًا جميلاً لمن أراد حفظ أبنائه بعد موته. وقد قيل إن سعيد بن المسيب - رحمه الله - كان يقول لابنه: لأزيد فى صلاتى من أجلك، رجاء أن أُحفظ فيك.

ومما يدل على هذا المعنى أيضًا، قوله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾[2].

والقيوم سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يقوم على مصالح الخلق، وأن يسعى بما يستطيع ويقدر فى تدبير أمور إخوانه، كلما وجدهم فى حاجة إلى ذلك، وقد قال ﷺ: «مَنْ كَانَ فى حَاجَة أَخيه، كَانَ اللهُ فى حَاجَته وَمَنْ فَرجَ عَنْ مُسْلم كُرْبَةً، فَرجَ اللهُ عَنْهُ بها كُرْبَةً من كُرَب يَوْم القيامَة، وَمَنْ سَتَرَ على مُسْلَم سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القيامة»[3]، وقال أيضًا: «مَنْ يَسرَ عَلَى مُسْلم، يَسرَ اللهُ عَلَيْه فى الدُنيا والآخرة، واللهُ فِى عَوْنِ العَبدِ، مَا كَانَ العَبْدُ فِى عَوْنِ أَخيه»[4].

---

(١) الكهف: ٨٢. (٢) النساء: ٩.

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنه.

(٤) رواه مسلم من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه -.

وأولى الناس بالقيام على مصالحهم، من هم مسؤولون من العبد، فكما قال النبى ﷺ: «**كُلُكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيته**»[1] وقال أيضًا: «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**» [2]، ومعنى «من يقوت» أى: «من يعول».

وعن خَيْثَمَة قال: كنا جلوسا مع عبدالله بن عمرو إذ جاءه قهرمان له، فدخل، فقال له عبدالله: «أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا، قال: فانطلق فأعطهم، قال رسول الله ﷺ: «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ**»[3]، قال الإمام النووى - رحمه الله - فى شرح مسلم: «(القهرمان): هو الخازن القائم بحوائج الإنسان، وهو بمعنى الوكيل، وهو بلسان الفرس» أهـ.

وبعد أن يرعى العبد من هم تحت مسؤوليته، يتجه إلى أقاربه وإخوانه فيعين المحتاج، ويواسى المريض، ويرشد الضال. ويجب أن لا يجعله ذلك ينسى أن يرعي نفسه أولاً ويتعهدها ويحفظها من كل ما يضرها ويهلكها، فمن الجنون أن تهتم بغيرك وتنسى نفسك.

وقد قال بعض السلف:

« اللهم لا تجعلنى جسرًا يُعبر به إلى الجنة، ثم يُلقى به فى النار».

* * *

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما

(٢) رواه أحمد وأبو داود والبيهقى والحاكم عن عبدالله بن عمر، رضى الله عنهما، وقد حسنه الألبانى فى (صحيح الجامع/ ٤٤٨١) وفى (الإرواء / ٨٩٤).

(٣) رواه مسلم.

أسماء تتعلق بولايته تعالى لخلقه وكفايته لهم

■ **نذكر منها: [الولى ــ المولى ـ النصير ــ الوكيل ـ الكافى ـ الحسيب ـ الصمد ـ المجيب]**

ـ **الولى:** هو سبحانه مالك التدبير لأمور عباده والقائم بها .

ـ **المولى:** هو سبحانه سيد العباد، الذى لا ملجأ لهم سواه، ولا ناصر ولا معين لهم إلا إياه.

ـ **النصير:** هو سبحانه الذى ينصر أهل ولايته فى الدنيا والآخرة.

ـ **الوكيل:** هو سبحانه القائم بأمور عباده، المتكفل بمصالحهم.

ـ **الكافى:** هو سبحانه الذى يكفى عباده.

ـ **الحسيب:** هو سبحانه الكافى عباده حق الكفاية.

ـ **الصمد:** هو سبحانه الذى يُصمد إليه فى الحوائج ويُقصد إليه فى الرغائب.

ـ **المجيب:** هو سبحانه الذى يسمع دعوة الداعى إذا دعاه، فيجعل له فى الدنيا ما سأل، أو يدخره له فى الآخرة.

الشرح:

إن الله ـ عز وجل ـ هو المتولى لعباده المؤمنين، بعنايته، فيدبر لهم شؤونهم، ويحقق لهم آمالهم، ما دام الخير فيها، ويعصمهم من الوقوع فى المحظورات، يقول تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾[1] ويقول سبحانه لعباده الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا: ﴿ **نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾[2] . فهو تعالى رب عباده أجمعين، لا رب لهم سواه، ولا ملجأ لهم من دونه، ومن كان له وليًّا، تولاه سبحانه، وكان له معينًا وناصرًا، يقول تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾[3] ، ويقول :

---

(١) البقرة : ٢٥٧. (٢) فصلت : ٣١. (٣) الحج : ٧٨.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾[1] ، ويقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) ﴾[2] ولقد علَّم سبحانه وتعالى عباده أن مرد الأمر كله إليه وأن الفاعلية كلها منه، حتى لا يركنوا إلى الكافرين، وحتى لا يتوكلوا على الأسباب، وحتى يتوكلوا عليه وحده سبحانه، فقال لهم: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[3]، فنفى سبحانه الأسباب الظاهرة عن أن تكون هى الفاعلة، لتبقى الصلة مباشرة بين العبد وربه بلا حواجز ولا وسائط، فإذا توجه العباد إليه وحده سبحانه، أعزهم ونصرهم فى الدنيا والآخرة، ولم يجعل لأعدائهم عليهم من سبيل.

والتوكل على الله هو: **اعتماد القلب على الله بالكلية، مع الأخذ بالأسباب . وعدم الاضطراب عند فقدان السبب** . فإذا حقق العبد هذا المعنى فى نفسه كان من السبعين ألفًا الذين أخبرنا عنهم النبى ﷺ، الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وما أعظمها من جائزة. ومن حقق هذا المعنى فى نفسه، كفاه الله عز وجل كل شىء كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[4] ، أى، فهو كافيه كل شىء، وقال سبحانه فى آية أخرى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾[5]، فاللهم بلى.

ومن ذا الذى يشك فى كفاية الله لعبده، وهو سبحانه القوى القاهر فوق عباده، والذى بيده ملكوت كل شىء، صاحب الإرادة النافذة، والمشيئة الغالبة ؟.

ومن ذا الذى يخيف العبد، وما هذا الذى يخفيه، إذا كان الله عز وجل معه ؟

إن هذه الآية السابقة ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ لتجىء بردًا وسلامًا على القلوب. فتملؤها ثقة ويقينًا، وإنهما لسلاح قوى من أسلحة المؤمن، يشهره وقت الحاجة إليه .

---

(١) محمد : ١١ .

(٢) آل عمران: ١٤٩، ١٥٠ .

(٣) آل عمران : ١٢٦ .

(٤) الطلاق: ٣.

(٥) الزمر : ٣٦.

وهى فى ذات الحين صفعة، لأصحاب القلوب المريضة، الذين يتوكلون على الأسباب، وعلى من لا يملكون لأنفسهم ـ فضلاً عن غيرهم ـ نفعًا ولا ضرًّا .

لقد خرج النبى ﷺ مهاجرًا من مكة إلى المدينة ومعه الصديق ـ رضي الله عنه ـ ، والمشركون وراءهما يتعقبونه، فدخلا إلى غار ثور وجاء المشركون، بحيث كان لو رفع أحدهم قدمه لرآهما، ففزع الصديق واضطرب خوفًا على النبى ﷺ، أن يصلوا إليه، فينالوا منه، وفى هذه اللحظات العصيبة المضطربة، جاءت هذه الكلمة المليئة بالصدق واليقين وحسن التوكل على الله من النبى ﷺ، إلى الصديق ـ رضي الله عنه ـ: ﴿ **لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾[1] .

ومن كان الله معه فهو الأعلى بإذن الله ولن يقدر عليه أحد، ولن يصل إليه أحد، ولذا كانت النتيجة كما قال تعالى: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[2]. فكان النصر لعباد الله المتوكلين عليه بجنود من عند الله، لم يرها أحد، والهزيمة والخيبة للذين كفروا، والله عزيز حكيم فهو سبحانه (عزيز) لا يذل ولا يخذل أولياءه، الواثقين بنصره، المتوكلين عليه، و(حكيم) يُقَدِّرُ النصر فى حينه لعباده المؤمنين به، المتوكلين عليه.

وهؤلاء قوم موسى ـ عليه السلام ـ عندما فروا من فرعون وجنوده، وعندما وجدوا البحر أمامهم، وفرعون وجنوده من خلفهم، واشتدت المحنة والابتلاء، وبلغ الكرب مداه، فلا مهرب لهم ولا معين، فقالوا فى فزع ويأس : إنا لمدركون وإنا لهالكون. فظهر من بينهم نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ والذى يعلم حقيقة التوكل على الله جيدًا والذى يملأ قلبه اليقين بتأييد الله ونصره لعباده المتوكلين عليه، فقال لهم كما أخبرنا تعالى فى قوله: ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾[1] .

---

(١)، (٢) التوبة : ٤٠.　　　(٣) الشعراء : ٦١، ٦٢.

فهكذا قالها لهم بكل حزم وتوكيد : ﴿ **قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ لن نكون مدركين، ولن نكون هالكين ، لماذا ؟ لأن الله عز وجل معنا وسوف يهدينا إلى أمر نخرج به من هذه المحنة، فهو سبحانه لا يخذل أبدًا عباده المؤمنين به والمتوكلين عليه. وكانت نتيجة هذا الإيمان وهذا التوكل أن انشق البحر، ونجا المؤمنون المتوكلون، وغرق الكافرون الهالكون، وانقلب الحال فى طرفة عين بإذن الله القوى العزيز. فسبحانه وتعالى القادر على كل شىء.

ومن التوكل على الله تعالى : أنك إذا سألت فلتسأل الله، وإذا استعنت فلتستعن بالله، انطلاقـًا من قوله تعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾[1] ، فتتوجه في كل أمورك إلى الله تعالى ، فهو سبحانه الذى يُقصد فى الحوائج كلها، لأنه سبحان هو وحده القادر على إعطائه لعبده ما سأل، ولا يقدر على ذلك غيره. ولأنه هو سبحانه الذى يقابل مسألة السائلين ودعاء الداعين بالإجابة، بل قد ينعم سبحانه قبل النداء، ويتفضل قبل الدعاء، وليس ذلك إلا لله جل وعلا ، الكريم السميع المجيب، يقول تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾[3] ، فما أجملهما من آيتين. فسبحانك يا ربى ما أعظمك وما أكرمك، وما أظلم هؤلاء الذين يتوجهون إلى غيرك .

وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**يُسْتَجَابُ لأحَدِكُم مَا لَمْ يَعْجَل: يقولُ قد دعوتُ رَبى فَلم يَسْتَجِبْ لى**»[4] وفى رواية أخرى : «**لا يزال يُسْتَجَابُ للعبدِ مَا لَمْ يَدْعُ بإثم ، أو قطيعة رحم ما لَمْ يَسْتَعْجل**» قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال : «**يَقُولُ: قَدْ دعوتُ، وقد دَعوتُ، فلم أرَ من يستجب لى،**

(١) الفاتحة : ٥.

(٢) البقرة : ١٨٦ .

(٣) غافر : ٦٠ .

(٤) متفق عليه .

فيستحسر عنْدَ ذَلكَ ويَدَعُ الدُّعَاءَ[1] . فعليك بالإلحاح في الدعاء، ولا تمل ولا تَعْجَل. ومنَ الأشياء المسببة لعدم قبول الدعاء وإجابته، أن تدخل على نفسك شيئًا من الحرام، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ: «**ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السفرَ أشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَهُ إلى السماء يارب يارب، ومطعمُهُ حرامٌ وملبسُهُ حرامٌ، وغُذِي بالحرامِ، فَأنَّى يُستَجَابُ لذَلكَ؟**»[2] ، فالذين يرفعون أيديهم إلى السماء وقد فعلوا بها المحرمات والآثام، وقبلوا وأكلوا الحرام، فأنى يستجاب لهم؟ وقد قال بعض الشعراء:

نَحْنُ نَدْعُو الإلَهَ فِي كُلِّ كَرْبٍ ... ثُمَّ نَنْسَاهُ عِنْدَ كَشْفِ الْكُرُوبِ
كَيْفَ نَرْجُو إجَابَةً لدُعَاءٍ ... قَدْ سَدَدْنَا طَرِيقَهَا بِالذُّنُوبِ؟

وأُبَشِّرُ الداعي ربه بمنَّة عظيمة له من المجيب سبحانه وتعالى . ألا وهي أن دعائه لا يذهب هباءً أبدًا ، وأنه يُستجاب له ، إما بمطلوبه أو بغيره .

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **مَا من مُسلم يَدْعو اللهَ عَزَّ وجلَّ بدعوة ليسَ فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحم ، إلا أعطاهُ اللهُ بها إحدى ثلاث خِصال: إمَّا أن يُعَجِّل لَهُ دعوته ، وإمَّا أن يدخرَهَا له في الآخرة . وإمَّا أن يَصْرِفَ عنه من السوءِ مِثْلَهَا** » قالوا : إذًا نُكْثِرَ . قال : « **اللهُ أَكْثَرُ** »[3] .

ففي هذا الحديث دليل على أن دعاء المسلم لا يُهمل ، بل يُعطى ما سأله ، إما مُعَجلاً، وإما مؤجلاً ، تفضلاً من الله عز وجل .

* * *

---

(1) رواه مسلم .   (2) رواه مسلم.

(3) رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني في (رياض الصالحين / ١٥٠٩).

ومعنى (يصرف عنه من السوء مثلها) : أي ما يكون نفع دفعه كنفع حصولها .

ومعنى (إذًا نكثر) : أي نكثر من الدعاء .

ومعنى (الله أكثر) : أي أكثر إحسانًا مما تطلبون وتسألون .

أسماء تتعلق برزقه تعالى لخلقه

■ **نذكر منها: [الرزاق]**

ـ **الرزاق:** هو سبحانه الذى خلق الأرزاق المادية والمعنوية، وأوصلها للخلائق، وخلق لهم أسباب التمتع بها.

الشرح :

إن الله عز وجل هو الذى خلق الأرزاق المادية والمعنوية، فالمادية، كالأموال والأقوات، والمعنوية كالعلوم والمعارف ولذة العبادة والمناجاة، ومد سبحانه بفضله كل كائن من مخلوقاته من ذلك بحسب ما يحفظ عليه مادته وحياته. ولما كان أمر الرزق والمعاش هو أول وأهم ما يشغل الإنسان، لم يتركه الله تعالى قلقـًا متحيرًا بل بَيَّنَ له حقيقة هذا الأمر بما يريح قلبه فقال: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾[1] ، فأوجب سبحانه على نفسه أن يرزق كل دابة من هذه الدواب التى لا حصر لها، والتى تغطى وجه البسيطة. وقال تعالى: ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾[2] ، أى أن رزقكم عند الله تعالى قد قدره وقضى به لكم فلا تخشوا شيئـًا، فلا يمكن لأى عبد أن يمنعه عنكم، ولا يمكن لأحد أن يجعله أكثر أو أقل مما هو عليه، وما عليكم إلا الأخذ بأسباب الدنيا حتى يأتيكم. ثم لم يكتف سبحانه بذلك، بل أقسم بذاته المقدسة على ذلك فقال: ﴿ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ** ﴾[3] . وذلك حتى تطمئن نفس الإنسان، ولا تبقى عنده أية شبهة فى هذه الحقيقة، فالنطق صفة ملازمة للإنسان، وهو لا يشك فى ذلك برهة، فكذلك الرزق حقيقة ثابتة ومقدرة للإنسان من قبل أن يولد، فليطمئن قلبه إذن ولا يجزع لهذا الأمر أبدًا، ولا يمد يده إلى حرام أو ما فيه شبهة، فرزقه المقدر له آتيه لا محالة.

---

(١) هود: ٦.

(٢) الذاريات : ٢٢.

(٣) الذاريات : ٢٣.

إن الرزق مشغلة للنفوس ، وبخاصة تلك التى لم يستغرقها الإيمان ، وقد يكون مدخلاً للشيطان إلى قلب العبد ، ليُفسد فيه ، فيأتى هذا البيان ليُهدئ هذه النفوس ، ويسد هذا المدخل .

ويأتى البيان التالى ليوحد وجهة قلب العبد عند طلبه للرزق : يقـول تعالى : ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[(1)] . أى : اصرفوا رغبتكم فى أرزاقكم إلى الله ، فهو الذى عنده الرزق كله ، فاسألوه من فضله ، ووحدوه دون غيره .

ومن جميل ما جاء فى السنة المباركة عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»[(2)] .

ومعنى (وكان رزقه كفافـًا): هى الكفاية من غير زيادة ولا نقص.

فمن آمن بما تقدم سكنت نفسه واطمأنت، ولم تعد تتعلق بمخلوق، ولم تعد تداهن هذا أو تتعلق بهذا وتذل لهذا من أجل الرزق. وكانت ثقته بما فى يد الله أعظم مما فى يديه.

ولم ينشغل بما كفله الله له، ويهمل ما أمره به. جاء عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: إن الله يقول: «يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِى، أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى، وأَسُدُّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لا تَفْعَلْ، مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلاً، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ» [(2)] .

* * *

---

(1) العنكبوت : ١٧ .　　　(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة وصححه الألبانى فى (السلسلة الصحيحة/ ١٣٥٩).

أسماء تتعلق بأنه تعالى لا يخبر إلا بالحق

■ **نذكر منها: [الصادق]**

- **الصادق**: هو سبحانه الذى لا يقول إلا صدقًا.

الشرح:

لا أحد أصدق من الله تعالى فى قوله وفى حديثه وفى خبره وفى وعده ووعيده، كما قال سبحانه: ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً** ﴾[1]، وقال: ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** ﴾[2]، وقد كان النبى ﷺ يقول فى خطبته: «**إنَّ أَصْدَقَ الحديثِ كتابُ اللهِ وأحسنَ الهدى هَدْيُ محمد ﷺ**»[3].

وقد جعل الصادق جل وعلا الفلاح فى الآخرة للصادقين من عباده كما جاء فى التنزيل: ﴿ **قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[4] وسوف يسألهم سبحانه عن صدقهم هذا كما قال: ﴿ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾[5].

إن القيام بمقتضيات هذا الدين أمانة لا يحملها إلا من هم أهل لها وفيهم على حملها قدرة وفى قلوبهم تجرد له وإخلاص، لا يحملها إلا الذين يؤثرون الجد والجهاد على الراحة والدعة وعلى الأمن والسلامة، ولا يحملها إلا الذين يضحون بكل شىء فى سبيل رضا ربهم عنهم، ويقدمون رضا ربهم سبحانه على رضا أنفسهم بكل حال، فإنها أمانة كريمة، وهى أمانة ثقيلة، ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص من البشر، تحتاج إلى الصادقين حقًا مع أنفسهم، فى أنهم لا يريدون حقًا

---

(١) النساء: ١٢٢. (٢) النساء: ٨٧.

(٣) رواه مسلم والنسائى واللفظ للنسائى وقد صححه الألبانى فى صحيح سنن النسائى (١/ ١٤٨٧).

(٤) المائدة: ١١٩. (٥) الأحزاب: ٨.

إلا الله ولا يبغون حقًّا إلا رضاه. تحتاج إلى الصابرين الذين يصبرون على شهوات النفس المعوقة، ويصبرون على متاعب وعوائق طريق الوصول. إن كل أحد يمكنه أن يدعى هذا الصدق الإيمانى، والله تعالى قدر اختبارات وابتلاءات وفتن يتعرض لها كل من ادعى هذا فإذا ثبت العبد على طريق الحق، ولم يحد عن دين الله ولم يقدم رغائب النفس وشهواتها، وحرص على رضا ربه، فهذا هو الصادق حقًّا، وغيره هم الكاذبون كما قال سبحانه: ﴿ **الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)** ﴾[1] . وهؤلاء الصادقون يجزيهم الله تعالى خير الجزاء كما بينا، وكما قال سبحانه: ﴿ **لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ** ﴾[2].

وقد قال الإمام **ابن كثير** ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى : ﴿ **فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ** ﴾ : « والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أئمة أهل السنة والجماعة»[3] أهـ.

وقال **صاحب الظلال** ـ رحمه الله ـ : «والله تعالى يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ولكن الابتلاء يكشف فى عالم الواقع ماهو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذن على ما يقع لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم، وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره وبما حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه»[4] أهـ.

وقال تعالى أيضًا فى بيان فضل الصدق وأهله: ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾[5] . قال الإمام **ابن القيم** رحمه الله: « الذى جاء بالصدق هو مَن شأنه الصدق فى قوله وعمله وحاله، فالصدق فى هذه الثلاثة. وأعلى

---

(١) العنكبوت : ١ ـ ٣ .
(٢) الأحزاب : ٢٤.
(٣) تفسير ابن كثير (٣/٣٤٦) .
(٤) فى ظلال القرآن (٥/ ٢٧٢٠).
(٥) الزمر : ٣٣.

مراتب الصدق: مرتبة الصديقية، وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ، مع كمال الإخلاص للمُرْسِلِ. وقد أمر الله تعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾[1] ، وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنه سأله أن يهب له لسان صدق فى الآخرين، فقال: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾[2] وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق، فقال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[3] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾[4] . فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق فى هذه الأشياء: هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك فى الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله وفى مرضاته، بالظفر بالبغية وحصول المطلوب، كمخرجه ﷺ هو وأصحابه فى غزوة بدر، وكذلك مدخله ﷺ المدينة. وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه ـ أو مدخلاً آخر ـ إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

وأما **لسان الصدق:** فهو الثناء الحسن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء الكذب، كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء المرسلة عليهم صلوات وسلامه ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾[5] ، والمراد باللسان هنا : الثناء الحسن،

---

(١) الإسراء : ٨٠.
(٢) الشعراء : ٨٤.
(٣) يونس : ٢.
(٤) القمر : ٥٤,٥٥.
(٥) مريم : ٥٠.

فلما كان الصدق باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاءً وِفاقًا، وعبر به عنه.

وأما **قدم الصدق**: ففسر بالجنة، وفسر بمحمد ﷺ، وفسر بالأعمال الصالحة. وحقيقة «القدم» ما قدموه، وما يقدمون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويقدمون على الجنة التى هى جزاء ذلك، فمن فسره بها أراد ما يقدمون عليه، ومن فسره بالأعمال وبالنبى ﷺ، فلأنهم قدموها وقدموا الإيمان به بين أيديهم، فالثلاثة قدم صدق.

وأما **مقعد الصدق**: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى.

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره وأنه حق، ودوامه ونفعه وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار ، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل»[1] .

وقد عرف بعض العلماء **الصدق** فقال: « هو مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم ».

ومن جميل ما جاء فى فضل الصدق وآثاره الطيبة ما رواه عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: **«إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إلى البرِّ، وَإِنَّ البرَّ يَهْدِى إلى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِى إلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِى إلىَ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا»**[2] . «والبر» كما قال علماؤنا: اسم جامع لكل خير.

وما جاء عن حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«البَيِّعَانِ بالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا؛ بُورِكَ لَهُمَا فِى بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا؛ مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»**[3] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٤) بتصرف .

(٢) متفق عليه . (٣) متفق عليه .

فإذا فهمنا هذا الحديث، علمنا سببًا من أسباب قلة البركة، التى يشتكى منها الناس اليوم.

وكما أن التاجر إذا صدق فى بيعه ولم يغش، بورك له فى معاملته، كذلك العبد إذا صدق فى معاملته مع ربه ولم يغش فى أداء حق عبوديته، بورك له فى تلك المعاملة، وأُعطى خير الجزاء.

قال بعض السلف: « حق على كل من فهم عن الله، أن يلازم الصدق فى الأقوال، والإخلاص فى الأعمال، والصفاء فى الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار، ووصل إلى رضا الغفار، وقد أرشد تعالى إلى ذلك كله بقوله عند ذكر أحوال الثلاثة التائبين[1] : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾[2] » أهـ.

فقد هجر النبى ﷺ والمسلمون هؤلاء الثلاثة نحوًا من خمسين ليلة بأيامها عقوبة لهم، حتى ضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت مع سعتها، فسُدَّت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله تعالى عنهم هذا الهم والضيق والكرب، وذلك بسبب صدقهم رسول ﷺ فى تخلفهم وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم ، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم . قال تعالى: ﴿ **وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ**

(١) هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، رضى الله عنهم، كانوا قد تخلفوا عن الخروج مع النبى ﷺ فى غزوة تبروك، ولما عاد ﷺ إلى المدينة صدقوه القول أنه لم يكن لديهم عذر عن هذا التخلف، فتركهم ﷺ حتى يقضى الله تعالى فيهم، ثم تاب سبحانه وتعالى عليهم بعد ذلك. وراجع قصتهم بالتفصيل فى فتح البارى(٧/٧١٧) فهى مهمة وفيها فوائد عديدة .

(٢) التوبة : ١١٩ .

لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ (١)، (٢) .

فهذا الأمر بالصدق، وبأن يكونوا مع الصادقين، بعد قصة الثلاثة، فيه الإشارة إلى أن ما حصل لهؤلاء الثلاثة من توبة الله تعالى عليهم، حصل نتيجة صدقهم .

فكأن المقصود قوله هو : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولا تكذبوا ، واصدقوا فى أقوالكم وأفعالكم ، والزموا الصدق ، فحينئذ ، تكونوا من أهله ، وتنجوا من المهالك ، ويُحبكم الله ، ويجعل لكم فرجًا ومخرجًا من كل ضيق وعسر .

وانتهى هنا عند ذكر هذه الفائدة: وهى أن صدق المعاملة مبنى على كمال المراقبة تارة، ومحصلاً له تارة أخرى، فعليك بفهم باب المراقبة جيدًا من كتب الأخلاق ونحوها فهو أصل لتحقيق هذه الصفة الطيبة: الصدق.

* * *

---

(١) التوبة : ١١٨، ١١٩ .

(٢) قال الإمام ابن القيم [بدائع الفوائد / ٤٩٨] :

تخلف الثلاثة عن الرسول ﷺ فى غزوة واحدة ، فجرى لهم ما سمعت ، فكيف بمن عمره في التخلف عنه ؟!

وقال الإمام الحسن البصرى [فتح البارى ٧/ ٧٢٩] :

يا سبحان الله ! ما أكل هؤلاء الثلاثة مالا حرامًا ولا سفكوا دمًا حرامًا ولا أفسدوا فى الأرض ، وأصابهم ما سمعتم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر ؟!

أسماء تتعلق بهدايته تعالى لخلقه وفتحه عليهم

■ **نذكر منها: [المبين ـ الفتاح ـ الهادى]**

ـ **المبين**: هو سبحانه المظهر للأشياء كما هى فى نفسها.

ـ **الفتاح**: هو سبحانه الذى بهدايته ينفتح كل مغلق على عباده، وبفضله ورحمته يتيسر كل خير.

ـ **والهادى**: هو سبحانه الذى هدى عباده إليه وهدى كل مخلوق إلى ما فيه قوامه.

الشرح:

الله عز وجل هو الذى يبين لعباده الأشياء على حقيقتها، فهو سبحانه الذى يريهم الحق حقًّا، والباطل باطلاً، حتى لا يضلوا الطريق، وحتى لا ينخدعوا بتزيين الشيطان للباطل، ثم هو سبحانه يتركهم بعد ذلك لاختيارهم، فمن اختار طريق الحق وصبر عليه فقد فاز، ومن آثر طريق الضلال، فقد خاب. فالله جل وعلا الذى أوجد الإنسان فى هذه الحياة الدنيا، لم يتركه فيها ضائعًا تائهًا، بل بين له حقيقتها، ولماذا هو وُجِد فيها، ومن هو عدوه فيها، الذى يجب أن يحذر منه، وإلى أين هو ذاهب بعد تركها، وفصل له سبحانه كل شىء تفصيلاً.

فقال سبحانه مبينًا حقيقة هذه الحياة: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾[1] فهذه الحياة الدنيا بكل زينتها هذه، وبكل أبعادها المترامية، وبكل ثقلها هذا، عندما ينظر إليها بمنظار الحقيقة، تبدو شيئًا تافهًا زهيدًا، بل هى كما قال سبحانه (لعبة) ولا يتعدى قدرها أكثر من ذلك. ومتاعها هذا متاع زائل، كالزهرة الفانية ، ولكن لأن الشيطان يزين للإنسان الباطل ويغيره، فمتاعها يبدو للإنسان المخدوع، على غير ذلك .

---

(١) الحديد : ٢٠.

★

وقوله : ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ : أى لمن انهمك فى الدنيا واغتر بها .

وقوله : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ : أى لمن لم ينهمك فيها ويغتر بها، أى ليس فى الآخرة إلا أحد هذين.

والله تعالى لا يريد من عباده، ببيان هذه الحقيقة، أن يعتزلوا هذه الحياة الدنيا، ويهملوا أمر الخلافة فيها، كلا بل هو سبحانه يبين ويجلى الأمور على حقيقتها، ويصحح المفاهيم، حتى يستعلى عباده على هذا المتاع التافه الزائل، الذى يجذبهم إلى الأرض، ويعوق دون انطلاقهم إلى تحقيق الرسالة التى بعثوا من أجلها إلى هذه الأرض، ويعوق دون انطلاقهم إلى الآخرة، ويريد سبحانه أن يبين لهم أنهم حتى لو ضحوا بهذه الحياة الدنيا كلها فى سبيل تحقيق عقيدتهم، فإنهم في الحقيقة لم يضحوا بشىء ولم يخسروا شيئًا ولذلك يقول سبحانه فى الآية التى تلى هذه الآية: ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[1]، فهذا هو ميدان السباق الحقيقى الذى يجب أن يتنافسوا فيه، لكى يصلوا إلى هذا الملك الواسع العريض الدائم بلا نهاية.

ومن بديع البيان فى هذه المسألة قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾[2] .

ومعنى الآيات: أنه لولا أن يُفْتَن كثير من الناس الجهلاء، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن بيوتًا سقفها من فضة، كذلك سلالم ودرجًا من فضة، عليها يصعدون. وجعلنا أبواب بيوتهم والسرر التى يتكئون عليها، كل ذلك من الفضة. وزخرفًا، وقد قيل إنه الذهب، وقيل إنه أشمل من

---

(١) الحديد : ٢١.

(٢) الزخرف : ٣٣ ـ ٣٥ .

ذلك فيشمل كل ما كان أصله الزينة. وهذا كله بيانٌ لهوان هذه الفضة والذهب والزخرف والمتاع، بحيث تُبْذَلُ هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمن !.

وكل هذا متاع زهيد حقير، يليق بالحياة الدنيا الفانية. أما المتقون هؤلاء المكرمون عند ربهم بتقواهم، فلهم الآخرة، حيث الملك الحقيقى، الذى لا يزول أبدًا.

فصدق ﷺ حين قال: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنيا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، ما سَقَى كافرًا مِنْهَا شَرْبَةَ ماءٍ**»[1] .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ مَرَّ بالسوقِ دَاخلاً من بعضِ العالية والناسُ كَنَفَتَيْهِ (أى على جانبيه) ، فمر بجدى أَسَكَّ (أى به عيب فى أذنيه) ميت، فَتَنَاوَلَهُ فأخذَ بأُذنِه ثم قالَ: « **أيكمُ يُحبُّ أنَّ هذا له بدرهم؟** » فقالوا: ما نُحبُّ أَنَّه لنا بشىءٍ، وما نصنعُ بهِ؟ قال: «**اتحبونَ أنَّهُ لَكُم؟** » قالوا: واللهِ لو كانَ حيًّا كانَ عيبًا فيه لأَنَّهُ أَسَكُّ، فكيفَ وهو ميت؟ فقال ﷺ : « **لَلدُّنيا أَهْوَنُ على الله مِنْ هَذَا عَليكُم** ».

فهى عند الله تعالى أهون من جثةٍ حقيرةٍ لجدى معيوب ميت.

إن عرَضَ الحياة الدنيا لَيَفْتِن الكثيرين، وأشد الفتنة حين يرونه في أيدى الفجار، ويرون أيادى الأبرار منه خالية، أو يرون هؤلاء في عسر أو مشقة أو ابتلاء، وأولئك فى قوة وثروة وسطوة واستعلاء. والله تعالى يعلم وقع هذه الفتنة فى نفوس الناس، ولكنه يكشف لهم هنا عن زهادة هذه القيم وهوانها، ويكشف كذلك عن نفاسة ما يدخره للأبرار الأتقياء عنده، والقلب المؤمن يطمئن لاختيار الله للأبرار وللفجار.

فإذا أعرض الناس عن هذا البيان وأخذوا يتسابقون ويتنافسون على هذه اللعبة،

---

(١) رواه الترمذى عن سهل بن سعد رضى الله عنه وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع/ ٥٢٩٢).

فقد ضلوا ولن يملكوا يوم القيامة إلا الحسرة والندم: ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤)** ﴾ [(١)] .

وقال سبحانه مبينًا حقيقة الآخرة التي فيها المستقر بعد هذه الحياة الدنيا : ﴿ **وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[(٢)] أي إن الدار الآخرة هي دار الحياة الحقيقية والتي لا تزول أبدًا. وقال سبحانه: ﴿ **وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** ﴾[(٣)] ، وقال: ﴿ **وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ** ﴾[(٤)] ، وقال: ﴿ **أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾[(٥)] . وهذا البيان ليس المقصد منه ـ كما ذكرنا ـ طرح الدنيا وإلقائها هي ومتاعها بعيدًا، كلا، بل المقصد كما ذكرنا هو مراعاة الفارق بين هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة، والسعي إلى كل منهما بحسب مقدار وحجم كل واحدة، وأيضًا الاستعلاء على شهوات الدنيا، بحيث لا تصبح نفس العبد أسيرة لهذه الشهوات، فتنقاد لتلبيتها، مهما كلفها ذلك! . إن المسألة مسألة قيم توزن بميزانها الصحيح، فهذه قيمة الحياة الآخرة، وهذه قيمة الحياة الدنيا، فيجب على الإنسان أن يفهم ذلك ويسير على ضوئه فى هذه الحياة.

ومن جوامع الكلم فى هذه المسألة ما جاء فى صحيح الإمام مسلم عن المستورد بن شداد ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «**مَا الدُّنيا فى الآخرةِ إلا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أَحَدُكُم أُصْبُعَهُ فى اليَمِّ، فلينظرْ بِمَ يَرْجِعُ**».

فإذا وضع أحدنا أصبعه في ماء البحر ثم أخرجه، فنسبة الماء التى تكون على الأصبع إلى نسبة ماء البحر كم تكون؟ لا شيء قطعًا، فهكذا الدنيا بالنسبة للآخرة.

---

(١) الفجر : ٢٢ ـ ٢٤.
(٢) العنكبوت : ٦٤.
(٣) الإسراء: ٢١.
(٤) الرعد : ٢٦.
(٥) التوبة : ٣٨ .

وفى صحيح الإمام البخارى عن سهل بن سعد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه ﷺ قال: « **مَوْضِعُ سَوْطٍ فى الجَنَّةِ خَيْرٌ من الدُّنيا وَما فِيها**» .

فسبحان الله ! مقدار ذراعٍ من الجنة، خير للعبد من كل هذه الدنيا وما فيها.

وعند الإمام مسلم أيضًا فى صحيحه حديث جليل المعنى، عن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فيه درس لمن استهان بالحساب والعقاب ونار جهنم، وفيه بشرى لمن صبر على بؤس الدنيا وكان من الصالحين، يقول ﷺ فيه: «**يُؤْتَى بأنْعَم أهلِ الدُّنيا من أهلِ النَّارِ يومَ القيامة، فَيُصْبَغُ فى النارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يا ابنَ آدمَ، هل رأيتَ خيرًا قَطُّ، هلَ مَرَّ بكَ نَعيمٌ قَطُّ ؟ فيقولُ : لا واللهِ ياربِّ.**

ويُؤْتَى بأَشَدِّ النَّاسِ بؤسًا فى الدُّنيا من أهلِ الجنة، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فى الجنة، فيقالُ لَهُ: يا ابنَ آدمَ، هل رأيتَ بؤسًا قَطُّ ، هل مَرَّ بكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ : لا واللهِ، ما مَرَّ بى بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ» .

فالله أكبر ! غمسة واحدة في الجنة، تُنسى أشد أهل الأرض بؤسًا، كل ما مر به من بؤس فى حياته، فكيف تكون هذه الجنة، وكيف يكون نعيمها ؟

يقول ﷺ كما فى صحيح الإمام البخارى عن أبى هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: « **قال اللهُ: أَعْدَدْتُ لعباديَ الصالحينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلب بَشَر، فَاقْرأُوا إنْ شِئْتُم: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾**.

فاللهم أعنا على بلوغ هذا الصلاح الذى يُرضيك عنا، ويبلغنا هذا النعيم العظيم.

وفى نفس الوقت ، غمسة واحدة فى النار ، تُنسى أكثر أهل الدنيا نعيمًا ، كل ما مر به من نعيم فى حياته ، فكيف تكون هذه النار ، وكيف يكون حرها ؟

جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : « **نَارُكُمْ هَذِهِ ما يُوقِدُ بَنُو آدَمَ جُزْءٌ واحِدٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ** » .قالوا : والله إن

كانت لكافيةً. قال : « **إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا** ».

فاللهم أجرنا من النار . . اللهم أجرنا من النار . . اللهم أجرنا من النار .

وبين سبحانه أنه ما خلق هذا الإنسان عبثًا ولا تسلية، بل خلقه ليبتليه ويختبره: هل سيقدم رضا ربه أم رضا نفسه وهواه؟ يقول سبحانه: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ**﴾[1] .

والله سبحانه يعلم ما هو الإنسان، وما اختباره، وما ثمرة هذا الاختبار، ولكن المراد ـ كما قال بعض علماؤنا ـ أن يظهر ذلك على مسرح الوجود، وأن تترتب عليه آثاره المقدرة، ويجزى كل إنسان وفق ما يظهر من نتيجة ابتلائه، والله تعالى أعلم.

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وجعله خليفة فى الأرض، وحَمَّلَهُ الأمانة، وكَلَّفه برسالة خاصة دون سائر المخلوقات، والتى هو سبحانه سائله عنها في نهاية الرحلة، وذلك هو محل الابتلاء.

وبنظرة إلى أهل الأرض اليوم، نجدهم ـ إلا من رحم الله تعالى وعصم ـ قد فرطوا فى حمل هذه الأمانة، وبعدوا عن تأدية هذه الرسالة، والقيام بمقتضياتها، وانحرفوا عن الطريق الذى أراده سبحانه وبينه لهم. فانصرفوا عن عبودية الله تعالى، واستهانوا بأوامره ونواهيه، وأعرضوا عن هدى رسوله الكريم ﷺ، وصار جُلُّ سعيهم، وغاية جهادهم، للدنيا وشهواتها، وعَمُوا عن يوم اللقاء، وطرحوه وراء ظهورهم، وكانت نتيجة ذلك ما نجده ونراه من حولنا؛ فلقد اختفى الحق، وانتفش الباطل، وعم الفساد والفجور، وزال الأمان، وتلاشت الطمأنينة من القلوب، وانخنس الصفاء من النفوس، واختفى الود والوئام، وبدا الكره والعداء، وتفرقت السبل، وتشتت الشمل، وتقطعت الأرحام، وضاقت الأرزاق، ولم يعد للمسلمين شوكة يخشاها أعداؤهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون. هذا ناهيك عن العقوبات المُنْتَظَرة فى الآخرة.

---

(١) الإنسان : ٢ .

فلا بد من وقفة مع النفس ومراجعةٍ للأحوال، قبل انتهاء المهلة، وضياع الفرصة.

وبين سبحانه أيضًا حقيقة مهمة وهى وجود عدو لبنى آدم فى هذه الحياة الدنيا، سوف يبذل كل ما يستطيع من جهد، لكى يجعلهم يضلون وينحرفون عن الغاية التى خُلقوا من أجلها، وأن هذا العدو لا يغفل عنهم ولو لحظة واحدة، فقال جل وعلا: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾[١] وقال أيضًا: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾[٢] ، وقال: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا** ﴾[٣]، وقال: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾[٤] . إن الله عز وجل يريد من الإنسان أن يكون في حالة تحفز دائم، بكل قواه، وبكل يقظة لهذا العدو ولوسوسته، ولغوايته ولخداعه، ولتزيينه، ويستيقظ لمداخله جيدًا، فيتوجس فى كل هاجسة ويسرع ليعرضها على دين الله تعالى، الذى أنزله له ليحكم بين الحق والباطل، فلعل هذه الهاجسة خدعة مستترة من هذا العدو المبين ويظل على حالة التعبئة الشعورية هذه ضد الشر ودواعيه، وضد هواتفه المستترة فى النفس، بتعزيز الدفاع عن النفس وحماية الذات، حتى يلقى ربه جل وعلا، فهى معركة لا تهدأ لحظة واحدة ولا تضع أوزارها فى هذه الأرض أبدًا. ولاحظ توعد الشيطان للإنسان فى قوله لربه ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)** ﴾[٥] . فهو توعد يشير إلى مدى شراسة هذه المعركة.

وقد قال بعض العلماء: إن الشيطان هدفه الأعلى أن يصل بالإنسان إلى الكفر

---

(١) البقرة : ٢٠٨.
(٢) المائدة : ٩١.
(٣) فاطر : ٦.
(٤) يوسف : ٥.
(٥) ص : ٨٢ ـ ٨٥ .

والشرك. فإن يئس من ذلك، اجتهد أن يجعله من أصحاب البدع والضلالات. فإن يئس من ذلك، حرص أن يوقعه فى كبائر الذنوب، فإن عجز عن ذلك اجتهد أن يوقعه فى صغائرها والتى إن اجتمعت ربما أهلكت صاحبها. فإن عجز عن ذلك، حاول إشغاله بالمباحات التى لا ثواب فيها ولا عقاب ليشغله بها عن تحقيق رسالته فى الحياة، وليضيع بها وقته هدرًا. فإن عجز عن ذلك، حاول إشغاله بالعمل المفضول عن الفاضل، وقد قيل إنه يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، ليصل بالإنسان إلى باب عظيم من أبواب الشر، أو ليفوت عليه بذلك خيرًا أعظم من تلك السبعين وأجل وأفضل، وهذا أمر دقيق. فإن عجز عن ذلك أيضًا، سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه، بقصد إخماله وإطفائه ليشوش على قلبه، ويمنع الناس من الانتفاع به.

هذا ومن أعظم طرق الحفظ من الشيطان، الاستعاذة بالله تعالى كما قال سبحانه: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[1] .
وكذلك قراءة آية الكرسى، لما جاء فى الحديث الطويل الذى رواه الإمام البخارى، وفيه أن الشيطان قال لأبى هريرة - رضي الله عنه -، وقد كان متمثلاً فى صورة إنسان: **إِذَا أَوَيْتَ إِلىَ فراشكَ، فاقرأ آيةَ الكُرسى، لَن يزالَ عليكَ من الله حافظٌ ولا يَقْرَبُكَ شيطانٌ، حَتَّى تُصْبِحَ**، فقال النبى ﷺ : « **صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَلكَ شَيْطَانٌ** »
وقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: « **مَنْ قالَ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحمْدُ وَهُوَ على كُلِّ شَىءٍ قَدير فِى يَومه مائَةَ مَرة كانت لَهُ عَدْلُ عَشْرِ رقَابٍ وكُتبَتْ لَهُ مائَةَ حسنة ومُحيَت عَنْهُ مائَةَ سَيِّئة وكانت لَهُ حرزًا من الشيطانِ يَومَهُ ذَلكَ حتى يُمْسِى ولَمْ يَأْتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاءَ بِهِ إلا رجلٌ عَملَ أكثرَ منْهُ** » .

---

(١) الأعراف : ٢٠٠.

فهذه بعض المفاهيم الأساسية التى بينها الله تعالى لعباده، حتى لا يضلوا الطريق إليه، وقد بينت فى هذا الكتاب كثيرًا من المفاهيم الأخرى الهامة.

والله سبحانه عنده خزائن كل شىء كما قال: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ** ﴾[1] فهو جل وعلا مالك كل شىء، يفتح من خزائنه متى شاء لمن يشاء، فالأمر كله إليه سبحانه كما قال: ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[2] هو سبحانه الذى يفتح على عباده، ما يكشف لهم الحقائق، ويفتح عليهم مغالق الأمور، ويسهل عسير الشئون، سبحانه الذى يفتح للنفوس باب توفيقه ويرفع الحجاب من على قلوب أوليائه، ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه وجمال كبريائه. سبحانه الذى يفتح على عباده المؤمنين المتقين من بركات كل شىء فى النفوس والقلوب وبركات فى طيبات الحياة كما يقول سبحانه: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾[3] .

واعلم أن اسم الفتاح له معنى آخر وهو «الحكم»، كما فى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ** ﴾[4] وقوله: ﴿ **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾[5] .

ومعنى (افتح بيننا) أى: احكم بيننا، ولكن هذا المعنى ليس هو الذى نتكلم عنه الآن، إنما نحن بصدد المعنى الأول الذى ذكرناه.

والله تعالى هو الذى هدى كل مخلوق إلى ما لا بد منه فى قضاء حاجاته، فمثلاً هدى الطفل إلى التقام الثدى عند ولادته، والفرخ إلى التقاط الحب عند خروجه، والنحل إلى بناء بيته على شكل التسدس لكونه أوفق الأشكال لبدنه،

---

(١) الحجر : ٢١.
(٢) فاطر : ٢.
(٣) الأعراف : ٩٦ .
(٤) سبأ : ٢٦.
(٥) الأعراف : ٨٩ .

وأحواها وأبعدها عن أن يتخللها فروج ضائعة، فسبحانه الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى. **والهادى** سبحانه هو أيضًا الذى يهدى القلوب إلى معرفته، والنفوس إلى طاعته، وهو الذى يهدى المذنبين إلى التوبة والعارفين إلى حقائق القربة وهو الذى يشغل القلوب بالصدق مع الحق ويوفقهم لمعاملة الحق فى الخلق.

ومراتب الهداية أربعة: كما قال الإمام **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ :

*** المرتبة الأولى: «الهداية العامة»**

وهى هداية كل نفس إلى مصالح معاشها، وما يقيمها، وهى التى قال سبحانه عنها : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)** ﴾[1] وقال: ﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾[2] .
وذكر رحمه الله من أمثلة هذ النوع ما يلى:

هداية النمل: فهى من أعجب الأشياء فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعد عليها الطريق، فإذا ظفرت بما حملته، ساقته فى طرق معوجة، بعيدة ذات صعود وهبوط ، فى غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها فى وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإذا كان ينبت مع فلقه باثنتين، فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد، انتظرت به يومًا ذا شمس، فخرجت به، فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها. ويكفى فى هداية النمل ما حكاه سبحانه فى القرآن عن النملة التى سمع سليمان ـ عليه السلام ـ كلامها وخطابها لأصحابها بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾[3]، فجمعت بين اسمه وعينه ، وعرفته بهما ، وعرفت جنوده ، فأمرتهم أن يدخلوا بيوتهم حتى لا يهلكوا بسبب هذا الجيش، ثم اعتذرت عن نبى الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك ، وهذا من أعجب الهداية. وقال الإمام

---

(١) الأعلى : ١ ـ ٣ . (٢) طه : ٥٠ .
(٣) النمل : ١٨ .

ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ومن عجيب أمر النمل أن الرجل إذا أراد أن يحترز منه، بحيث لا تسقط فى عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيرًا ويملأه ماء، ثم يضع فيه ذلك الشيء. فيأتى النمل فلا يقدر عليه، فيتسلق فى الحائط ويمشى على السقف إلى أن يُحاذى ذلك الشيء ويلقى نفسه عليه !! وجربنا نحن ذلك. وأحْمَى صانعٌ مرة طوقًا بالنار ورماه فى الأرض ليبرد واتفق أن اشتمل الطوق على نمل، فتوجه فى الجهات ليخرج، فلحقه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزًا له !! وهو أبعد مكان من المحيط. وقد حدثه رجل أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شِق جرادة، فحاولت أن تحمله، فلم تستطع، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، فرفع الرجل شق الجرادة من الأرض، فطافت النملة فى مكانه فلم تجده، فانصرفوا وتركوها، فعاد الرجل ووضعه مكانه، فعادت تحاول حمله، فلم تقدر، فذهبت وجائت بأعوانها، فرفعه الرجل، فطافت فلم تجده، فانصرفوا، وفعل الرجل ذلك عدة مرات، وفى المرة الأخيرة، استدار النمل حلقة ووضعوا هذه النملة فى وسطها، وقطعوها عضوًا عضوًا !! وكأن النمل مفطور على قبح الكذب، وعقوبة الكذاب !.

هداية الثعلب: فهو إذا اشتد به الجوع انتفخ ورمى نفسه فى الصحراء، كأنه جيفة فتتداوله الطير فلا يظهر حركة ولا نفسًا، فلا تشك أنه ميت، حتى إذا نقره الطير بمنقاره وثب عليه، فضمه ضمة الموت! .

هداية أنثى الفيل: فهى إذا دنا وقت ولادتها، تأتى إلى الماء فتلد فيه، لأنها دون الحيوانات، لا تلد إلا قائمة، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهى عالية، فتخاف أن تسقطه على الأرض، فينصدع أو ينشق، فتأتى ماء وسطًا تضعه فيه فيكون كالفِراش اللين والوطاء الناعم.

هداية أنثى السبع: فهى إذا وضعت ولدها تضعه كقطعة من اللحم، ولهذا فهى ترفعه فى الهواء أيامًا خوفًا عليه من الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد .

* **المرتبة الثانية: « هداية الإرشاد والبيان للمكلفين » .**

وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق. وهذه الهداية هى التى أثبتها الله عز وجل لرسوله ﷺ حيث قال: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[(١)] وهى التى قال تعالى فيها: ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[(٢)] . فهداهم سبحانه هداية البيان والدلالة، فلم يهتدوا وأعرضوا، فكان هذا عقابهم. والله عز وجل من شأنه أنه إذا هدى قومًا، فأعرضوا ، سلبهم هذه الهداية وأعماهم كما يقول سبحانه ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[(٣)] لأنه كما قال: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[(٤)] ففى هذا النوع من الهداية، يفطر الله تعالى خلقه على الهدى، ويرسل إليهم الرسل، ويبين لهم طريقا الحق والضلال، كأنهم يشاهدونهما عيانًا، ويبين لهم ثواب الطاعة، وعقوبة المعصية، ويقيم لهم أسباب الهداية ظاهرًا وباطنًا، ويتركهم بعد ذلك لاختيارهم، وعلى أساس اختيارهم يكون حسابهم.

* **المرتبة الثالثة : « هداية المعونة والتوفيق والإلهام» :**

وهذه الهداية هى التى نفاها الله عز وجل عن رسوله ﷺ حيث قال: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾[(٥)] وهى التى قال تعالى عنها :﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[(٦)] وقال: ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ**

---

(١) الشورى : ٥٢. (٢) فصلت : ١٧ .
(٣) التوبة : ١١٥. (٤) الأنفال : ٥٣.
(٥) القصص : ٥٦. (٦) يونس : ٢٥ .

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) وهذه الهداية تكون من الله تعالى لعباده الذين استجابوا لهداية الإرشاد والبيان السابقة، فهداية الإرشاد، هـداية إلى الطريق وهداية المعونة، هداية فى الطريق. ولذلك يقول سبحانه فى هـذا النوع من الهداية ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾(٢) ويقول: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾(٣) فالذين اهتدوا هداية الإرشاد وسلكوا طريق الخير هداهم الله عز وجل هداية المعونة على السير فى هذا الطريق وكشف عقباته والثبات عليه.

* وهناك سؤال يتعلق بمسألة الهداية قد يختلج فى بعض الصدور، وهو: إن الله تعالى يقول: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (٤) ، أفلا يدل هذا على أن الهدى والضلال بيد الله تعالى، وليس للعبد فيهما كسب ولا عمل؟

ويريح بال السائل بداية أن يعلم أن الله عز وجل حكيمٌ، والحكيم هو الذى يضع الأشياء فى موضعها، وأنه تعالى رحيمٌ أشد الرحمة بعباده، وأنه من صفاته تعالى أنه عدلٌ لا يظلم أحدًا مثقال ذرة وأنه تعالى حسيبٌ، حكمٌ، يحاسب خلقه ويحكم بينهم يوم القيامة، فكيف يحسابهم سبحانه على شىء لا اختيار لهم فيه كما يظن السائل؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. ولا يأتى هذا السؤال إلا ممن هو جاهل بحقيقة ربه الذى يعبده وبمعانى أسمائه وصفاته.

أمـا الإجابة على هذا السؤال السابق، فهى فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑩ ﴾(٥) . فدل سبحانه بهذا القول الحكيم على أن الهداية والإضلال مبنيان على مقدمات

---

(١) المائدة : ١٦ .
(٢) محمد : ١٧ .
(٣) مريم : ٧٦.
(٤) المدثر : ٣١.
(٥) الليل : ٤ - ١٠.

تفضى إلى نتائجها، وأسباب تؤدى إلى مسبباتها، فمن أعطى واتقى وصدق، فسيهديه الله تعالى للحسنى. وأما من بخل واستغنى وكذب، فسيهديه تعالى للعسرى. فهناك فى البداية اختيار من جانب العبد واتجاه وعمل. ثم إن الذى يختار طريق الهدى والخير ويتجه يعينه الله عليه، وييسره له. وأما الذى يختار طريق الضلال والشر ويتجه إليه فإن الله يوله ما تولى، وهذا معنى إضلاله، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾[1] وكما قال سبحانه : ﴿ **وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ** ﴾[2] . وعلى ضوء هذا البيان وعلى ما مضى من شرح لهدايتى الدلالة والمعونة، نستطيع أن نفسر ونفهم جميع الآيات الحكيمة التى جاءت متضمنة لهذا المعنى والتى ضل فيها البعض بجهلهم لما ذكرنا.

* ومما ينبغى علمه هنا أيضًا أن «**الإنسان ليس مسيراً مطلقًا ولا مخيراً مطلقًا**». فإن الأجناس الموجودة فى الأرض هى : الإنسان ويليه الحيوان ويليه النبات ثم الجماد. والنبات امتاز عن الجماد بالنمو ، والحيوان امتاز عن النبات بشىء من الحس والحركة ، والإنسان امتاز عن الحيوان بالفكر والعمل. والفكر معناه المقياس الذى يختار بين البديلات، فالأمر الذى لا بديل فيه لا عمل لعقلك فيه والإنسان رغم أنه أعلى الأجناس، نجد فيه حيوانيه ونباتية وجمادية وما فيه من كل ذلك فهو مسير فيه كهذه الأجناس تمامًا، ولا اختيار له فيه. أما فى خاصية العقل والفكر فى منطقة: أَفْعَلُ أو لا أفْعَلُ ، فتلك هى منطقة التكليف من الله تعالى، ولذلك ففاقد هذه الخاصية،وهو المجنون غير مكلف من الله ـ عز وجل ـ والإنسان يكون مخيراً فى هذه المنطقة. وعليه فالإنسان مسير فى شىء ومخير فى شىء آخر. فلو سقط مثلاً سيسقط كقطعة الحجر، وهى جماد، وهو ينمو كالنبات ولا دخل له فى ذلك، وهو يتحرك وأجهزة جسمه كلها تعمل ولا دخل له فى ذلك أيضًا، بل قد لا يعلم عن كيفية اشتغالها شىء. فهو إذن مسير فى كل ذلك.

---

(١) النساء : ١١٥ .
(٢) البقرة : ٢٦ .

أما فى منطقة الاختيار بالفكر والعمل، فهو مخير فيها، وهو محاسب على اختياره هذا يوم الحساب.

ولأن العقل غير قادر بذاته على الاهتداء إلى ما يريده الله تعالى من الإنسان، فقد أرسل سبحانه الرسل ليهدوا الناس ويرشدوهم إلى طريق الخير حتى لا تكون هناك حجة للإنسان، كما قال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1] .

* المرتبة الرابعة: «الهداية إلى الجنة وإلى النار يوم القيامة»

وهى التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾[2] .

وقوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) ﴾[3] [4] .

جعلنا الله تعالى من عباده المهتدين وثبت سبحانه أقدامنا على الصراط المستقيم، حتى يأتينا اليقين.

* * *

(١) النساء : ١٦٥ .

(٢) الصافات : ٢٢، ٢٣.

(٣) محمد : ٤، ٥.

(٤) شفاء العليل (١٤١ ـ ١٧٩) باختصار وتصرف . ويا حبذا الرجوع إلى هذا الموضوع من الكتاب المذكور وقراءته كاملاً ، فهو ممتع وبه فوائد كثيرة .

أسماء تتعلق برحمته تعالى وبره بخلقه

■ **نذكر منها: [الرحمن ـ الرحيم ـ الرؤوف ـ الودود ـ البَرُّ ـ الرفيق ـ اللطيف ـ الحليم ـ الحَفِىُّ ـ الشافى]**

ـ **الرحمن**: هو سبحانه ذو الرحمة المطلقة.

ـ **الرحيم**: هو سبحانه الذى يرحم من يشاء من خلقه.

ـ **الرؤوف**: هو سبحانه البالغ فى رحمة خلقه أقصاها.

ـ **الودود**: هو سبحانه الذى يحب الخير لجميع خلقه، فيحسن إليهم، ويبرهم.

ـ **البَـرُّ**: هو سبحانه العظيم الإحسان لعباده.

ـ **الرفيق**: هو سبحانه الذى يرفق بعباده، فلا يكلفهم إلا ما يستطيعون، ويقابل زلاتهم بالإمهال والعفو والمغفرة.

ـ **اللطيف**: هو سبحانه الرفيق بعباده، البر بهم، المحسن إليهم.

ـ **الحليم**: هو سبحانه ذو الصفح والأناة، الذى لا يعجل بالعقوبة مع تمام المقدرة.

ـ **الحَفِى**: هو سبحانه المبالغ فى البِّرِ والإلطاف.

ـ **الشافى**: هو سبحانه الذى يُبْرِئُ العليل من علته، بقدرته سبحانه ورحمته.

الشرح :

اسم **(الرحمن)** هو صيغة مبالغة من الرحمة، وهو يدل على الصفة الذاتية، من حيث اتصافه تبارك وتعالى بالرحمة، فالرحمن، اسم يدل على أن الرحمة قائمة بالله عز وجل. أما اسم **(الرحيم)** فهو مشتق من الرحمة أيضًا، ولكنه يدل على الصفة الفعلية من حيث إيصاله تعالى الرحمة إلى من يشاء من خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾[1] ولم يأت قط أنه بهم رحمن.

---

(١) الأحزاب : ٤٣ .

وإذا أردت أن تعلم شيئا عن رحمة الله تعالى فانظر إلى ماجاء عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**جَعَلَ اللهُ الرحمةَ مَائَةَ جُزءٍ، فَأَمْسَكَ عندهُ تسعةً وتسْعينَ، وأنزلَ فى الأرضِ جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزءِ يتراحمُ الخلائقُ، حتى ترفعَ الدابةُ حافرَهَا عن وَلَدِهَا، خشيةَ أن تُصيبَهُ**»(١) وفي رواية: «**إنَّ لله تعالى مَائَةَ رحمة، أنزل منها رحمةً واحدةً بينَ الجنِّ والإنسِ والبهائم والهوامِ فبها يتعاطفونَ، وبها يتراحمونَ، وبها تعطفُ الوَحْشُ على وَلَدِها وأَخَّرَ اللهُ تعالى تسعًا وتسعين رحمةً يرحمُ بها عبادَهُ يومَ القيامةِ**» (٢) .

وما جاء عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: قُدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ، فإذا امرأةٌ من السَّبْى تَسْعَى، إذ وجدت صبيًا فى السبى، أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته فقال رسول الله ﷺ: «**أَتَرَونَ هذه المرأةَ طَارِحةً وَلَدَهَا فِى النارِ**»؟ قُلْنَا: لا والله. فقال: «**اللهُ أَرْحَمُ بعباده من هذه بولدها**»(٣) .

ومن المبشرات أيضًا التى تقوى رجاء العبد أن اسمه (**الرحيم**) ذكر فى القرآن مقارنـًا لاسمه تعالى الغفور، ثلاثـًا وسبعين مرة ، وورد مع اسمه تعالى التواب تسع مرات، ومع اسم الرؤوف ثمانى مرات، ومع اسم الرحمن أربع مرات، غير ما ذكر فى البسملة، ومع اسم الودود مرة واحدة، ومع اسم البر مرة واحدة.

وقد أوجب سبحانه الرحمة على نفسه الكريمة، تفضلا منه جل وعلا وإحسانـًا وامتنانـًا كما قال: ﴿ **وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٤) فيالها من بشرى جميلة لعباد الله المؤمنين ولعباد الله التائبين، تقوى رجاءهم فى رب العالمين .

---

(١)، (٢)، (٣) متفق عليه .

(٤) الأنعام : ٥٤ .

* **وهنا مسألة هامة،** وهي أن هناك فرقًا بين **الرجاء والتمني. فالرجاء** لابد وأن يكون على أصل، ولا بد وأن يكون قد تقدمت أسبابه، فكما **قال بعض العلماء:** «الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ماليس إلى اختياره وهو فضل الله سبحانه، بصرف الموانع المفسدات»(١) . فمثلا إذا أراد العبد أن يزرع فاختار أرضًا طيبة وألقى فيها بذرًا جيدًا غير مسوس ولا عفن، ثم ساق إليه الماء في أوقاته ونقى الأرض مما يفسد الزرع من الآفات وغيرها، ثم جلس بعد ذلك ينتظر من فضل الله تعالى، مع دفع كل ما قد يصيب الزرع فيفسده، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته فهذا يسمى انتظاره رجاء كما قال العلماء. وأما إذا اختار أرضًا لا تصلح للزرع أصلاً، ثم ألقى فيها بذورًا مَعيبة، ثم لم يتعاهدها بالسقاية والرعاية، ثم جلس بعد ذلك يرجو ربه، وينتظر الحصاد فانتظاره هذا يُعَدُّ تمنيًا وحمقًا لا رجاء .

يقول تعالى: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)** ﴾(٢) .

يبين لنا سبحانه هنا حال قوم ـ ذامًا لهم ومحذرًا لنا أن نكون مثلهم ـ جاءوا بعد ذلك السلف من قوم موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ **وَرِثُوا الْكِتَابَ** ﴾ وجدوا دين الله قد استقر في الأرض، وكذلك كتابه، فوجدوا أنفسهم على هذا الدين بالوراثة دون جهد منهم وتعب في إقامته، فماذا فعلوا ؟ أخذوا يتهافتون على عرض هذه الحياة الدنيا الفانية، ولا يبالون في سبيل ذلك بما جاء في دينهم من الحلال والحرام. وقد اعتاضوا عن بذل الحق ونشره وعن نصرة دينهم بذلك ثم يقولون بعد هذا

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة/ ٢٩٨.

(٢) الأعراف : ١٦٩، ١٧٠ .

﴿ **سَيُغْفَرُ لَنَا** ﴾ يعللون أنفسهم بالمغفرة مع استمرارهم على معصيتهم ! ثم هم يسوفون أنفسهم، ويعدونها بالتوبة، ولكن ﴿ **وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ** ﴾ أى إذا أتاهم عرض مثل العرض الذى كانوا يأخذونه، أخذوه، غير مبالين بالعقوبة، ولا خائفين من التبعة! ويبين تعالى أنهم درسوا الكتاب ﴿ **وَدَرَسُوا مَا فِيهِ** ﴾ ولكنهم لم يتكيفوا به، ولم تتأثر به قلوبهم، ولا سلوكهم، وذلك شأن العقيدة عندما تتحول إلى ثقافة تُدْرَس وعلم يُحْفَظ، لا إلى سلوك يسير على الأرض.

ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يتأولوا ويحتالوا على النصوص، وألا يخبروا عن الله إلا الحق ؟ فما بالهم يقولون: ﴿ **سَيُغْفَرُ لَنَا** ﴾، ويتهافتون على أعراض الدنيا ؟ ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله، وتأكيد غفرانه لهم، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقًّا، ويقلعون عن المعصية فعلاً، ﴿ **وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ** ﴾ من ذلك العَرَض الذى أخذوه وآثروه عليها ﴿ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ : أليس بهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والضلال ؟.

وكلمة ﴿ **يُمَسِّكُونَ** ﴾ هنا تصور مدلولاً يكاد يُحَس ويُرَى.. إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة، الصورة التى يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه، والجد والقوة والصرامة لا تنافى اليسر، ولكنها تنافى التميع، ولا تنافى سعة الأفق، ولكنها تنافى الاستهتار، ولا تنافى مراعاة الواقع، ولكنها تنافى أن يحكم الواقعُ شرعَ الله، فهو الذى يجب أن يظل محكومًا بشريعة الله.

قال بعض السلف: «سَيَبْلَى القرآن فى صدور أقوام كما يبلى الثوب، فيتهافت، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصروا قالوا: سنبلغ، وإن أساءوا قالوا : سَيُغْفَرُ لنا، فإنا لا نشرك بالله شيئًا»!!.

لقد ذكر سبحانه المستحقين لرحمته فى قوله: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] ، وفى قوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«وقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيحائه وتعليله، ودلالة بمفهومه؛ فدلالة بمنطوقه : عن قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالة بتعليله وإيمائه: على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، فهو السبب فى قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه: على بعد الرحمة من غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة» اهـ[3] .

فاللهم بلغنا ما نستحق به رحمتك.

واسم (**الودود**) هو قريب فى المعنى من الرحيم، لكن الأفعال التى تصدر من الرحيم تستدعى وجود مرحوم ضعيف، أما أفعال الودود، فلا تستدعى ذلك، بل الإنعام هنا على سبيل الابتداء من نتائج الود.

أما إذا أردنا أن نتحدث عن بره تعالى بخلقه وعظيم إحسانه إليهم، فهذا أمر يحتاج إلى مجلدات، وإليك مشهد جميل لأهل الجنة وهم يتحدثون عن شىء من بر مولاهم بهم، يقول تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) ﴾[4] . فظهر لنا أولا أن السر فى دخول هؤلاء الجنة، وفوزهم بهذا النعيم، أنهم عاشوا على حذر من هذا اليوم، يوم الحساب، وفى خشية من هذا اللقاء ، لقاء ربهم، فاستعدوا له، وهم يعيشون بين أهليهم، بين هذا الأمان الخادع وبين تلك المشاغل العديدة المُلهية ولكنهم لم ينخدعوا، ولم ينشغلوا عن الاستعداد لهذا اليوم، فعندئذ مَنَّ الله عليهم ووقاهم عذاب

---

(١) الأعراف : ١٥٦.
(٢) الأعراف : ٥٦.
(٣) التفسير القيم/ ٢٥٨.
(٤) الطور : ٢٥ ـ ٢٨.

السموم، ولأنهم يعرفون أن العمل وحده لا يدخل صاحبه الجنة، إلا بمنة من الله وفضل، حيث إن العمل لا يبلغ أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده، ورغب فيما عند الله، وهذا هو المؤهل لنيل فضل الله تعالى ومننه، كانوا لذلك ، مع خوفهم وحذرهم واستعدادهم، يتوجهون بالدعاء إلى ربهم يتوسلون فى فكاك رقابهم، فهم يعلمون أنه سبحانه **البر الرحيم** .

وكذلك ينشكف لنا سر الوصول، فى تناجى هؤلاء الناجين فى دار النعيم.

وأما عن حلمه تعالى، فسبحانه الذى لا يستفزه جهل جاهل، ولا عصيان عاصٍ. فهو جل وعلا يشاهد معصية العصاة، ويرى الإعراض والمخالفة لأوامره ونواهيه ثم لا يستفزه غضب، ولا يعتريه غيظ، ولا يحمله شىء على المسارعة إلى الانتقام، مع غاية الاقتدار، كما قال سبحانه: **﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾**[1] . وهو سبحانه الذى لا يحبس إنعامَهُ وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكنه يرزق العاصى كما يرزق المطيع، فلا يعجل بالعقوبة، بل ويقبل توبة من تاب إليه، ويبدل سيئاته حسنات، وعن أبى موسى الأشعرى - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيسَ أحدٌ أصبرَ على أذى سمعه، من الله تعالى، إنهم ليدعون له ولداً، ويجعلونَ لهُ أنداداً، وهو مع ذلك يُعافيهمْ ويَرْزقهُمْ**»[2] .

ومن مظاهر رحمته تعالى وبره بخلقه أيضًا، أنه سبحانه الذى يعافى كل مريض من مرضه الذى نزل به، ويشفيه منه، ولا يفعل ذلك فى حقيقة الأمر إلا هو سبحانه، فرغم أنه سبحانه هو الذى خلق أسباب الشفاء والعافية، إلا أنها ليس لها أى تأثير إلا من بعد إذنه تعالى وإرادته.

والأمراض تنقسم إلى أمراض قلوب، وأمراض أبدان: فأمراض القلوب، كالشرك والنفاق والرياء والحقد والحسد. وأمراض الأبدان، هى الأمراض المعروفة

---

(١) فاطر : ٤٥.

(٢) متفق عليه .

لدى الناس. ولجهل الكثير فإنهم يهتمون بعلاج أمراض الأبدان، ويهملون علاج أمراض القلوب، والتى قد تؤدى إلى الهلاك فى الدنيا والآخرة.

ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم، يهتمون بقلوبهم، ومعرفة ما فيه صلاحها وحياتها، حتى يفعلوه، ومعرفة ما فيه مرضها وهلاكها؛ حتى يتجنبوه وكان بعضهم يقول: عجبت للناس، يبكون على من مات جسده، ولا يبكون على من مات قلبه، وهو أشد وأعظم. ولا نجاة للإنسان يوم القيامة إلا بالاهتمام بقلبه، وعلاجه من أمراضه، حتى يلقى الله - جلا وعلا - بقلب سليم: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾[1]. فلا أموال تنفع يومئذٍ، ولا أبناء تنفع، بل لا ينفعك إلا أن تأتى ربك بقلب سليم. سليم من الأمراض، سليم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه .. ومن كل شبهة تعارض خبره .. ومن عبودية من سواه . . ومن تحكيم من عداه. وذلك لأن الجنة دار الطيبين ولا يجاور أحد ربه فيها، إلا إذا كان قلبه طيبًا سليمًا كما قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[2]. فقول الملائكة لأهل الجنة: ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ يبين السبب الذى بسببه استحقوا دخول الجنة، وهو طهارة القلب، وطيبه من الأمراض، فهم لا يدخلوها إلا لأنهم قد طابوا وطابت قلوبهم. وكذلك البشارة عند الموت من الملائكة، تكون لهؤلاء الطيبين دون غيرهم، كما قال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3].

فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شىء من الخبث ومن تطهر فى الدنيا، وطاب قلبه، ثم لقى ربه دخلها بإذن الله من غير معوق.

وليت شعرى.. ما أشبه قلوبنا اليوم بهذا الرجل المريض، الذى اشتد به

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.
(٢) الزمر: ٧٣.
(٣) النحل: ٣٢.

المرض، ماذا يفعلون به؟ يُدخلونه غرفة مُغَلَّقَة، تُسمى بغرفة (العناية المركزة). يمنعون عنه فيها كل ما يضره من طعام وشراب وكلام ونحو ذلك، حتى أقرب المقربين إليه، لا يستطيع أن يجلس معه أو يحدثه. وبعد أن يمنعوا عنه كل ما يضره، يمدوه من الجانب الآخر بكل ما فيه نفع له، من الأغذية والمحاليل والعقاقير والهواء النقى ونحو ذلك . ثم يتابعوا بعد ذلك المريض بين حين وآخر، للتأكد من تحسن وتقدم الحالة الصحية. فيقيسوا النبض ودرجة الحرارة ونسبة الأكسجين فى الدم، ويراقبوا حالة القلب، وحالة وظائف بعض أجهزة الجسم، ونحو هذا. فيخرج هذا المريض بعد حين وقد استرد صحته وعافيته بإذن الله تعالى وفضله، فتكون الفرحة كبيرة له ولمحبيه.

فما أحرى هذا القلب السقيم، الذى أوبقته الأوزار ، وتعطن بالشهوات، وتلوث بالشبهات، وترهل بمرور الشهور والدهور عليه، دون تزكية ورعاية وتربية، ما أحراه أن يَدْخُل إلى غرفة العناية المركزة ، فَيُمْنَع عنه فيها كل ما يضره من المعاصى، ويُمَد من الجانب الآخر بكل ما ينفعه من الطاعات والعبادات ، ويُرَاقب حالته بين حين وآخر للتأكد من تحسنه، فيخرج فى النهاية وقد صار قلبـًا سليمـًا، يفرح به صاحبه أشد الفرح، وينجو به فى الدنيا والآخرة بإذن الله تعالى وعونه.

وأمراض الأبدان التى تصيب المؤمنين، يكون فيها بإذن الله تكفيرٌ عن ذنوبهم وخطاياهم، فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ دخل على أم السَّائب - أو أُمِّ المُسَيِّب - فقال : « **مَالَكِ يا أم السائب - أو يا أم المسيب - تُزَفْزِفينَ؟** قالت: الحُمَّى لا بارك الله فيها. فقال: «**لا تَسُبِّى الحُمَّى، فإنها تُذْهِبُ خَطَايا بنى آدمَ كما يُذْهِبُ الكيرُ خَبَثَ الحَديد**»[1]

وعن صهيب بن سنان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**عَجَبًا لأمر المؤمن، إن أمرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وليسَ ذلكَ لأحَد إلا للمؤمن: إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فكانَ خَيراً لَهُ، وإن أصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فكانَ خَيْراً لَهُ**» [2] .

---

(١)، (٢) رواهما مسلم

ومن الأسباب العظيمة للشفاء عامة التى أرشدنا إليها المولى جل وعلا، هو هذا القــرآن الذى بين أيديـنـا، كما قال سبحانه عنه: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾[1] وقال: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[2] . فاللهم علمنا وفهمنا القرآن، واجعله لنا شفاء ورحمة، إنك على كل شىء قدير.

والله عز وجل رفيق بعباده، يعاملهم بكل لطف وإحسان، ومن رفقه بهم أنه سبحانه يحب انتشار الرفق بينهم، قال ﷺ : «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وَمَا لا يُعْطِي عَلَى سِوَاهُ**»[3] .

وقال: «**إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلا شَانَهُ**» [4].

فمن أحق الناس بهذا الرفق وهذا اللطف أكثر من الوالدين؟ إنك لا تجد فى الوجود حبًّا أصدق ولا أعمق من حبهما، فهو حب مجرد من أى مصلحة ترجى منك، بل ربما يكون الابن مصدر شقاء لهما، ويسىء معاملتهما، ومع ذلك لا تجد قلب الوالدين يحمل الكره والبغض له، بل كل الحب والحنان والرحمة ! . . فهل تجد فيمن حولك من يحبك بهذه الطريقة ؟ يحبك حتى ولو لم يجد منك إلا القسوة والجفاء. يحبك ولا يطلب منك أى شىء، بل كل ما يتمناه أن تكون فى أتم صحة وأهنأ بال .

لقد قضى الله تعالى بإفراده وحده بالعبودية وأمر بذلك أمرًا حتمًا لازمًا، وقرن سبحانه بين هذا الأمر وبين الإحسان إلى الوالدين والرفق بهما، وهذا يدلك على عِظَمِ برهما وعلى أهمية الإحسان إليهما : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)** ﴾[5] .

---

(١) فصلت : ٤٤ .   (٢) الإسراء : ٨٢.

(٣)، (٤) رواهما مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٥) الإسراء : ٢٣، ٢٤ .

يقول **صاحب الظلال** عند هاتين الآيتين :

« بهذه العبارات الندية، والصور الموحية يستجيش القرآن وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء، ذلك أن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالأحياء توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام، إلى الذرية، إلى الناشئة الجديدة ، إلى الجيل المقبل، وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء إلى الأبوة، إلى الحياة المولية، إلى الجيل الذاهب ! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات.

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات. وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة، فإذا هي فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة، فإذا هي قشر، كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين، فإذا هما شيخوخة فانية ـ إن أمهلهما الأجل ـ وهما مع ذلك سعيدان !

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام، إلى الزوجات والذرية، وهكذا تندفع الحياة.

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء، إنما يحتاج هؤلاء الأبناء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف.

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله»[1] .

وقد قرن الله تعالى بين الشكر له سبحانه والشكر للوالدين، وفي هذا دليل على مدى عِظَم الشكر للوالدين ووجوبه، والذي لا يكون إلا بالبر والإحسان والرفق بهما، فقال: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ**

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٢١).

فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[1] .

سبحان الله !! فَحتى لو جاهداك على الشرك بالله تعالى، فلا تطعهما، ولكن هذا لا يُسقط حقهما فى المعاملة الطيبة والرفق بهما والصحبة الكريمة بالمعروف. ولذلك فإن عقوق الوالدين يُعَدُّ من أكبر الكبائر كما قال النبى ﷺ .

وجاء عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «رَغِمَ أَنْفُهُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ ثُم رَغِمَ أَنْفُه»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْه عِندَ الكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ»[2] .

ومعنى الحديث: إن بر الوالدين بالخدمة أو النفقة أو غير هذا، وذلك عند كبرهما وضعفهما، سبب لدخول الجنة، فمن قصر فى ذلك، فاته دخول الجنة، وأرغم الله أنفه، أى لصق أنفه بالرُّغَام، وهو التراب، وذلك كناية عن الذل.

* ومن جميل ما قال الإمام الحافظ **محمد بن الوليد القرشى**، تلميذ الإمام القاضى **أبو الوليد الباجى**، للعاق لأبويه :

« فيا من أبكى أبويه وأحزنهما، وأسهر ليلهما، وحَمَّلَهُما أعباء الهموم، وجرعهما غصص الفراق، ووحشة البعاد، هل أحسنت إليهما وأجملت فى معاملتهما: صغيرًا يبكيان عليك إشفاقًا وحذرًا، وكبيرًا يبكيان منك خوفًا وفرقًا، فهما أليفا حُزنٍ، وحليفا هَمٍّ وغَمٍّ »[3] .

ولا يمكننا ونحن نتحدث عن الرفق بين المسلمين أن لا نتكلم عن الرفق بالزوجة وحُسن معاشرتها، إذ أن القرآن والسنة قد أمرا وحثا على ذلك.

يقول الله تعالى لرجال المسلمين: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[4] .

---

(١) لقمان : ١٤، ١٥. (٢) رواه مسلم. (٣) برُّ الوالدين/ ١١٦.
(٤) النساء : ١٩.

أى : طيبوا أقوالكم لأزواجكم وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم لهن، فكما تحبون ذلك منهن، فافعلوا أنتم بهن مثله.

ثم يأتى هذا الحث اللطيف للرجل إذا كره زوجته أن يحاول الإبقاء عليها والعيش معها إلى أقصى ما فى استطاعته، فعسى أن تكون هذه الزوجة التى يكرهها سببًا مقدرًا لوصول الخير الكثير له فى الدنيا والآخرة، فإذا فارقها؛ زال هذا الخير عنه.

ويوصى ﷺ رجال المسلمين قائلاً: « **ألا وَاسْتَوصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ..**» الحديث [1] .

أي: اطلبوا وصيتى واقبلوها واعملوا بها فى زوجاتكم، وارفقوا بهن وأحسنوا عشرتهن، وليجدن منكم كل خير.

ومعنى (عَوَان): أى أسيرات، وهى جمع عَانية، فشبه رسول الله ﷺ المرأة فى دخولها تحت حكم الزوج بالأسير، فهى لا تفعل شيئًا إلا بإذنه، وعليها طاعته، وهذه سنة كونية هكذا قدرها الحكيم الخبير، وهذه السنة الكونية أمانة ثقيلة فى أعناق الرجال هم مسؤولون عنها يوم القيامة؛ هل قاموا بحقها وبرعايتها فيستحقون الثواب؟ أم خالفوا أوامر شرعهم ولم يحسنوا إلي زوجاتهم فيستحقون عندئذ العقاب؟

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أنه ﷺ قال: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّ الـمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِى الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإِن تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا**» .

قال علماؤنا: يُسْتفاد من أن (**المرأة خلقت من ضلع**): أن بها عوجًا مثله، لكون أصلها منه، وعن معنى (**وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه**): قالوا : فيها إشارة إلى أنها خلقت من أعوج أجزاء الضلع مبالغة فى إثبات هذه الصفة لهن، ويحتمل

(١) رواه الترمذى عن عمرو بن الأحوص وصححه الألبانى فى (رياض الصالحين/ ٢٨١) بتحقيق الألبانى.

أن يكون ضرب ذلك مثلاً لأعلى المرأة؛ لأن أعلاها رأسها، وفيه لسانها، وهو الذى يحصل منه الأذى .

وأما عن معنى (**فإن ذهبت تقيمه كسرته**): فيوضح ذلك رواية هذا الحديث عند الإمام مسلم فى صحيحه: (**وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها**)، فالمرأة إن أردت إقامتها على الجادة وعدم اعوجاجها أدى ذلك إلى الشقاق والفراق، وهو كسرها، وإن صبرت على عوجها، دام الأمر واستمرت العشرة.

وقوله ﷺ: (**فاستوصوا بالنساء خيرًا**): أى بعد أن علمتم ما تقدم، فاستوصوا بهن خيرًا، واصبروا على ما يقع منهن .

وليس معنى ذلك ترك المرأة على عوجها إذا تعدى الأمر إلى ارتكاب المعاصى أو ترك الواجبات، وإنما المراد أن يتركها على اعوجاجها فى الأمور المباحة، ولذلك بوب الإمام البخارى رحمه الله فى صحيحه بعد هذا الحديث بباب ﴿ **قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ﴾، وذكر تحته حديث: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه**».

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أنه ﷺ قال: «**لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**».

ومعنى (**لا يفرك**): أى لا يبغض، فينبغى على المؤمن أن لا يكره زوجته؛ لأنه إن وجد فيها خلقًا يكرهه، وجد كذلك فيها خلقًا مرضيًّا ولا بد.

وما قيل من التعقيب فى نهاية الحديث السابق يُقَال هنا أيضًا.

إن من المقاصد الهامة للزواج فى الإسلام أن تكون العلاقة بين شطرى الجنس البشرى قائمة على أساس المودة والرحمة، ليتحقق لكليهما فى حياته الأسرية الراحة والسكينة والاستقرار والمسرة والاطمئنان، وهو الشىء الضرورى لإعطائهما القوة والطاقة المعينين على تحقيق مقاصد الشرع، وقد بين القرآن الكريم هذا المقصد: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1] .

(١) الروم : ٢١.

ووضح هذا التصور عن الحياة الزوجية بأسلوب جميل فى آية أخرى، فقال: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾(١) .

ففى هذه الآية أن كلا الزوجين لباس للآخر. و(اللباس): هو الشىء الذى يلتصق بجسد الإنسان ويستره ويحميه من العوامل الخارجية الضارة، والمقصود: أن علاقة الزواج بينهما من الناحية المعنوية يجب أن تكون مثل ما بين اللباس والجلد من علاقة، يعنى أن يتصل قلباهما وروحاهما كل بالآخر، وأن يستر كلاهما الآخر، ويحمى كل منهما قرينه من المؤثرات التى تُفسد أخلاقه، وتحط من عزته وكرامته، وهذا هو مقتضى المودة والرحمة، وهذه هى الروح الأصيلة للعلاقة الزوجية، فإن خلت هذه العلاقة من هذه الروح، صارت كأنها جثة ميتة.

واختيار المرأة الصالحة عند الزواج يعين على تحقيق المودة والرحمة، فهى خير متاع فى هذه الحياة الدنيا كما قال ﷺ: «**الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ متاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»(٢) .

وليس الصلاح إلا المحافظة على الدين، والتمسك بالفضائل، ورعاية حق الزوج، ورعاية الأبناء وحمايتهم، فهذا هو الذى ينبغى مراعاته، ولذلك قاله ﷺ فى حديث آخر: «.. **فَاظفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ**» (٣) .

ومعنى (**تربت يداك**): أى التصقت بالتراب، وهو دعاء بالفقر على من لم يحرص على الزواج من ذات الدين، ولم يكن الدين من أهدافه عند اختيار الزوجة.

وأود أن أعود - للتفصيل بعض الشىء - لنقطة كنت قد ذكرتها منذ قليل، وهى: أنه ليس معنى إحسان معاملة الزوجة، والصبر على ما قد تكون عليه من

---

(١) البقرة : ١٨٧ .

(٢) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

بعض السلوكيات غير المرضية، ليس معنى ذلك السكوت، إذا تعدى الأمر إلى ترك الواجبات الشرعية، وفعل المحرمات.

فقد جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُم مسئولٌ عن رَعِيَّته، الإمامُ رَاعٍ ومسئولٌ عن رَعِيَّته، والرَّجُلُ راعٍ فِى أَهْلِه ومسئولٌ عن رَعِيَّته، والمرأةُ رَاعِيَةٌ فِى بيت زَوْجِهَا ومسئولةٌ عن رعيتها. والخادمُ راعٍ فِى مالِ سَيِدِه ومسئولٌ عن رعيته. فَكُلُّكُم راعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّته**».

ومعنى (**كلكم راع**): أى كلكم حَافِظٌ ومؤتَمَنٌ، ملتزم صلاح ما ائتمِن على حفظه، مُطَالب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه.

ومعنى (**مسئول عن رعيته**): أى سوف يُسأل يوم القيامة، عندما يقف بين يدى الله - عز وجل - : هل قام تجاه رعيته بما عليه من صلاحها وحفظها، والقيام بمصلحتها، أم لا ؟

فكل رب أسرة سوف يُسأل عن أهله:

* هل حرص على أن يكونوا على حالٍ يرضى عنه الله عز وجل، وسعى إلى ذلك بكل ما يستطيع ؟

* هل حرص على أن يكون النبى ﷺ هو أسوتهم وقدوتهم فى جميع تصرفاتهم وشؤونهم؟

* هل حرص على هذا وغيره مما ينجيهم فى الدنيا والآخرة أم حرص فقط على أن يوفر لهم المطعم والمشرب والملبس، وأن يهتم بدراستهم الدنيوية فحسب، ثم يتركهم بعد ذلك تائهين، ضالين، بلا رعاية ولا توجيه صحيح، وسط أمواج الحياة المتلاطمة ، التى تسحب الناس بعيداً عن الإسلام، فلا يعرفون شيئًا عن دينهم ، إلا القشور. ولا يقتدون فى حياتهم إلا بأهل الكفر والفسق والفجور!

بل قد يزداد الأمر سوءًا، فيذهب بنفسه ويحضر لهم هذه الأجهزة - التلفاز والفيديو والدش - التى تَعْرِض كل ما يُمرض القلوب ، ويقتل التقوى فيها،

ويتركها بين يدى أهله، ليشاهدوا العهر والخلاعة والفواحش، ثم يمضى ويتركهم، ويحسب أنه بذلك يُسعدهم، وهو لا يدرى أنه يُلقى بهم وبنفسه فى النار.

أو قد يأخذهم إلى الأماكن المليئة بالمنكرات، وخاصة شواطئ البحر، التى ينتشر فيها العرى والخلاعة من النساء، والفسق والدياثة من الرجال، ويجلس بأهله وسط هذه الأوبئة والمنكرات!!

إن الله عز وجل يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾[1] .

قال الإمام **ابن جرير** ــ رحمه الله ــ : «فعلينا أن نُعَلِّم أهلنا وأولادنا الدِّين والخير وما لا يُستغنى عنه من الأدب، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾، وقوله: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ » اهـ بتصرف يسير.

وذكر الإمام ابن كثير فى تفسيره عن الضحاك ــ رحمة الله عليهما ــ قوله: «حق على كل مسلم أن يُعَلِّم أهله من قرابته وإمائه وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم عنه».

وقال **صاحب الظلال** ــ رحمه الله ــ عند تفسير هذه الآية:

«إنَّ تَبِعَةَ المؤمن فى نفسه وفى أهله، تبعة ثقيلة رهيبة. فالنار هناك، وهو متعرض لها، هو وأهله، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار، التى تنتظر هناك. إنها نار فظيعة مستعرة: ﴿ **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ . . الناس فيها كالحجارة سواء، فى مهانة الحجارة، وفى رخص الحجارة، وفى قذف الحجارة، دون اعتبار ولا عناية. وما أفظعها نارًا هذه التى توقد بالحجارة! وما أشده عذابًا هذا الذى يجمع إلى شدة اللذع، المهانة والحقارة. وكل ما بها

(١) التحريم: ٦ .

وما يلابسها فظيع رهيب. وعلى المؤمن أن يقى نفسه، وأن يقى أهله من هذه النار». أهـ. بتصرف.

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال: لَـمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ قُرَيْشًا، فاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ: «**يَا بَنِى كَعْبِ بن لُؤَىٍّ، أَنْقذُوا أَنْفُسَكُمْ منَ النَّار. يَا بَنِى مُرَّةَ بْنِ كَعْب، أَنْقذُوا أَنْفُسَكُمْ منَ النَّار. يَا بَنِى عَبْد مَنَاف أَنْقذُوا أَنْفُسَكُمْ منَ النَّار. يَا بَنِى هَاشم، أَنْقذُوا أَنْفُسَكُمْ منَ النَّار. يَا بَنِى عَبْد الْمُطَّلب، أَنْقذُوا أَنْفُسَكُم منَ النَّار، يَا فَاطمَةُ، أَنْقذى نَفْسَك منَ النَّار. فَإِنِّى لاَ أَمْلكُ لَكُمْ منَ الله شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحمًا، سَأَبُلُّهَا ببِلاَلِهَا**»[1].

فهلا أنذرنا نحن أيضًا عشيرتنا الأقربين.

وروى الإمام البخارى - رحمه الله - فى صحيحه عن مَعْقلَ بن يَسَار - رضى اللهُ عنه - أن النبى ﷺ قال: « **مَا منْ عَبْد يَسْتَرْعيه اللهُ رَعيَّةً، فَلَمْ يَحُطها بنُصْحه، لَمْ يَجِدْ رَائحَةَ الجَنَّة** ».

فاللهم أعنا على القيام بهذه الأمانة الثقيلة، والمسئولية الكبيرة.

اللهم بارك لنا فى أهلينا وفى ذريتنا، واجعلهم قرة عين لنا فى الدنيا والآخرة، وارزقنا جميعًا حسن الخاتمة، إنك أنت البَرُّ الرحيم.

رَبِّ اجْعَلنى مُقيمَ الصَّلاة ومن ذُريتَّى، رَبَّنَا وتَقَبَّلْ دُعَاء.

ونقف فى الحديث عن الرفق عند الوصية بالرفق بالأبناء أيضًا، فإن هذا من الدين، وقد قَبَّل النبى ﷺ الحسن بن على - رضى الله عنهما - وعنده

---

(١) (البِلاَلُ): هو الماء. والمقصود: أنى سأصلها. شبه قطيعة الرحم بالحرارة، وَوَصْلَهَا بإطفاء الحرارة بالماء. ومنه: بلوا أرحامكم: أى صلوها.

الأقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، فَقَالَ الأَقْرعُ : إنَّ لى عشرةً من الولد ، ما قَبَّلتُ منهم أحدًا! . فَنَظَرَ إليه رسولُ الله ﷺ فقال: «**مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ**» [(١)] .

قال فى دليل الفالحين: «فنظر إليه رسول الله ﷺ متعجبًا من تلك الغِلظَة، الناشئ عنها عدم الشفقة على الأولاد، الناشئ عنها عدم تقبيلهم وحملهم، وقال: «**مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله**» كما جاء فى بعض الروايات[(٢)] .

نسأل الله أن ينشر الرفق والود والرحمة بين جميع المسلمين.

❊ ❊ ❊

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) دليل الفالحين (٢/ ٧) بتصرف.

أسماء تتعلق بمغفرته تعالى وعفوه

■ **نذكر منها: [الغفور ـ الغفار ـ السِّتِّير ـ العفو ـ التواب]**

ـ **الغفور**: هو سبحانه الذى ستر ذنوب عباده ويعفو عنها مهما عظمت، ما لم تكن شركًا.

ـ **الغفار**: هو سبحانه الذى يستر ذنوب عباده ويعفو عنها مهما كثرت.

ـ **السِّتِّير**: هو سبحانه الذى يحب السِّتْر، ويكثر منه على عباده في الدنيا والآخرة.

ـ **العفو**: هو سبحانه الذى يصفح عمن تاب وأناب ويمحو السيئات.

ـ **التواب**: هو سبحانه الذى ييسر أسباب التوبة لعباده، ويقبلها منهم مرة بعد مرة.

الشرح:

قال العلماء فى الفرق بين الغفور والغفار، إن الغفار مبالغة فى المغفرة بالإضافة إلى مغفرة متكررة مرة بعد مرة. أما الغفور، فمبالغة فى المغفرة بالإضافة إلى كمالها، فهو سبحانه تام الغفران، كامله، حتى يبلغ أقصى درجات المغفرة. وقالوا فى الفرق بين هذين الاسمين وبين اسم العفو، إن الغفر هو الستر، بمعنى التغطية، أما العفو، فهو المحو، أى محو الذنوب والمعاصى هنا، والمحو أبلغ من الستر. فالله جل وعلا عظيم المغفرة والصفح عن عباده، كلما أذنب العبد ذنبًا، واستغفر منه، غفر له، وستر عليه، ولم يفضحه بين الخلق، يقول تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾[1] ويقول سبحانه: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾[2] . فقد عَلِمَ سبحانه ضعف الإنسان، وغلبة الغرائز عليه، وتحكم العادات والبيئات والأهواء والشهوات فيه، وتسلط الشيطان عليه، فيسر له سبيل الخلاص، ولم يؤيسه من رحمته ومغفرته، مهما

---

(١) النساء: ١١٠.   (٢) الزمر : ٥٣.

بلغت معصيته، ما لم تصل إلى درجة الشرك فهذا لا يغفره جل وعلا، كما قال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾[١] .

وهو جل وعلا الذى يعلم سر العبد وجهره، فستر عليه مستقر خواطره المذمومة، وإرادته القبيحة، حتى لا يطلع عليها أحد فيرى ما ينطوى عليه ضميره أحيانـًا من الغش والخيانة وسوء الظن بالناس. وستر عليه ذنوبه فى الدنيا ولم يُطلع عليها أحد، ويغفرها له يوم القيامة، إذا تاب منها وأناب. فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**يُدْنَى المؤمنُ يومَ القيامةِ من ربه حتى يضعَ كَنَفَهُ عليه** ـ أى ستره ورحمته ـ **فَيُقَرِّرُهُ بذنوبه فيقولُ: أتعرفُ ذَنبَ كذَا؟ أتعرفُ ذَنبَ كذَا ؟ فيقولُ: رَبِّ أعرفُ. فيقولُ: فإنى قد سترتُها عليكَ فى الدنيا، وأنا أغفرُها لك اليومَ، فَيُعطى صَحِيفَةَ حسناته**»[٢] . وكل من عصى، فندم ورجع قِبلَهُ جل وعلا، فإذا وقع فى ذنب آخر، وعاد إلي ربه مرة أخرى، رحب به عز وجل، فإن زل بعد ذلك واعتذر، عفا عنه وغفر، ولا يزال الرب غفاراً ، ما دام العبد توابـًا، ما لم يغرغر العبد، فسبحانه الذى يقابل الدعاء بالعطاء، والاعتذار بالمغفرة، والإنابة بالإجابة. يقول تعالى: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[٣] . وعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ عبدًا أصابَ ذنبـًا ـ وربما قال أذنب ذنبـًا ـ فقالَ: ربِّ، أذنبتُ ذَنبـًا ـ وربما قال أصَبْتُ ـ فاغفر لى، فقالَ ربُّهُ: أعَلمَ عبدى أن لهُ ربـًّا يغفرُ الذنبَ، ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدى. ثُمَّ مكثَ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ أصاب ذنبـًا ـ أو قال أذنبَ ذنبـًا ـ فقالَ: ربِّ، أذنبتُ ـ أو أصبتُ ـ آخر، فاغفرهُ لى . فقالَ: أعَلمَ عبدى أن لَهُ ربـًّا يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدى. ثُمَّ مكثَ مَا شاءَ اللهُ، ثُمَّ أذنبَ ذنبـًا ـ أو ربما قالَ: أصابَ ذنبـًا ـ فقال: ربِّ، أصبتُ ـ أو أذنبتُ ـ آخرَ، فاغفرهُ لى. فقالَ: أَعَلمَ عبدى أن لَهُ ربـًّا يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدى ثلاثـًا، فليعملْ ما شَاءَ**»[٤] .

---

(١) النساء : ٤٨ .　　(٢) متفق عليه .　　(٣) النور : ٣١.　　(٤) متفق عليه .

والاستغفار المذكور فى هذا الحديث ليس معناه أن يقول العبد بلسانه: أستغفر الله، وقلبه مصر على المعصية، ولم يعزم عزمًا أكيدًا على الإقلاع عنها، فهذا الاستغفار يحتاج إلى استغفار!! فالمستغفر من الذنب، وهو مقيم عليه، كالمستهزئ بربه. وقد قال **الحافظ ابن حجر** نقلاً عن **الإمام النووى** ـ رحمة الله عليهما ـ:

« وقوله **(اعمل ما شئت)**، معناه: أى ما دمت تذنب فتتوب غفرت لك»[1].

فالمقصود: أنه يذنب الذنب، فيتوب منه، ويقلع عنه، لا أنه يذنب الذنب، ثم يعود إليه نفسه، فإن هذه توبة الكاذبين. وعن أبى موسى الأشعرى ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهارِ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنهارِ ليتوبَ مُسيءُ الليلِ، حتى تَطلُعَ الشمسُ من مَغْرِبها**»[2].

وما ظنك بفرحة رجل مسافر فى الصحراء ومعه بَعيره يحمل عليه طعامه وشرابه، ففقد هذا البعير، وضل عنه، حتى إذا يئس من أن يجده، جلس تحت ظل شجرة، فبينما هو جالس هكذا، إذا ببعيره هذا أمامه، وعليه طعامه وشرابه، فما ظنك بفرحته حينئذ؟ إنها فرحة عظيمة ولا شك، فاعلم أن الله عز وجل يفرح بتوبة عبده فرحًا أعظم من فرح هذا الرجل، كما قال ﷺ: «**للهُ أفرحُ بتوبةِ عبدهِ من أحدِكُمْ، سقطَ على بَعيرِهِ، وقد أضَلَّهُ فِي أرضٍ فلاة**»[3].

ونُذَكِّر أن التوبة ليست كلمة تقال فحسب، إنما هى عزيمة فى القلب، يظهر أثرها فى السلوك العملى، بالإيمان والعمل الصالح، وحينئذ تكون المغفرة ويكون العفو، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ** ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ**

(١) فتح البارى (١٣/ ٤٨٠).
(٢) رواه مسلم.
(٣) متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه.
(٤) طه: ٨٢.

مَتَابًا (٧١) ﴾[1] . وقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] . وقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾[3] .

إن أبواب التوبة والمغفرة مفتوحة دائمًا أمام كل مذنب وعاصٍ أيًّا كان، وأيًّا ما ارتكب من الآثام ، لا تُغلق أبدًا فى وجه من قصدها . بل لقد تفضل الله ـ عز وجل ـ وجعل التوبة حقًّا عليه لعباده، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ﴾. ولكن هذه التوبة التى يقبلها تعالى، والتى تَفَضَّلَ فكتب على نفسه قبولها، هى كما بين سبحانه فى الآيات السابقة، التوبة التى يكون معها ندم وإقلاع، وإنابة وتوجه إلى الله، وإلى ما يرضى الله. هذا كله ما دام العبد فى فسحة من العمر، ولم يأت الموت بعد، ولم يدخل فى سكراته، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ أى من قبل أن يتبين لهم الموت، ويقفوا على عتباته. فهناك من غرته وألهته أمانى المغفرة حتى خرج من الدنيا ولا حسنة له، وقال: إنى أحسن الظن بالله، وهو كاذب فى ذلك، فلو أحسن الظن لأحسن العمل. والاستغفار باللسان ، دون الأفعال ، فعل الكاذبين.

والعفو تبارك وتعالى يحب من عبده أن يعفو عمن أساء إليه، بل يحسن إليه، ويدعو له، وإن اعتذر إليه امرؤٌ قبل اعتذاره، وعامله بالإحسان ، ثم لا يمن على أحد بإحسانه هذا، قال تعالى: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا

---

(١) الفرقان : ٧٠، ٧١.

(٢) النحل : ١١٩.

(٣) النساء : ١٧، ١٨.

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾[١] . فالمعاملة بالحسنى لمن أساء إليك تحوله من العداوة والهياج إلي الود والهدوء غير أن هذه المعاملة الحسنة تحتاج إلى قلب كبير، يسامح، وهو قادر على الإساءة والرد، وهذه القدرة ضرورية، حتى لا يظن من أمامك أن هذه المعاملة الحسنة ضَعْفٌ، فهو لو أحس بذلك لم يحترمها، ولن يكون لهذه المعاملة الحسنة أى أثر حينئذ.

وهذا المقام، مقام رد السيئة بالحسنة، والاستعلاء على غيظ النفس وغضبها، واندفاعها نحو الثأر، ورد الإساءة بالإساءة، مقام عظيم، لا يصل إليه كل إنسان، فهو فى حاجة إلى الصبر، وهو عطاء من الله يتفضل به على عباده الذين يحاولون فيستحقون، ولذلك يقول تعالى عن هذا المقام وهذه المنزلة : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

ولأن النفس البشرية قد تثور أحيانـًا لنفسها وتغضب، فينشأ عن ذلك قلة الصبر على الإساءة وضيق الصدر عن المعاملة الحسنة، جعل الله عز وجل الوقاية من ذلك فى الاستعاذة من الشيطان الرجيم، كما قال سبحانه فى الآية التى تلى هاتين الآيتين : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[٢] .

ومن صور العفو الجميلة، ما حدث عندما آذى المشركون النبى ﷺ أذى شديدًا، فجلس مهمومـًا فجاءه مَلَكُ الجبال وقال له: إن شئت أطبقت عليهم الأَخْشَبَيْنِ ـ أى الجبلين المحيطين بمكة ـ فأبى النبى ﷺ أن ينتصر لنفسه، وقال: «بَلْ أَرْجُو أن يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِم من يَعْبُدُ اللهَ وَحدَهْ لا يُشرِكُ به شَـيْئًا» [٣] .

وأيضًا ما جاء فى عفو الصديق أبى بكر ـ رضي الله عنه ـ عن قريبه مِسْطَحِ بنِ أُثَاثَةٍ، وكان مسطح قد خاض مع الخائضين فى أمر الإفك، وتكلم عن أم المؤمنين،

---

(١) فصلت : ٣٤، ٣٥.
(٢) فصلت : ٣٦.
(٣) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها.

السيدة عائشة - رضى الله عنها - التى تروي القصة فتقول: «**فَلَمَّا أنزلَ اللهُ فِى براءَتى قالَ أبو بكر الصديق** - رضي الله عنه - **وكانَ يُنفقُ على مِسْطَح بن أُثَاثَة لِقَرابَته منهُ وفَقْره: والله لا أُنفقُ على مسطحٍ شيئًا أبدًا بعدَ الذى قَال لعائشة مَا قال، فأنزل الله:** ﴿ **وَلا يَأْتَلِ** [١] **أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[٢]. قال أبو بكر: بلى والله إنى أحبُّ أن يغفرَ الله لى. فرجعَ إلى النفقة التى كانَ يُنفقُ عليه، وقالَ: والله لا أنزعُها منهُ أبدًا [٣] . فبعد ما أنزل الله تعالى براءة أم المؤمنين، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه، أنزل الله عز وجل هذه الآية الجميلة، والتى فيها توجيه جميل للمسلمين وحث للصديق - رضي الله عنه - على أن يعفو عن مسطح، والذى كان مسكينًا لا مال له، ويعيد له ما كان يصله به من النفقة، فاستجاب الصديق على الفور، وعفا عنه، رغم ما بدر منه في حق ابنته، - رضى الله عنها -. وانظر إلى هذا القول الندى: ﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ والذى يرتجف له قلب المؤمن من فرط تأثيره.

وقد أذن الله - عز وجل - للعبد أن يأخذ حقه ممن أساء إليه، فشرع سبحانه العدل، وهو القصاص، وندب إلى الفضل، وهو العفو، كما قال سبحانه: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)** ﴾[٤] فالعفو هو المستحب، ابتغاء أجر الله

---

(١) أى : ولا يُقسم ، أو يَحْلِف .

(٢) النور : ٢٢.

(٣) رواه البخارى .

(٤) الشورى: ٤١ - ٤٣ .

تعالى، والذى لا يزيد عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وتهذيبـًا للنفس من الغيظ والغضب وشهوة الانتقام، وقد قال سبحانه فى وصف عباده المؤمنين : ﴿ **وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ** ﴾[1] ، وتهذيبـًا للعلاقة بين المسلمين من الغل والأحقاد .

والسِّتِّير سبحانه يحب من عبده أن يستر على إخوانه إذا وقع على شىء منهم مستقبح، فلا يُفْشِيه ولا يحدث به، قال النبى ﷺ: « **لا يَسْتُرُ عبدٌ عبدًا فِى الدنيا، إلا سَترهُ اللهُ يَومَ القيامَة** » [2] .

وأن يستر على نفسه أولا، فإذا وقع فى معصية فليستح منها، ولا يحدث بها . عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « **كُلُّ أُمَّتِى مُعَافًى إلا المجاهرينَ، وإن من المجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملاً، ثُمَّ يصبحُ وقد ستره اللهُ عليهِ، فيقولُ : يا فلانُ عَمِلتُ البارحة كذا وكذا، وقد بَاتَ يستُرهُ رَبُّهُ ، ويصبحُ يكشفُ سِتْرَ الله** » [3] .

سترنا اللهُ تعالى جميعًا، فى الدنيا والآخرة.

* * *

---

(١) الشورى : ٣٧ .

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) متفق عليه.

أسماء تتعلق بكرمه تعالى العظيم

■ نذكر منها : [الكريم ــ الأكرم ـ الجواد ـ الوهاب ـ المعطى ـ المنان ـ الشاكر ـ الشكور ـ الحَيِى]

ـ **الكريم:** هو سبحانه العظيم الجود والعطاء، العظيم العفو والمغفرة.

ـ **الأكرم:** هو سبحانه الذى لا يوازيه كريم، ولا يعادله فى الكرم نظير.

ـ **الجواد:** هو سبحانه الكثير العطايا.

ـ **الوهاب:** هو سبحانه الكثير العطايا والمنن ، الذى لا يوازيه كريم، ولا يعادله فى الكرم نظير.

ـ **المعطى:** هو سبحانه الذى يعطى من يشاء من خلقه ما يشاء من النعم.

ـ **المنان:** هو سبحانه الغامر عباده بعظيم العطايا.

ـ **الشاكر:** هو سبحانه المثنى على عباده المطيعين، والمجازى لهم على طاعتهم الجزاء الأوفى.

ـ **الشكور:** هو سبحانه الذى يعطى الثواب العظيم على العمل القليل .

ـ **الحَيِىُّ:** هو سبحانه الذى يستحى أن يخذل عباده المؤمنين.

الشرح:

إن الله ـ عز وجل ـ هو صاحب الكرم المطلق، الذى غمر عباده بجوده العظيم، وبفضله العميم، وأفاض عليهم بعظيم النعمة التى لا حصر لها، كما قال سبحانه : ﴿ **وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ [1] . ولكن الناس تنسى، وتعمى عن هذه النعم، فيذكرهم سبحانه بها، وأنه هو وحده الخالق الرازق، فيقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ**

---

(١) إبراهيم : ٣٤.

اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[١] . ويقول سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ** ﴾[٢] . سبحانه الذى يعطى عباده ويمن عليهم بالعطايا والمنن، من غير سؤال منهم ولا طلب، وهو الذى إذا أعطى زاد عطاءه على منتهى الرجاء، فهو سبحانه لا يبالى كم أعطى، فعنده خزائن السموات والأرض التى لا تنفد أبدًا، فيداه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء .

ومن كـرمه تعالى أن باب مغفرته وتوبته مفتوح دائمـًا أمام العصاة، مهما ارتكبوا من المعاصى والآثام، ومن الآيات التى يظهر فيها هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾[٣] ، قال **الحسن البصرى** ـ رحمه الله ـ فى هذه الآية: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو سبحانه يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. ومن كرمه تعالى أنه يجازى عباده على السيئة بمثلها، أما الحسنة فبعشر أمثالها أو يزيد، كما جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل، قال : « **إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ . فَمَنْ هَمَّ بحسنة ، فلم يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عندهُ حَسَنَةً كَامِلَةً . فإذا هو هَمَّ بها فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عندهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إلى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ ، إلى أَضْعَافٍ كثيرة ، وَمَنْ هَمَّ بسيئة فلم يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عندهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فإنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَهَا ، كَتَبَهَا اللهُ سيئةً واحدةً**»[٤] .

فأى حساب هذا، وأى أجر عظيم هذا، إلا أن يكون من لدن غنى كريم.

وبعد هذا الحساب الكريم ، فإنه حقًّا : « **لا يَهْلِكُ على الله إلاَّ هَالِكٌ** » .

---

(١) فاطر : ٣ .
(٢) يونس : ٦٠ .
(٣) البروج : ١٠.
(٤) متفق عليه .

* وهنا مسألة مهمة نود الإشارة إليها: ففى هذا الحديث السابق نجد أن إرادة العبد للعمل مع عدم فعله، لا يحصل بها عقاب، وهذا المعنى نجده أيضًا فى الحديث الذى جاء عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ قال: « **إنَّ اللهَ تَجاوز لأمتى عَمَّا حَدَّثَتْ به أنْـفُسَها، مَا لَمْ تتكلمْ بهِ أو تعملْ به**»[1] . ولكن جاء فى أحاديث أخرى أن العبد مؤاخذ على إرادته وهمه، سواء فعل أم لم يفعل هذه المعصية، فعن أبى بكرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فقتل أحَدُهُما صاحبَهُ، فالقاتلُ والمقتولُ فى النارِ**». قيل: يا رسول الله هذا القاتلُ فما بال المقتولِ؟ قال: « **إنه كان حريصًا على قَتل صاحبه**»[2]. وعن أبى كبشة الأنمارى - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «**ثَلاثٌ أقسمُ عليهنَّ، وأُحَدِّثُكُمْ حديثـًا فاحفظوهُ، قال: ما نَقُصَ مالُ عبد من صدقة، ولا ظُلِمَ عبدٌ مَظلمَةً، صَبَرَ عليها، إلا زادهُ اللهُ عِزًّا، ولا فتح عَبْدٌ بابَ مسألةٍ إلَّا فتح اللهُ عليه بابَ فقرٍ**، أو كلمة نحوها. وقال: وأحدثكم حديثًا فاحفظوهُ: **إنما الدنيا لأربعة نفرٍ: عبدٍ رزقهُ اللهُ مالاً وعلمـًا، فهو يتقى فيه ربَّهُ، ويصلُ فيه رحمَهُ، ويعلمُ لله فيه حقـًّا، فهذا بأفضلِ المنازل. وعبد رزقهُ اللهُ علمًا، ولم يرزقه مالاً، فهو صادقُ النية، يقولُ: لو أن لى مالاً لعملتُ بعملِ فلانٍ، فهو بنيته، فأجرُهُمَا سواء. وعبد رزقَهُ اللهُ مالاً ولم يرزقه علمـًا، فهو يَخبِطُ فىَ ماله بغيرعلمٍ ، لا يتقى فيه ربَّه ولَا يصلُ فيهِ رحمَهُ، ولا يعلمُ لله فيه حقـًّا، فهذا بأخبثِ المنازلِ. وعبدٍ لم يرزقه اللهُ مالاً ولا علمًا فهو يقولُ : لو أنَّ لى مالاً لعملتُ فيهِ بعملِ فلانٍ فهو بنيته فوزرُهُما سواء**»[3] .

والفصل فى هذه المسألة كما قال العلماء: هو أن الهَمَّ هَمَّان: هم ليس معه عزيمة وإرادة جازمة، فهو مجرد خاطرة، فلا يقترن بشىء من الأعمال الظاهرة، فهذا لا عقوبة فيه بحال. وهم معه إرادة جازمة وإصرار وتصميم على الفعل متى

(١)، (٢) متفق عليهما.

(٣) رواه أحمد والترمذى ، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع / ٣٠٢٤) .

قدر على ذلك، وهو يقترن ببعض الأعمال الظاهرة، ولو بنظرة، أو حركة رأس، أو لفظة، أو خطوة، أو تحريك بدن، فهذا يؤاخذ عليه العبد. ولهذا فإن المقتول في الحديث السابق، أراد قتل صاحبه، فعمل ما يقدر عليه من القتال، ولكنه عجز عن الوصول لمراده، فهذا يؤاخذ كما لو كان حقق مراده. وكذلك الذي يتمنى المال لينفقه في المعاصي كما في حديث أبي كبشة السابق، فهو عازم على ذلك ولكن لا يمنعه سوى عدم القدرة، فهذا أيضًا يؤاخذ على نيته هذه، وتكتب عليه هذه المعاصي كلها، مع أنه لم يعملها، أعاذنا الله جميعًا من فساد النية.

وفي حديث أبي كبشة الأنماري السابق بشرى عظيمة لكل عبد مخلص في نيته، صادق فيها، وليس عنده من المال أو الإمكانيات ما يسخره لوجه الله تعالى، فهو يستطيع بضبط نيته وصدقه وإخلاصه فيها، أن ينال من الأجر و الثواب تمامًا مثل أصحاب الأموال الكثيرة ، وأصحاب الإمكانيات العالية، الذين يسخرونها لوجه الله تعالى.

وهذا يدلك على عظيم كرمه تعالى ، وعظيم بره بخلقه.

والله - جل وعلا - عندما يهب عباده من نعمه وعطاياه، إنما يفعل ذلك سبحانه دون انتظار عوض منهم أو مقابل، وبدون غرض منه سبحانه، عاجل أو آجل، كما قال سبحانه عن خلقه من الإنس والجن: ﴿ **مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)** ﴾[١] .

وهو تعالى الكريم الحق، فليس لكرمه وجوده حدود، ولا يناظره في الكرم كريم. ومن مظاهر كرمه تعالى، ثناؤه الجليل في كتابه على عباده المطيعين، وإعطائهم الأجر العظيم، على ما قدموه من عمل، مهما كان قليلاً، كما قال سبحانه: ﴿ **لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾[٢] ، وقال: ﴿ **وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾[٣] . وعن أبي هريرة

(١) الذاريات : ٥٧، ٥٨.   (٢) فاطر : ٣٠.

(٣) الشورى : ٢٣ .

ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « **مَنْ تَصَدَّقَ بعَدل تَمْرَة، منْ كَسْب طَيِّب، وَلا يَقْبَلُ اللهُ إلا الطيبَ، فإنَّ اللهَ يَقْبَلُها بيمينه، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يُرَبِّى أحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تكون مِثْلَ الجَبَلِ** » (١).

ومعنى (بعدل تمرة): أى بقيمتها. و(الفلو): هو المُهْرُ، وهو ولد الفرس.

والمؤمن لا بد وأن يقابل هذا الجود والكرم، وهذه النعم التى ينعم بها الله عليه، بالشكر لله، وشكر الله لا يكون باللسان فحسب، بل هو بالقلب واللسان والجوارح: أما بالقلب، فبالإيمان أن هذه النعم كلها من عند الله تعالى وحده، ومحبته سبحانه، والعزم على شكرها. وأما باللسان، فذلك يكون بإظهار الشكر لله تعالى، بالثناء والحمد، والتحدث بهذه النعم. وأما الجوارح، فيكون باستعمال هذه النعم فى طاعة الله تعالى، وعدم الاستعانة بها على المعصية.

وهذا درس جميل لنا من رسول الله ﷺ يبين لنا فيه حقيقة الشكر، وأنه ليس مجرد كلمات تقال باللسان فحسب، فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: كان النبى ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفَلا أكُونُ عَبْداً شَكُوراً**»(٢).

قال الإمام **ابن القيم** ـ رحمه الله:

« إن منزلة الشكر من أعلى المنازل، والإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر، وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، وجعله غاية خلقه وأمره، قال تعالى: ﴿ **وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾(٣)، وأهله هم القليل من عباده: ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾(٤)، وقلة أهله فى العالمين تدل على أنهم هم خواصه. وغاية الخلق والأمر، أن يُذْكَرَ وأن يُشْكَرَ، يُذْكر فلا يُنْسَى،

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) البقرة: ١٧٢.
(٤) سبأ: ١٣.

ويُشْكر فلا يُكْفَر، وذكره مستلزم لمعرفته وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التى خُلق من أجلها الجن والإنس، والسموات والأرض »[1] .

وقال أيضًا فى نفس المصدر والمكان السابقين : «وتكلم الناس فى الفرق بين **(الحمد والشكر)** أيهما أعلى وأفضل؟

والفرق بينهما : أن **(الشكر)** أعم من وجهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، و **(الحمد)** أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافًا، وبالجوارح طاعة وانقيادًا، ومتعلقه النعم، دون الأوصاف الذاتية، فلا يُقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها، كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد، يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح، والحمد يقع بالقلب واللسان». أ هـ . وقد مضى نحو هذا عند اسم (الحميد) عز وجل.

وأقل ما يستوجبه المُنْعِم بنعمته وأقل ما يُشكر به، أن لا يتوصل بها إلى معصيته، وما أقبح حال من جعل نعمة المُنْعِم، سلاحًا على عصيانه، فمن فرض الشكر على العبد أن يكون له من تعظيم الله سبحانه ما يحول بينه وبين معاصيه .

ومن شكر الله تعالى أيضًا، أن يشكر العبد الناس، على ما يقدمونه له من معروف، فعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « **لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ**»[2] .

ومن الآثار الجميلة للشكر: حصول الزيادة فى النعمة، فإن العبد إذا شكر نعمة

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٧) .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع/ ٧٧١٩) وفي (الصحيحة/ ٤١٦).

ربه عليه، زاده سبحانه من نعمه، كما قال تعالى: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾[1].

ولا تنسى عداوة الشيطان، وتحديه لبنى آدم، حين قال لربه: ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)** ﴾[2] ، فهو يجتهد دائما أن لا تكون من الشاكرين، فهل ستكون كما يُريد ؟ ! .

* وهنا سؤال قد يخطر على بعض الأذهان، ألا وهو : كيف يكرم الله تعالى أهل الكفر، وينعم عليهم بكل هذه النعم التى نراها عليهم اليوم، ويمكنهم هذا التمكين الذى هم عليه اليوم، وهم أهل كفر، لا يعرفون قدر النعمة، ولا يقومون بحق شكرها، ولماذا لم يلحقهم التدمير، الذى وعد الله به الكافرين؟

وللإجابة على هذا السؤال، هناك عدة نقاط لا بد من بيانها وفهمها:

* **أولاً**: إن الله تعالى قَدَّر أن يكون العطاء فى الدنيا لمن أراده، وسعى إليه، وأخذ بأسباب تحقيقه، كما قال سبحانه: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)** ﴾[3] . وإذا علمنا حقيقة الحياة الدنيا، وأنها لعب ولهو، وأنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة، وأنها أحقر من جيفة هذا الجدى الميت المَعيب، الذى أمسكه النبى ﷺ وأراه للصحابة، وقال لهم: «**والله للدُّنيا أهونُ على الله منْ هَذَا عليكُمْ**» [4] ، وإذا علمنا حقيقة الآخرة، وأنها دار الخلود ، ودار النعيم المطلق، إذا علمنا هذا كله لعلمنا أن أهل الدنيا فى الحقيقة لم يؤتوا شيئًا، وأن كل هذا المتاع الذى عندهم، هو متاع تافه زائل، لا يساوى شيئًا، ولذا قال تعالى: ﴿ **لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ**

---

(١) إبراهيم : ٧.
(٢) الأعراف : ١٦، ١٧ .
(٣) هود : ١٥، ١٦.
(٤) رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه وقد تقدم ذكره كاملاً.

(١٩٦) **مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)** ﴾[١] فكل هذا المتاع الذى نراه عندهم، هو متاع قليل حقير، ولكن الذين ينظرون إلى الدنيا بعين الإكبار والتعظيم، ولا يعلمون حقيقتها، ينظرون إلى هذا المتاع بعين التعظيم أيضًا.

* **ثانيًا**: إن العطاء والتمكين فى الأرض نوعان: عطاء وتمكين **رضا**، وعطاء وتمكين **استدراج**. فالأول يكون لعباد الله المؤمنين، ما داموا على طريق الحق الذى يرضاه لهم ربهم، فأما إذا حادوا عن هذا الطريق، زال عنهم هذا العطاء وهذا التمكين، حتى يعودوا إلى طريق الله الحق مرة أخرى، وهذا العطاء هو الذى ذكره تعالى فى قوله: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾[٢].

أما العطاء والتمكين الثانى فهو لأهل الدنيا وأهل الكفر، وهو عطاء مؤقت، ينتهى بالدمار، والعذاب فى الآخرة، وهذا العطاء هو الذى ذكره تعالى فى قوله: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾[٣]. وفى قوله: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾[٤]. وفى قوله: ﴿**فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)**﴾[٥]. وفى قوله: ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾[٦].

ولاحظ فى آية سورة الحج السابقة أن الأخذ جاء مع (ثم) وهى تفيد التراخى، أى أن الإملاء للكافرين قد يطول بعض الشىء، وطول هذا الإملاء ليس خيرًا

---

(١) آل عمران: ١٩٦، ١٩٧.
(٢) النور: ٥٥.
(٣) الأنعام: ٤٤.
(٤) الحج: ٤٨.
(٥) القلم: ٤٤، ٤٥.
(٦) آل عمران: ١٧٨.

للكافرين، كما قد يظنوا، بل هو استدراج لهم، ليزدادو ــ والعياذ بالله ــ من الأوزار والآثام، كما بين سبحانه. وهذا التمكين ، وهذا الفتح على الكافرين، لا يصاحبه أبدًا شيئان: البركة والطمأنينة، فالله ـ عز وجل ـ لا يبارك أبدًا لكافر، وقلوب العباد لا تطمئن أبدًا إلا بذكر ربها والإنابة إليه. وأهل الكفر، رغم أن الله فتح عليهم من أبواب كل شىء، إذا نظرت إلى حالهم . . ماذا وجدت؟ وجدت الانحلال الخلقى التام، والسعار الجنسى الذى لا يهدأ، والشذوذ الجنسى المقزز الحقير، الذى تعافه الحيوانات، ووجدت إدمان المخدرات وإدمان الخمر، ووجدت حالات الانتحار، والاكتئاب النفسى العديدة، ووجدت هذا السلوك الشيطانى الهيستيرى للرقص فى الحانات والملاهى، ووجدت التفسخ الأُسَرِى، ووجدت غير ذلك الكثير مما يدلك على ذهاب البركة من حياة أولئك الناس، وعدم وجود الطمأنينة فى قلوبهم.

* **ثالثًا**: إن هذا التمكين يكون بسبب عدم وجود أهل الإيمان الحق، الذين يستحقون عطاء الله تعالى وتمكينه فى الأرض، لأنه سبحانه حدد القاعدة فى كتابه: ﴿ **وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[1] . فطالما أن العلو فى الأرض اليوم ليس للمسلمين، إذن فهذا يدل على وجود جوانب نقص فى إيمانهم، فلا بد من الاجتهاد والسعى أولاً لإكمالها ومعالجتها، قبل أى شىء آخر.

فإذا جمعت هذه النقاط السابقة، كان فيها ـ باختصار ــ الإجابة على هذا السؤال السابق[2] .

وبالنسبة لحياء الرب جل وعلا، فهو أمر لا تدركه العقول ، ولا تكيفه الأفهام، والذى يمكن قوله أنه حياء كرم وبر وجود وجلال، لايصل إلى كنهه أحد.

أما الحياء بالنسبة للخلق، فهو خُلُق يبعث على ترك كل ما تأنفه النفوس الزكية، وقد اختص الله تعالى به الإنسان ليرتدع به عما تنزع إليه شهوته من القبائح، كى لا يكون كالبهيمة التى تهجم على ما تشتهى دون حياء. وأهل الحياء

---

(١) آل عمران : ١٣٩ .

(٢) انظر كتاب رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر للأستاذ محمد قطب .

هم الذين يستحون من الله - عز وجل - أن يراهم على معصية، لا كما يفعل أصحاب الإيمان الضعيف الذين يستحون من الناس، ولا يستحون من رب الناس جلا وعلا!.

قال سفيان بن عيينة - رحمه الله -: « وهل دخل أهل التقوى فى التقوى إلا من الحياء ؟».

وقال بعض الشعراء:

وَرُبَّ قَبيحَةٍ مَا حَالَ بَيْنى وبَيْنَ رُكُوبهَا إلا الحَيَاءُ
فَكَانَ هُوَ الدواءَ لَهَا ، ولَكِنْ إذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ فَلا دَوَاءُ

والحياء قد يكون فطريًّا غريزيًّا، وقد يكون مكتسبًا، والحياء المكتسب يكون من معرفة الله - عز وجل - واستحضار قربه من عباده، وإحاطته بهم، وعلمه خائنة الأعين، وما تخفى الصدور، فهذا هو الحياء الإيمانى الذى يمنع المؤمن من ارتكاب المعاصى خوفًا من الله عز وجل. وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار، وهو يعظ أخاه فى الحياء، فقال له رسول الله ﷺ: «**دَعْهُ إنَّ الحياءَ مِنَ الإيمَانِ**»[1] ، والمعنى: أى اتركه على هذا الخلق الطيب الذى يحبه الله تعالى لعباده، ثم زاده ترغيبًا فيه بقوله ﷺ: « **إنه من الإيمان**». وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «**إنَّ موسى كَانَ رَجُلاً حَيِيًّا سِتِّيرًا ، لا يُرى مِنْ جلده شىءٌ، استحياءً منْهُ**» [2] .

والذى يستغل حياء العباد ويأخذ منهم ما لا يرضون، فهو من الآثمين، وقد قال العلماء: «أخذ المال بحد الحياء، كأخذه بحد السيف»، ويؤيد هذا القول قوله ﷺ: « **لا يَحِلُّ مالُ امرئٍ مُسلمٍ ، إلا بطيبِ نَفْسٍ منْهُ**»[3] .

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه البخارى .

(٣) رواه أحمد وغيره من حديث أبى حميد الساعدى رضى الله عنه وصحابة آخرين وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع / ٧٦٦٢) ، وفى (الإرواء/ ١٤٥٩).

أسماء تتعلق باطلاعه تعالى على خلقه وقربه منهم

■ **نذكر منها : [السميع ـ البصير ـ الشهيد ـ الرقيب ـ القريب ـ الباطن]**

ـ **السميع**: هو سبحانه الذى لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفى.

ـ **البصير**: هو سبحانه الذى لا يعزب عن إدراكه مرئى وإن خفى.

ـ **الشهيد**: هو سبحانه المطلع على خلقه، الذى لا يعزب عنه شىء من أمرهم.

ـ **الرقيب**: هو سبحانه الذى لا يغفل عن خلقه طرفة عين، والذى لا يعزب عنه شىء من أمرهم.

ـ **القريب**: هو سبحانه الأقرب إلى كل شىء من نفسه.

ـ **الباطن**: هو سبحانه الأقرب إلى كل شىء من نفسه، المطلع على بواطن الأمور.

الشرح:

إن الله ـ عز وجل ـ يدرك جميع الأصوات، مهما تكن أوصافها، فسبحانه الذى يسمع دبيب النملة ولو فى باطن الجبل، ويسمع كل ذبذبة فى الوجود، استطاع الإنسان اكتشافها، أم عجز عن ذلك، سبحانه الذى يسمع كل مسموع فى الوجود، من غير واسطة ولا معين. وهو سبحانه الذى يرى كل شىء فى هذا الوجود مهما خفى ودق، يرى ما يمكن للإنسان أن يراه، وما لا يمكن له أن يراه، قال سبحانه: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩)** ﴾[1] .
فسبحانه الذى يبصر كل مرئى فى الوجود، من غير واسطة ولا معين. والله ـ جل وعلا ـ الذى أحاط سمعه بكل المسموعات، وأحاط بصره بكل المبصرات ، أحاط أيضًا علمه بكل المعلومات، فهو سبحانه الذى لا يغيب عن شهوده مثقال ذرة فى السموات والأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن**

---

(١) الحاقة : ٣٨، ٣٩.

قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[1] . وقال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[2] . فكل شئون المرء ، وكل أعمال الخلق، وكل ما فى البر والبحر والسماء، وحتى كل ورقة تسقط من على غصنها، وكل حبة مَخْبوءة فى ظلمات الأرض، وكل رطب ويابس فى هذا الكون، وكل ذرة فى الوجود، كل هذا وغيره، لا يغيب منه شىء، عن علم الله تعالى المحيط بكل شىء. فسبحانه الرقيب المحيط لكل صغير وكبير فى ملكه، الذى لا يغفل ولا ينام ولا تأخذه سنة ولا نوم. وهو سبحانه قريب من عبده، محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفسه من الخير والشر. عن أبى موسى الأشعرى ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا، فقال النبى ﷺ: «**يا أيها الناسُ اربَعُوا على أنفسِكُمْ ، فإنكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائبًا. إنَّهُ معكُمْ، إنهُ سميعٌ قريبٌ**»[3] . وفى رواية: «**والذى تَدْعُونَهُ أقْربُ إلى أحدِكُمْ من عُنقِ راحلَته**»[4] ، فسبحان الله الذى هو أقرب إلى كل شىء من نفسه، فلا يخفى عليه شىء مهما دق وخفى.

وبالنسبة لاسم (الشهيد) قال بعض العلماء : يرجع معناه إلى (العليم) مع خصوص إضافة ، فإنه تعالى عالم الغيب والشهادة ، والغيب عبارة عما بطن ، والشهادة عما ظهر ، وهو الذى يُشاهد .

فإذا اعتبر العلم مطلقـًا ، فهو (العليم) .

وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة ، فهو (الخبير) .

وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة ، فهو (الشهيد) .

---

(١) يونس : ٦١.   (٢) الأنعام : ٥٩،

(٣)، (٤) متفق عليهما

تنبيه:

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾[1] .

فهذا أمر من الله عز وجل لرسوله ﷺ أن يسأل المشركين: أى شىء فى هذا الوجود كله هو أكبر شهادة؟ الذى تعلو شهادته كل شهادة؟ وتحسم شهادته كل قضية؟ الذى لا يبقى بعد شهادته شهادة؟ وكما أمر ﷺ بتوجيه هذا السؤال أمره بتوجيه الإجابة عليه : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ . فالله ـ جل وعلا ـ هو أكبر شهادة، الذى لا شهادة بعد شهادته، ولا قول بعد قوله. والذى نريد أن ننبه عليه هنا، هو أنه يجوز أن يُطلق على الله عز وجل لفظة : (شىء)؛ لأنه سبحانه وتعالى أطلق على نفسه ذلك فى هذه الآية.

وطالما أن الله تعالى رقيب ومطلع علينا فى كل حين، فلا بد إذن من مراقبة للخواطر والأفكار، وللأقوال والأفعال. ومبدأ كل أمر هو الخواطر، ولذا وجب مراقبة كل خاطرة ترد على العقل، وقطعها فى الحال إن كانت خاطرة سوء، وعدم التمادى معها، فإن الخاطرة إذا أُهْمِلَت تحولت إلى شهوة، والشهوة إذا لم تجاهدها، صارت همة وعزيمة، فإذا لم تدافع هذه الهمة، صارت فعلاً، فإذا لم تتدارك هذا الفعل بالندم والإقلاع والتوبة والاستغفار، صار عادة، وحينئذ يصعب عليك الانتقال عنها. أما مراقبة الأقوال، فهو من أهم الأمور وأدقها، فإن كثيرًا لا يبالون بذلك، مع أن هلاكهم قد يكون فى كلمة واحدة تخرج منهم، كما قال النبى ﷺ: «**إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمةِ، ما يتبينُ فيها، يزلُّ بها إلى النارِ أبعدَ ممَّا بينَ المشرقِ والمغربِ**»[2]، ومعنى يتبين فيها: أى يفكر وينظر فيها: هل هى خير أم لا.

وقد قال ﷺ لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: « **وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ فِى النارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إلا حَصَائدُ ألسنَتِهِم** » [3] ، أى وهل يسقط الناس فى النار إلا بسبب

(١) الأنعام : ١٩ .

(٢) متفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) رواه الترمذى والحاكم وصححه الألبانى فى الصحيحة (٣/ ١١٢٢).

ما يصدر عن ألسنتهم من أقوال. وهذا القول يستحق الوقوف أمامه كثيرًا. وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: « **كانَ رجلانِ فى بَنى إسرائيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، وكانَ أحَدُهُمَا مذنبًا، والآخرُ مجتهدًا فى العبادة، وكان لا يزالُ المجتهدُ يرى الآخرَ على الذنب، فيقولُ: أَقْصِرْ. فوجدهُ يومًا على ذنب فقالَ لهُ: أقْصِرْ. فقال: خَلِّنى وربِّى، أَبُعِثْتَ علىَّ رقيبًا؟! فَقَالَ: والله لا يغفرُ اللهُ لَكَ، أو: لا يُدْخِلُكَ اللهُ الجنةَ، فقبض رُوحَهما، فاجتمعا عندَ رب العالمين، فقالَ لهذا المجتهد: أكُنتَ بِى عَالمـًا؟ أو كُنتَ على ما فِى يدى قادرًا؟ وقالَ للمذنب: اذهبْ فادخل الجنةَ برحمتى، وقال للآخَرِ: اذْهبُوا به إلى النَّار**». قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: «والذى نفسى بيده، لقد تكلم بكلمة أوبقت - أى أهلكت - دنياه وآخرته » [١] .

نعوذ بالله من الزلل ، فى القول والعمل .

والقاعدة التى وضعها الشرع عند الكلام هى: قوله ﷺ :

«**مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، فليقُلْ خيرًا، أو لِيَصْمُتْ**» [٢] .

قال **الإمام النووى** - رحمه الله - :

« اعلم أنه ينبغى لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلامًا ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة، فالسنة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير فى العادة، والسلامة لا يعدلها شىء». أهـ [٣] .

ومراقبة الأقوال أمر هام للحفاظ على المودة وذات البين بين المسلمين؛ لأن كلمة واحدة، قد يتلقفها الشيطان من على اللسان، ويوقع بها العداوة والبغضاء بين

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٥٥) .

(٢) متفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) رياض الصالحين/ ٤٨٣ .

اثنين منهم، ولذا قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[1] . فالشيطان ينزغ بين الناس، بالكلمة الخشنة التى قد تفلت من أحدهما، وبالرد السيئ الذى يتلوها، ومراقبة المرء لأقواله، ، واختياره أحسن الأقوال مع إخوانه، يغلق عليه هذا الباب، ويجمع بين المسلمين على الود والوئام.

ومن آفات اللسان أن يأتى الرجل أحدًا من الناس فيثنى عليه، فإذا خرج من عنده ذمه، وهذا الأمر من خصال المنافقين، ويُسمى فاعله بذى الوجهين، جاء عن محمد بن زيد: « أنَّ ناسًا قَالُوا لِجَدِّه عَبْدِ الله بن عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - إنَّا نَدْخُلُ عَلَى سَلاطِينِنَا فَنَقُولُ لَهُمْ بِخِلافِ مَا نَتَكَلَّمُ إذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ، قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ»[2] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أن النبى ﷺ قال: «.. **وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذا الوَجْهَيْنِ، الَّذِى يَأْتِى هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ**».

وهذه الآفة كثيرًا ما تنتشر فى أماكن الأعمال والأرزاق، فى معاملة العاملين لمن يرأسهم فى العمل.

ومن الآفات التى شاعت بين المسلمين: **الغيبةُ**، وهى: ذكرك أخاك بما يكره، وحسبك فى الزجر عنها ما جاء عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قالت: «قلت للنبى ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا - قال بعض الرواة: تعنى قصيرة - فقال ﷺ: **لَقَدْ قُلت كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**. قالت: وَحَكَيْتُ لَهُ إنْسَانًا، فقال: **مَا أُحِبُّ أَنِّى حَكَيْتُ إنْسَانًا وَإنَّ لِى كَذَا وَكَذَا**»[3] .

---

(١) الإسراء : ٥٣.

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه ابو داود والترمذى وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع/ ٥١٤٠).

ومعنى (لقد قلت كلمة) أى: الكلمة التى قالتها لو خالطت ماء البحر الذى هو من أعظم المخلوقات لغيرت طعمه أو رائحته لشدة نتنها وقبحها.

ومعنى (حكيت) أى: قلدت حركة إنسان يكرهها صاحبها.

وقوله (ما أحب أنى حكيت..) يدل على عظم إثم تقليد شخص بشىء يكرهه، فلا يوازى ذلك ما يناله مقابل هذا الفعل، وإن كثر وعظم.

ومن الزواجر القوية كذلك ما جاء عن أنس - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «**لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بقوم لَهُمْ أظفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمِشُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَولاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَال: هَـؤُلاءِ الَّذِينَ يَأكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ ويَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ**»[1]. ومعنى (يخمشون) أى: يجرحون.

وإذا سمعت من يغتاب أحدًا من المسلمين، فعليك أن ترد عن عرضه، ولا تسكت على هذا المنكر، قال ﷺ: «**مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أخيهِ؛ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[2].

وهناك آفات أخرى كثيرة تحتاج إلى جهد ومراقبة لعدم الوقوع فيها، كالكذب مثلاً الذى يهدى إلى الفجور، ثم إلى النار، كما قال ﷺ، وكالجدال، وكالثرثرة، والتشدق فى الكلام، وكالرياء بالقول، وغير ذلك مما لا يتحمله المقام للتفصيل.

ولمعرفة الشيطان بعظم خطر هذه الآفات الناجمة عن (الكلام)، والذى هو من أعظم أبوابه التى يدخل منها على الإنسان، فقد أمر أعوانه وقال لهم: «قوموا على ثغر اللسان، فإنه المدخل الأعظم، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، فزينوا له الغيبة والذم والنميمة، والتكلم فيما لا يعلم وفيما لا يعنيه، والخوض فى الباطل، والفحش والسب والبذاءة، وزينوا له كثير المزاح والسخرية والاستهزاء والكذب، زينوا له التقعر فى الكلام والتكلف، زينوا له ذلك كله

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى فى (الصحيحة/ ٥٣٣)، و(صحيح الجامع/ ٥٣١٣).

(٢) رواه أحمد والترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع ٦٢٦٢).

وحببوه إلى قلبه، فإنه فى طبيعة نفسه بواعث تساعدكم على ذلك، وإياكم أن يجرى على لسانه شىءٌ مما ينفعه، من ذكرٍ لله أو استغفار أو تلاوة قرآن أو نصيحة للعباد، أو التكلم بعلم نافع، امنعوه عن ذلك كله وصدوه، وحاولوا أن تصلوا بهذا اللسان إلى أحد الأمرين التاليين أو كليهما :

الأول: التكلم بالباطل، فإنه بذلك يصير من أكبر جندكم وأعوانكم.

الثانى: السكوت عن الحق، فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الأول أخ لكم متكلم ناطق، وربما كان الثانى أنفع لكم!

فالرباط الرباط على ثغر الإنسان هذا، فزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق. واعلموا يا بنى أن ثغر اللسان هذا، هو الذى أُهْلِكُ به بنى آدم وأُكِبُّهم على مناخرهم فى النار، فكم لى من قتيل وأسير وجريح، أخذته من هذا الثغر!».

هكذا تخيل الإمام **ابن القيم** رحمه الله[1] كلام الشيطان لأعوانه عن هذا الأمر، وهو تخيل بديع كما ترى .

وأما مراقبة الأعمال فإن كانت طاعة ، فيعمل على أن تكون خالصة لله عز وجل، وأن تكون على وفق ما جاء به الشرع، لا ابتداع فيها. وإن كانت معصية، فبالتوبة والندم والإقلاع. وأما فى المباح من الأعمال كالمزاح مثلاً، فبمراعاة الأدب، وعدم تقليد الهمج والرعاع. وتكون المراقبة فى الأعمال أيضًا بالشكر على النعم، والصبر على الابتلاءات. وأن ينظر عند كل قول وعمل نافع إلى مِنَّة الله عليه به، وتوفيقه له فيه، وأنه بالله، لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، فلا يُصِبْهُ العُجْب، الذى أصله رؤية النفس، وعدم شهود مِنَّة الله تعالى وتوفيقه وإعانته. فكل ذلك أصله مراقبة النفس وتوجيهها إلى هذه الأمور.

وإن أجل ثمرة لمراقبة النفس هى أن تصل بها إلى منزلة **الإحسان**. والإحسان

---

(١) الداء والدواء : ص ١٠٢.

كما قال النبى ﷺ: «**أن تعبُد الله كأنَّكَ تراهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تراه، فإنهُ يَراكَ**» [1] . أى أن يعبد العبدُ ربَّهُ فى الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه، وينظر إليه فى حال عبادته، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم والإخلاص فى العبادة وبذل الجهد فى تحسينها وإكمالها. ومن شق عليه هذا المقام، وهو أن يعبد الله تعالى كأنه يراه، فليعبده على أنه سبحانه يراه ويطلع عليه وينظر إليه، فيستحى من نظره سبحانه إليه، واطلاعه عليه، وقد قال بعض السلف: «اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك»، وقال آخر: «خف الله على قدر قدرته عليك، واستحى منه على قدر قربه منك».

ولقد أرشد أهل العلم إلى مجالسة العلماء والصالحين، ليكون ذلك مانعًا من التلبس بشىء من النقائص، احترامًا لهم، واستحياء منهم. فكيف بمن لا يزال الله جل وعلا مطلعًا عليه فى سره وعلانيته؟ قال بعض العلماء: « من فعل معصية وهو يعلم أن الله تعالى مطلع عليه، فما أجرأه وأخسره. وإن ظن أن الله لا يراه، فما أكفره» . وهناك أناس كما قال تعالى: ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ** ﴾[2] ، فتجدهم إذا كانوا مع الناس، اجتنبوا فعل المعاصى، حياءً من الناس ولكنهم إذا خلوا بأنفسهم، لم يتحرجوا من ارتكاب المعاصى، ولم يستحوا من الله ـ عز وجل ـ فمن هؤلاء مثلاً : الرجل يكون سائرًا مع إخوانه فى الطريق ، فتراه يَغُض بصره عن النساء لاطلاع إخوانه عليه، ولكنه إذا علم أن أحدًا لا يطلع عليه ، أطلق لبصره العنان، وأخذ ينتهك محارم الله . فهؤلاء الذين قال النبى ﷺ عنهم: «**لأعْلَمَنَّ أقْوامًا منْ أُمَّتى، يأتُونَ يومَ القيامة بحسَنَات أمثال جِبالِ تِهامةَ بَيْضَاءَ، فيجعلُها اللهُ هَبَاءً مَنْثوراً، أمَا إنهم إخوانُكمْ، ومن جلدَتكُمْ، ويأخذونَ من الليلِ كما تأخذونَ، ولكنهمْ قومٌ إذا خَلَوْا بمحارمِ الله انتهكوها**»[3].

---

(١) رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ومسلم من حديث عمر رضى الله عنه .

(٢) النساء : ١٠٨ .

(٣) رواه ابن ماجة من حديث ثوبان رضى الله عنه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٢٨).

فهذا العقاب الشديد الذى ينتظرهم جزاءً على عدم استحيائهم من الله عز وجل واستحيائهم من الخلق ، لأن قلوبهم تعلقت بالخلق، وبنظرة الخلق إليهم، ولم تعبأ بنظرة خالق الخلق! .

فالكيس يحفظ أعماله، لأنه فى أشد الحاجة لها، ولكل عمل منها، ويتذكر ما شرحناه سابقًا لبيان حاجة الإنسان لأعماله الصالحة، ولحبوط هذه الأعمال بغيرها من الأعمال الطالحة، فى قوله سبحانه: ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1] . فلو أن أحدًا له جنة من نخيل وأعناب، وكبر به السن، وليس له إلا ذرية ضعفاء، لا ينفعونه بقوة ولا بتصرف، بل هو المسؤول عنهم لضعفهم وعجزهم هذا، فكيف تكون حاجته إلى جنته تلك، خاصة وقد كبر سنه عن الكسب والتجارة؟ ولقد صدق الحسن البصرى رحمه الله حين قال: « وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا». ثم انظر كيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته هذه إعصار فيه نار فأحرقها وصيرها رمادًا ؟ فكذلك المعاصى تحرق الأعمال الصالحة التى يكون صاحبها فى أمس الحاجة إليها. فلو تصور العاصى هذا المعنى حق تصوره، وتأمله كما ينبغى، لما سولت له نفسه والله إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها[2].

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يحفظ علينا أعمالنا الصالحة ، ويعصمنا من الزلل.

وعلامة المراقبة: هى إيثار ما يرضى الله ـ عز وجل ـ على ما يرضى نفسك وهواك، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صَغَّرَ سبحانه.

وإذا ابتليت وجلست إلى الناس واعظًا، فكن واعظًا لنفسك أولاً، وراقب نيتك فى جلستك هذه، ولا يغرنك اجتماع الناس عليك، واعلم أنهم لا يراقبون

---

(١) البقرة : ٢٦٦ .

(٢) راجع كلام الإمام ابن القيم على هذه الآية (طريق الهجرتين/ ٣٥٢).

إلا ظاهرك، أما باطنك، فالله أعلم به، فلا يغرنك مدحهم إذا مدحوك.

وإذا أردت أن تعلم قدرك ومنزلتك عند ربك، فانظر إلى قدره ومنزلته سبحانه عندك، فإن كنت تستحى من نظره إليك، وسمعه إياك، وشهوده لكل أحوالك، فتنتهى عما نهاك عنه، وتستجيب لما أمرك به، إن كنت هكذا حقًّا، بحيث لا يفقدك سبحانه حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك، فاعلم أن الله جل وعلا عندك منزلة وقدرًا، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ بفضله الكبير وكرمه الواسعِ سيشكر لك ذلك كله، بإعلاء منزلتك وقدرك في الدنيا والآخرة، إنه سبحانه شكور وهَّاب كريم، وكما قال سبحانه: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ ﴾[1].

* * *

(١) الرحمن: ٦٠.

أسماء تتعلق بحسابه تعالى لخلقه وحكمه بينهم يوم القيامة

■ **نذكر منها: [الحسيب ـ الحكم].**

ـ **الحسيب:** هو سبحانه المحصى لأعمال عباده، الذى يحاسبهم عليها فى الآخرة.

ـ **الحكم** : هو سبحانه الذى يحكم بين خلقه، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

الشرح:

الله تبارك وتعالى هو الرقيب على عباده والمراقب لأعمالهم، يحصى عليهم أقوالهم وأعمالهم، مهما دقت وصغرت، حتى إذا طويت صفحة الوجود، حاسبهم سبحانه وتعالى عليها، وجزاهم بها، فيحاسب المؤمنين حسابًا يسيرًا، ويدخلهم الجنة عرفها لهم، ويحاسب الكافرين حسابًا شديدًا، ويعذبهم عذابًا نُكرًا، قال سبحانه: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾[١] . فحتى الحبة من خردل من الأعمال، لا تترك يوم الحساب، ولا تضيع، وقد تميل بها كفة الميزان العدل الدقيق إلى النعيم، وقد تميل بها إلى العذاب. ولذلك يقول المجرمون يوم الحساب عندما يوضع كتابهم: ﴿ **يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾[٢] . وهى قولة الخائف المتوقع لأسوأ العواقب، الذى لا يملك تفلتًا ولا هربًا، ولا مراوغة ولا مداورة.

ويقول سبحانه: ﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾** ﴾[٣] .

---

(١) الأنبياء : ٤٧.
(٢) الكهف : ٤٩ .
(٣) الإسراء: ١٤ .

وطائر كل إنسان، هو ما يطير له من العمل، أى ما يُقسم له من العمل، وهو كناية عما يعمله، فعمل كل إنسان ملازم لصاحبه، لا يفارقه، ولا يستطيع صاحبه أن يهرب أو يتملص منه .

والله تبارك وتعالى له الحكم على جميع مخلوقاته، يحكم سبحانه عليهم بما شاء وما أراد: ﴿ **وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾[1] . سبحانه الذى يحكم بينهم يوم القيامة، ويعطى كلاً ما يستحق. فيقضى بالجنة ونعيمها للمؤمنين الذين أخلصوا دينهم، وأدوا المهمة التى خلق الله من أجلها الإنسان وأرسله إلى الأرض ليقوم بها. ويقضى بالنار وعذابها للضالين، الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعبًا، وغرتهم الحياة الدنيا : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾[2].

وهو ـ جل وعلا ـ حكم عدل ، لا يظلم الناس مثقال ذَرَّةٍ ، إنما هى أعمالهم التى قدموها فى دنياهم ، وإنما هو حصاد ما بذروه وما زرعوه ، يقول الله تعالى: « **يَا عِبَادِى.. إِنَّمَا هِىَ أَعمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَـكُمْ، ثُمَّ أُوفيكُمْ إِياهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْـرًا فَلْيَحْمِدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غيرَ ذلكَ، فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ** »[3] .

ولما علم أولوا النُّهى بهذا، وآمنوا به، شمروا فى تعمير آخرتهم، حتى ينجوا من أهوال يوم الحساب المهيب ، ومن عذاب النار الشديد ، ويفوزوا بنعيم الجنة الرَّغيد ، وبرؤية وجه ربهم المجيد .

* **فهذا عبد الله بن عمرو** رضى الله عنهما كان يصوم الدهر، أى يصوم كل يوم، وكان يقوم الليل يقرأ القرآن كله كل ليلة، فأشفق عليه أبوه عمرو بن العاص

---

(١) الرعد : ٤١ .

(٢) الجاثية : ٢١.

(٣) حديث قدسى ، رواه مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه .

ـ رضي الله عنه ـ فأخبر بذلك النبى ﷺ، فذهب إليه النبى ﷺ وقال له: «**إنَّك لَتصُومُ الدَّهْرَ وتقومُ الليلَ؟** فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ: **إنكَ إذا فعلتَ ذلكَ هَجَمَتْ لَهُ العينُ، ونَفِهَتْ لَهُ النفسُ**[1] ، **لا صَامَ من صامَ الدَّهْرَ، صَوْمُ ثَلاثة أيام ، صَوْمُ الدهر كُله.** قالَ: فإنى أُطيقُ أكثرَ من ذلكَ، قالَ: **فَصُمْ صَوْمَ داودَ** ـ عليه السلام ـ: **كَانَ يَصومُ يومًا ويُفطرُ يومًا، ولا يَفرُّ إذا لاقى**» [2] . وفى رواية أن النبى ﷺ قال له: «**واقْرأْ القرآن فِى كلِّ شَهْرٍ**، فقالَ: يا نبيَّ الله إنِّى أُطيقُ أفضلَ من ذلكَ. قالَ: **فاقْرَأْهُ فِى كلِّ عشرينَ**، قَالَ: يا نبيَّ الله إنِى أُطيقُ أَفْضلَ من ذلكَ. قال: **فاقرأه فِى كلِّ عَشْرٍ**. قالَ: يا نبيَّ الله إنى أُطيقُ أفضل منْ ذلكَ. قالَ: **فاقْرَأْهُ فِى كل سَبْعٍ ولا تَزِدْ على ذلكَ، فإنَّ لزوجكَ عليكَ حقًا، ولِزَوْرِكَ ـ أى لِضَيْفكَ ـ عليكَ حقًا، ولجسدكَ عليكَ حقًا**»[3] .

فسبحان الله، كان يصوم كل يوم، وكان يقرأ القرآن كله كل ليلة فى الصلاة، ويحاول ألا يقلل من ذلك، رغم أن النبى ﷺ يجيز له ذلك، فأين هذا من أناس لا يصومون نفلاً ولا يقومون ليلاً فحسب، بل لا يحافظون على الفرائض أصلاً ؟!

* وهذا **أبو طلحة الأنصارى** ـ رضي الله عنه ـ كان يملك حائطًا بالمدينة، تسمى بَيْرُحَاءَ، وكانت أحب أمواله إليه، يقول أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: « فَلما أُنْزِلَت هذه الآية: ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ قام أبو طَلحَةَ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ الله تَباركَ وتعالى يقولُ: ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ وإنَّ أحَبَّ أموالى إلىَّ بَيْرُحَاءُ، وإنها صدقةٌ لله، أرجو برَّهَا وذُخرَها عندَ الله، فضعها يا رسولَ الله حيثُ أراكَ اللهُ. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**بَخٍ، ذَلكَ مَالٌ رابح، ذَلكَ مَالٌ رَابِحٌ. وقد سمعتُ ما قلتَ، وإنى أرى أن تجعلها فى**

---

(١) هجمت العين: أى غارت، ونفهت النفس: أى تعبت وكلّت.

(٢)، (٣) متفق عليهما عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنه .

الأقربين». فقال أبو طلحةَ: أَفْعَلُ يا رسولَ اللهِ، فقسَمَها أبو طلحةَ فِي أقاربِهِ وبنى عمه»[1].

إن المؤمن مبادر دائمًا إلى الخير وإلى عتق رقبته من النار، فبمجرد سماعه - رضي الله عنه - إلى هذه الآية، وعلمه أنه لن ينال الجنة حتى ينفق مما يحب من ماله، قام وأخرج هذه الحديقة صدقة لله تعالى، فى الحال ودون تلكُّو أو تفكير. وهناك من تُتلى عليه هذه الآية مئات المرات، فلا تثير فيه شيئًا، ولا يتحرك ساكنًا، وكأنها أُنْزِلَت إلى غيره.

* وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «غَابَ عَمِّى أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عن قِتَال بَدْرٍ فقالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قاتَلتَ المشركينَ، لَئِنِ اللهُ أَشْهَدَنِى قِتَالَ المشركينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أَصْنَعُ. فلَمَّا كَانَ يومُ أُحُدٍ وانكَشَفَ المسلمونَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ - يَعْنِى أَصْحَابَهُ - وأَبْرَأُ إليكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ - يَعْنِى المشركينَ - . ثُمَّ تَقَدَّمَ فاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّى أَجِدُ رِيحَهَا من دُونِ أُحُدٍ. قَالَ سَعْدٌ: فَمَا استطعْتُ يا رسُولَ اللهِ ما صَنَعَ. قال أنسٌ: فَوَجَدنَا بِهِ بِضْعًا وثَمانِينَ ضَرْبَةً بالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدنَاهُ قَدْ قُتِلَ، وقَدْ مَثَّلَ بِهِ المُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إلاَّ أُخْتُهُ بِبَنَانِه. قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نَرَى - أو نظنُ - أَنَّ هَذه الآيَةَ نَزَلَتْ فيهِ وَفِى أَشْبَاهِهِ ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ إلى آخر الآية »[2].

فهذا **أنس بن النضر** - رضي الله عنه - يقاتل هذا القتال الشديد فى سبيل الله تعالى وبشجاعة مفرطة، بحيث أن سعد بن معاذ - رضي الله عنه - مع ثباته يوم أحد وكمال شجاعته، يقول: (فما استطعت يا رسول الله ما صنع أنس) وظاهره: أنه نفى استطاعة إقدامه الذى صدر منه حتى وقع له ما وقع من الصبر على تلك الأهوال،

---

(١) متفق عليه .　　(٢) رواه البخارى .

بحيث وجد فى جسده ما يزيد على الثمانين من طعنة وضربة ورمية، فاعترف سعد بأنه لم يستطع أن يُقْدم إقدامه، ولا يصنع صنيعه .

وهذا يدلك على ما كان عليه هؤلاء الرجال الأبرار - رضى الله عنهم - من حب لنصر الإسلام. ورغبة فى الشهادة، ابتغاء مرضاة الله تعالى، وصدق فى إرادة الآخرة، حتى إنهم ليضحون فى سبيلها بكل ما يستطيعون. ويقين بحقيقة الدنيا، بحيث لم يعد لها فى قلوبهم أى ثقل، إلا كونها سببًا للوصول لمرضاة ربهم سبحانه وتعالى.

إنهم قد آمنوا بربهم وبحسابه لهم وبالجنة والنار، وصدقوا فى ذلك، فكان هذا حالهم.

* ومن الجميل أن بعض من كان لا يدرك الشهادة فى سبيل الله منهم ويتذكر إخوانه الذين نالوها، وفازوا بها، كان يبكى شفقًا ألا يلحق بهم. فهذا **عبد الرحمن بن عوف** - رضي الله عنه - وقد أوتى بطعام، وكان صائمًا، فقال: «**قُتِلَ مُصْعَبُ بن عُمير، وهو خيرٌ منى، كُفِّنَ فِي بُردة، إن غُطِّيَ رأسهُ بدت رجلاهُ، وإن غُطِّيَ رجلاهُ بدا رأسهُ ، وَقُتِل حمزةُ، وهو خير منى، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِطَ، وقد خشينا أن تكون حسنَاتُنا قد عُجِّلَت لنا**». ثمَّ جعل يبكى، حتى ترك الطعام[1].

سبحان الله . . كان صائمًا . . ولكن لشدة خوفه من الآخرة؛ أخذ يبكى ، حتى أنه ترك طعام إفطاره ، ولم يتناوله ! . . أين نحن من مثل هؤلاء ؟!

* ثم إليك هذا المثال الجميل لنساء الصحابة، رضوان الله عليهن، والتى كانت الواحدة منهن تساوى ملء الأرض من كثير من رجال اليوم! فعن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قالت: « يَرحَمُ اللهُ نِسَاءَ المهاجراتِ الأُوَل ، لما أنزلَ الله ﴿ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ﴾ شققن مُرُوطَهُنَّ، فاختمرنَ بها»[2] .
فلما نزل أمر الله تعالى للنساء بلبس الحجاب، قمن عندما علمن بذلك فى الحال

---

(۱)، (۲) رواهما البخارى .

*

وصنعن لهن من أزرهن خمارات واختمرت كل واحدة منهن بالخمار الذى صنعته، وكنَّ فى أول صلاة وراء رسول الله ﷺ يرتدين هذا الحجاب. ولم تقل أى واحدة منهن مثلا: «سوف أنتظر حتى أشترى قماشًا، وأصنع منه حجابـًا»!. أو: «ماذا أفعل بكل هذه الملابس التى عندى»؟! أو: «إن الإيمان فى القلب ولا تهم هذه الأشياء الظاهرية» !!. لا، لم يقلن ذلك، فإن هذه الأقوال، ونحوها، أقوال أصحاب القلوب المريضة، وأصحاب الإيمان المهلهل. إنما أصحاب القلوب السليمة، الذين يؤمنون بلقاء الله عز وجل، فلا يقولون أمام شرع الله تعالى إلا كلمتين فحسب: « **سمعنا وأطعنا** » فى الحال، ودون جدال أو تسويف، ودون أن ينظروا إليك نظر المغشى عليه من الموت عندما تخبرهم بهذا الأمر أو ذلك النهى.
يقول تعالى: ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[1] .

وقد بين النبى ﷺ كذب هذا الادعاء ، وهو : (إنه طالما الإيمان فى القلب فلا تهم هذه الأمور الظاهرية!!) وذلك فى حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه - أنه ﷺ قال: « **ألا وإنَّ فِى الجَسَدِ مُضْـغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهِى القلبُ** »[2] . فالقلب إذا كان عامرًا حقًّا بالإيمان، لا بد وأن يظهر ذلك على ظاهر الإنسان، يظهر على جوارحه، يظهر على كلامه، يظهر على ملابسه، يظهر على تصرفاته ومعاملاته، يظهر على كل شىء من أموره. وفساد ظاهر الحال، ومخالفة ظاهر الإنسان للشرع، دليل على فساد فى القلب، وعلى ضعف وخلل فى الإيمان، كما بَيَّنَ ﷺ.

فكل من كان ظاهره مخالف لدين الإسلام، ويدعى أن قلبه عامر بالإيمان فهو كاذب؛ بل ويُكَذِّبُ حديث النبى ﷺ السابق بهذا الادعاء.

* ولنستمتع بهذا الموقف الجميل: فعن رَبِيْعَةَ بنِ كَعْبِ الأَسْلَمِى - رضي الله عنه - قالَ: كُنتُ أبيتُ مع رسولِ الله ﷺ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِه وحاجتِه، فقالَ لِى: «**سَلْ**».

---

(١) النور : ٥١.
(٢) متفق عليه .

فقلت: أسألكَ مرافقَتَكَ فِي الجَنَّةِ. قالَ: «**أوَ غيرَ ذلكَ؟**» قلتُ: هو ذَاكَ ! قَالَ: «**فَأَعِنِّي على نَفْسكَ بكثْرة السُّجود**»[1] . فربيعة - رضي الله عنه - كان بإمكانه أن يطلب أي شيء من متاع الحياة الدنيا، ولكن قلبه المتعلق بربه وبلقائه، المتعلق بحب رسوله ﷺ، المتعلق بالآخرة وما فيها، لم يلتفت إلى أى شىء من هذا المتاع الزائل، والتفت إلى شىء واحد فقط، هو النجاة فى الآخرة، وأن يحشر مع رسول الله ﷺ ويكون رفيقه فى الجنة. ولما سأله ﷺ: أو غير ذلك؟ فإذا به يرد قاطعًا وبحزم : هو ذاك، أى: لا شىء غير هذا. فالله أكبر على هاتيك القلوب، التى ملأها حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ، فلم تعد تلتفت إلى شىء من متاع الدنيا الفانى ، حتى وإن كان بين يديها، فليس لها إلا هدف واحد: النجاة من النار وأن تحشر مع الأبرار. وفى هذا التوجيه الأخير من النبى ﷺ: «**فأعنِّي على نَفْسكَ بكَثْرة السُّجود**» لربيعة - رضي الله عنه - بيان لفضل وأهمية الصلاة، وأنها من أعظم الطرق للنجاة يوم القيامة. وقد قال ﷺ فى ركعتى سنة الفجر فقط: «**ركْعَتَا الفَجْر خَيْرٌ من الدُّنيَا وما فيهَا**»[2] . فما بالك بركعتى الفرض نفسيهما؟! ركعتى الفرض واللتين للأسف الشديد نام عنهما أكثر المسلمين اليوم!.

وقد جاء عن سَمُرَة بنِ جُنْدُب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال لهم ذات غَدَاة: «**إنَّهُ أَتَانى الليلةَ آتيان، وإنَّهما ابتعثانى، وأنَّهُما قالا لى: انْطلق. وإنى انطلقتُ معهما، وإنَّا أتينا على رجلٍ مضطجع ، وإذا آخر قائمٌ عليه بصخرة، وإذا هُوَ يَهوى بالصخرة لرأسه، فَيَثْلَغ رأسَهُ**[3] **، فيتدَهْدَه**[4] **الحجرُ ها هُنا، فيتبعُ الحجرَ، فيأخُذُه ، فلا يرجعَ إليه حتى يصحَّ رأسُهُ كما كان، ثُمَّ يعودُ عليه فيفعلُ به مثلَ ما فعلَ به المرةَ الأولى. قال ﷺ: قُلتُ لهما: سُبْحَانَ الله، ما هذان؟ .. قَالا لى: سَنخبرُكَ: إنَّهُ الرجل يأخذُ بالقرآن فيرفضهُ، وينامُ عن الصلاة المكتوبة**»[5] . فلما

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) يثلغ رأسه: أى يَشْدَخُهُ وَيَشُقُّهُ.

(٤) يتدهده: أى يتدحرج .

(٥) رواه البخارى وهو حديث طويل ، هذا جزء منه .

ثقلت رأس هذا الرجل عن القيام إلى الصلاة كان هذا عقابه أن تهشم رأسه بمثل هذه الطريقة المخيفة . نسأل الله الإعانة على حسن طاعته والسلامة فى الدنيا والآخرة .

وهذه الأمثلة القليلة التى ذكرتها، هى غَيْضٌ من فَيْضٍ عظيم من سيرة سلف هذه الأمة، رضوان الله عليهم أجمعين.

ومتى آمن العبد أن الله عز وجل مُحَاسِبٌ له يوم القيامة، أعد العدة لهذا الحساب، يقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩)** ﴾[١] . أى: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم.

يقول **صاحب الظلال** عند قوله تعالى: ﴿ **وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ :

« وهو تعبير كذلك ذو ظلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه. . ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله، بل صفحة حياته، ويمد ببصره فى سطورها كلها يتأملها وينظر رصيد حسابه، بمفرداته وتفصيلاته، لينظر ماذا قدم لغده فى هذه الصفحة. وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف، ومواضع نقص، ومواضع تقصير، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد، فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلاً ونصيبه من البر ضئيلاً ؟ إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبدًا، ولا يكف عن النظر والتقليب»[٢] .

إن الواجب على الإنسان أن يفعل مثل ما يفعل التاجر، الذى يعيش عمره بين صخب الناس، وضجيج الأسواق. فإن ذلك لا يمنعه عن أن يخلو إلى نفسه فى غرفة من غرف داره، بين كل حين وآخر، متجردًا حتى عن الأهل والولد

---

(١) الحشر : ١٨، ١٩ .

(٢) فى ظلال القرآن (٦/ ٣٥٣١).

والمؤنس، ويعكف مستغرقـًا على دفاتره وأوراقه وحساباته، فيتبين له بوضوح، ما له وما عليه. ولولا اهتمامه بمثل هذه الساعات فى عمره، لما قدم له متجره الذى يغص بالغادينَ والرائحين، إلا الندامة والخسران. فهذه الخلوة بين الحين والحين، خلوة التدبر والتأمل والمراجعة، خلوة الندم والإنابة، خلوة العزيمة واتخاذ القرار، خلوة إصلاح الحال مع الله عز وجل ، لا بد منها لكل ملاق لربه ـ الحكم الحسيب ـ عما قريب .

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا قبل الموت توبة، وعند الموت شهادة، وبعد الموت مغفرة وجنة ونعيمًا، إنه سبحانه هو البر الرحيم.

❊ ❊ ❊

وبعد. . فهذا آخر ما تيسر لى فى هذه العجالة، وكم كنت أود أن يكون الجهد المبذول أكبر من ذلك، ولكن ضيق الأوقات، وكثرة الواجبات، وقلة البركات، قد حال دون ذلك.

على أننى فى هذه المحاولة لا أدعى الفضل لنفسى، بل قُصَاراىَ أننى اجتهدت وفهمت وعرضت، فأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ.

أما المادة العلمية نفسها فالفضل فيها لعلماء هذه الأمة الأجلاء، الذين أَبْلَوْا فى دروب العلم بلاءً حسنًا، ولم يخرجوا من هذه الدنيا إلا بعد أن شقُّوا لنا الطريق، وقرَّبوا البعيد، وجمعوا الشَّتيت، وتركوا من خلفهم ثروة علمية هائلة، وكنوزًا ثقافية زاخرة، لا يوجد مثلها ولا قريب منها فى أى أمة من أمم الأرض إلى يوم الناس هذا.

وأعتقد أننا لو أحسنا القيام على هذه التركة لكان لنا شأن غير هذا الشأن، ومكانة وسلطان لايدانيهما مكانة ولا سلطان. ولكن ما قُضى كان.

ولعل المستقبل القريب يكون أسعد وأفضل من هذا الحاضر الحزين.

هذا وإنْ أنس لا أنسى أبدًا شكر ربى الكريم المنان، على منَّة الإسلام، ونعمة الإيمان، وأسأله سبحانه أن يُتم علىَّ منته ونعمته وفضله بحسن الختام.

وأسأله تبارك وتعالى أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكون فيه نفعٌ عظيمٌ لى ولجميع المسلمين. وأن يضع له جل وعلا القبول فى الأرض، وأن يرفع ثوابه إليه فى السماء، ويدخره لى إلى يوم الدين ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾. كما أستغفره سبحانه من أى تقصير قد يبدو فيه.

وإنى سائل أخًا أو أختًا انتفعا بشىء منه، الدعاء لى ولوالدىَّ ولأهلى ولجميع المؤمنين، بالمغفرة والعفو، والفوز بالجنة، من غير مناقشة حساب، ولا سابقة عذاب، والسعادة برؤية وجه ربنا العظيم.

والله جل وعلا هو وحده المستعان، وله الحمد والمنة، ومنه الجزاء والثواب، وإليه المرجع والمآب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه

أبـو لـــؤى

ولـيـد بـن مـحمـود بـن حـســن

■ ملحق الكتاب

ويشتمل على :

(١) الضميمة الأولي :

« تنبيهات على أسماء الله تعالى الحسنى »

(٢) الضميمة الثانية :

« أسماء الله تعالى الحسنى وذكر أدلتها من الكتاب والسنة » .

■ الضميمة الأولى ■

تنبيهات على أسماء الله تعالى الحسنى

■ التنبيه الأول: «فى أهمية معرفة هذه الأسماء والدعاء بها»

قال الله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[(1)] .

فهذا أمر من الله ـ عز وجل ـ لكى ندعوه ـ سبحانه ـ بأسمائه الحسنى، وهذا الدعاء لن يتثنى إلا بعد معرفة هذه الأسماء أولاً، وفهمها ثانيًا، حتى يكون العبد فاهمًا لما يدعو به.

* ومعنى قوله ــ عز وجل ـ: ﴿ **يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** ﴾ الإلحاد لغة هو: الميل والانحراف عن القصد، أما الإلحاد فى الاصطلاح فهو: الميل والانحراف عما يجب اعتقاده أو عمله.

وعلى هذا فالإلحاد فى الأسماء الحسنى معناه: العدول عن الحق الواجب فيها.

وهذا العدول له صور: فمثلاً الملحد، هذا الأعمى الذى لا يؤمن بوجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا بد وأنه أيضًا لن يؤمن بهذه الأسماء، فهذا نوع من الإلحاد. وكذلك من يؤمن بهذا الأسماء، ولكن لا يؤمن ببلوغها غاية الكمال، كالذى يرى المرضى وما يعانون وأصحاب الابتلاءات العديدة فى الأرض فيدخل فى قلبه شك فى كمال رحمة الله تعالى، فهذا ملحد فى هذه الأسماء. وأيضًا من يتجاوز ويتعدى حدود العقل البشرى، ويخرج عن حدود قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ فيحاول أن يتخيل صورة لأى صفة من الصفات التى تتضمنها هذه الأسماء، كاسم السميع مثلاً، فهو يتضمن صفة السمع، فلو تصور العبد صورة معينة ـ لله جلا وعلا ـ بهذه الصفة، كأن يكون له أذن مثلاً ـ سبحانه وتعالى عن ذلك ــ فهو ملحد أيضًا فى هذه الأسماء .

---

(1) الأعراف : ١٨٠ .

وكذلك من يؤمن بهذه الأسماء ولكنه لا يؤمن بما تضمنتها من صفات، كأن يؤمن أنه سبحانه سميع ولكن بلا سمع ، قدير ولكن بلا قدرة، فيعطل معانى هذه الأسماء، فهذا ملحد فيها أيضًا.

* وقد جاء فى قوله تعالى : ﴿ **وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ** ﴾ ، أن معناه التهديد والوعيد، كقوله تعالى: ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل** ﴾، وكقوله: ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا** ﴾ وهذا المعنى هو الظاهر من الآية لقوله تعالى: ﴿ **سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾، هذا والله تعالى أعلم.

* ومما يشير أيضًا إلى أهمية الأسماء الحسنى، وذكرها والتعبد بها، قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[1] ، وقوله تعالى: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** ﴾[2] .

ففى هاتين الآيتين نجد أن الله ـ عز وجل ـ قد اختار من صور العبادة التى تكون فى المسجد (ذكر اسم الله) رغم أن هذه العبادة متنوعة، ففيها الركوع والسجود وغير ذلك، فهذا الاختيار منه سبحانه يشير إلى أهمية وقيمة ذكره ـ جل وعلا ـ بأسمائه الحسنى، حيث إن كلمة «اسم» فى الآيتين وردت عامة، فتشمل جميع الأسماء الحسنى .

* إن أسماء الله تعالى تمثل صفاته ـ سبحانه ـ وصفاته ـ جل وعلا ـ تكشف عن ذاته فإن كان العبد لم ير ربه، فإن فى معرفة وفهم الأسماء الحسنى ما يجعله يعرف ربه ـ سبحانه وتعالى ـ وحينئذ ستكون عبوديته له من أسمى وأكمل ما يكون .

---

(١) البقرة : ١١٤.   (٢) النور : ٣٦.

■ **التنبيه الثانى:«فى فضل إحصاء تسعة وتسعين اسمًا من هذه الأسماء»**

عن أبى هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لله تسْعَةً وتسعين اسْمًا منْ أحصَاهَا دَخَلَ الجنةَ، وهو وِتر يُحبُّ الوتْر**»[١] . والمقصود بالإحصاء هنا على مانرجحه ــ إن شاء الله تعالى ـ من أقوال العلماء: هو حفظها لفظًا، وفهمها معنىً والتعبد بها.

فالإحصاء قد جاء فى كتاب الله تعالى بمعنى العد والحفظ مع الإدراك لمفردات المعدود، كما فى قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾[٢] ، وقوله تعالى: ﴿**لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا** ﴾[٣] .

فالإحصاء هنا يشمل العد لهذه الأعمال، ويشمل ما هو مقابل النسيان وهو الحفظ، ويشمل الإدراك لمفردات هذه الأعمال، فهذه كبيرة وهذه صغيرة، وهذا شرك أكبر، وهذا شرك أصغر، وهذا عقابه كذا، وهذا ثوابه كذا.

ولو حفظ شخص القرآن، ولم يفهم منه شيئًا، لم يكفه هذا الحفظ فقط للانتفاع بالقرآن، وإن كان يثاب عليه، ولو حفظه وفهمه ولم يعمل به، لم يكفه هذا الحفظ وهذا الفهم، بل يكون حجة عليه حينئذ[٤] . وهكذا الأمر بالنسبة للأسماء الحسنى، فلا بد من اجتماع الثلاثة للانتفاع بها، فمن حفظها وفهمها، وقام بالتعبد بمقتضاها، فاز بالخير العظيم فى الدنيا والآخرة.

* وقوله (**وهو وتر**) الوتر : هو الفرد ، ومعناه فى صفة الله ـ تعالى ـ أنه الواحد الأحد ، الذى لا شريك له فى ملكه ، ولا نظير له فى ذاته وصفاته.

---

(١) متفق عليه .

(٢) المجادلة : ٦ .

(٣) الكهف : ٤٩.

(٤) انظر معارج القبول (١/ ٧١).

* وفى معنى قوله : (**يحب الوتر**) جاءت أقوال عديدة نذكر منها ما نقله الحافظ فى الفتح عن الإمام القرطبى ـ رحمة الله عليهما ـ قال: « الظاهر أن الوتر هنا للجنس، إذ لا معهود جرى ذكره حتى يحمل عليه، فيكون معناه: أنه وتر، يحب كل وتر شرعه، ومعنى محبته له، أنه أمر به وأثاب عليه». أهـ.

ثم قال ـ رحمه الله بعد ذلك: «ويظهر لى وجه آخر وهو أن الوتر يراد به التوحيد، فيكون المعنى: إن الله فى ذاته وكماله وأفعاله واحد، ويحب التوحيد أى أن يُوحد ويُعتقد انفراده بالألوهية دون خلقه، فيلتئم أول الحديث وآخره. والله أعلم»[١] أهـ.

■ **التنبيه الثالث: «فى بيان كيفية إيمان العبد بكل اسم من هذه الأسماء»**

إن الإيمان بكل اسم من الأسماء الحسنى يقتضى أربعة أمور:

ـ إثبات ذلك الاسم لله ـ عز وجل ـ .

ـ إثبات ما تضمنه هذا الاسم من صفة لله تعالى.

ـ عدم تعيين كنه هذه الصفة (أى عدم التكييف)، ونفى مشابهتها لصفات المخلوقين (أى عدم التمثيل، أو التشبيه) .

ـ إثبات ما تعلق بهذا الاسم من آثار .

فمثلا: اسم الله تعالى [**السميع**] لا يتم الإيمان به حتى تؤمن:

ـ أن (السميع) اسم لله ـ عز وجل ـ من أسمائه الحسنى، دالاً على ذاته تعالى.

ـ ثبوت صفة السمع لله ـ عز وجل ـ.

ـ عدم مشابهة صفة سمع الله تعالى لصفة السمع عند المخلوقين ، وعدم إمكانية تعيين كنهها لقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ .

---

(١) فتح البارى (١١/ ٢٣٠) .

ـ أنه ـ سبحانه ـ يسمع السر والنجوى، وكل همس وكل صوت فى الوجود، حتى دبيب النملة فى باطن الجبل، وما هو أدنى من ذلك بكثير.

■ التنبيه الرابع: « الواجب نحو نصوص الكتاب والسنة الورادة فى أسماء الله تعالى وصفاته» .

* الواجب في نصوص الكتاب والسنة إبقاء دلالتها على ظاهرها، من غير تحريف وتغيير، لاسيما نصوص الصفات، حيث لا مجال للرأى فيها؛ وذلك لأن الله تعالى قد أنزل القرآن بلسان عربى مبين: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)** ﴾[(١)] وقال سبحانه: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾[(٢)] ، وهذا يــدل على وجــوب فهــمه على ما يقتضيه ظاهره باللسان العربى، إلا أن يمنع منه دليل شرعى معتبر .

* فتغيير هذه النصوص وتحريفها عن ظاهرها بدون دليل شرعى صحيح، هو إثم، وقول على الله تعالى بغير علم، وقد قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[(٣)] وقال: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾[(٤)] فالصارف لكــلام الله تعــالى ورســوله ﷺ عن ظاهره إلى معــنى يخالفــه بغير دليل شرعى، قد قفا ما ليس له به علم، وقال على الله ما لا يعلم .

وقد ذم الله تعالى اليهود على تحريفهم لكلام الله تعالى، فقال: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ**

---

(١) الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥.

(٢) الزخرف : ٣.

(٣) الأعراف : ٣٣.

(٤) الإسراء : ٣٦.

أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[١] .

* ومن المهم أن نعلم أن نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار المعنى، ولكنها مجهولة لنا باعتبار الكيفية، أما الأول فلقوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[٢]، والتدبر لا يكون إلا فيما يمكن الوصول إلى فهمه ومعرفة معناه، ليتذكر الإنسان بما فهم منه. ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٣] ، وكون القرآن عربيًا ليعقله من يفهم العربية، يدل على أن معناه معلوم.

وأما الثاني، فلقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٤]، وقوله ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[٥] ، وقوله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[٦] .

* وهناك أصل آخر هام وهو أن ظاهر هذه النصوص هو ما يتبادر منها إلى الذهن من المعانى، وهو يختلف بحسب السياق، وما يضاف إليه الكلام، فالكلمة الواحدة يكون لها معنى فى سياق، ومعنى آخر فى سياق، وتركيب الكلام يفيد معنى على وجه، ومعنى آخر على وجه.

ـ فلفظ (القرية) مثلاً، يراد به القوم تارة، ومساكن القوم تارة أخرى، فمن الأول، قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾[٧]. ومن الثانى، قوله تعالى عن الملائكة ضيف إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾[٨] .

---

(١) البقرة : ٧٥.
(٢) ص : ٢٩ .
(٣) الزخرف : ٣.
(٤) الشورى: ١١ .
(٥) طه : ١١٠.
(٦) الإخلاص: ٤ .
(٧) الإسراء : ٥٨.
(٨) العنكبوت : ٣١.

- وتقول: (ما عندك إلا زيد)، (وما زيد إلا عندك) فتفيد الجملة الثانية معنى غير ما تفيده الأولى مع اتحاد الكلمات، لكن اختلف التركيب فتغير المعنى.

*** وإليك ثلاثة أمثلة لنصوص الصفات تكون نبراسًا لك للتعامل مع غيرها:**

■ **الأول:** قوله تعالى عن سفينة نوح - عليه السلام -: ﴿ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** ﴾[1] .

وقوله لموسى - عليه السلام -: ﴿ **وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** ﴾[2] .

فمعنى هاتين الآيتين لا بد أن يُحمل على ظاهر الكلام وحقيقته، ولكن ما ظاهر الكلام وحقيقته هنا؟ هل يُقال: إن ظاهره وحقيقته أن السفينة تجرى فى عين الله، أو أن موسى - عليه السلام - يُربى فوق عين الله تعالى؟!

أو يقال: إن ظاهره أن السفينة تجرى وعين الله ترعاها وتكلؤها، وكذلك تربية موسى - عليه السلام -، تكون على عين الله تعالى يرعاه ويكلؤه؟

لا ريب أن القول الثانى هو الصحيح، وذلك لأن القول الأول باطل من وجهين:

أحدهما: أنه لا يقتضيه الكلام بمقتضى الخطاب العربى، فلا أحد يفهم من قول القائل: (فلان يسير بعينى) أنه يسير داخل عينه، ولا من قول القائل: (فلان تخرج على عينى) أن تخرجه كان وهو راكب على عينه، ولو ادعى مُدَّعٍ أن هذا هو ظاهر اللفظ فى هذا الخطاب لضحك منه السفهاء فضلاً عن العقلاء.

الآخر: أن هذا ممتنع غاية الامتناع، ولا يمكن لمن عرف الله تعالى وقدره حق قدره أن يفهمه فى حق الله تعالى، وذلك لأن الله تعالى مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، لا يحل فيه شيء من مخلوقاته، ولا هو حال فى شيء منها سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

■ **الثاني:** قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾[3] .

---

(١) القمر : ١٤.
(٢) طه : ٣٩.
(٣) الحديد : ٤.

فهل يُقال: إن ظاهر الكلام هنا وحقيقته أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضى أن يكون مختلطـًا بهم أو حالاً فى أمكنتهم، ويشمل ذلك أماكن قضاء الحاجة ونحوها ؟!

أو يُقال: إن ظاهره وحقيقته أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضى أن يكون محيطـًا بهم علمًا وقدرة وسمعـًا وبصرًا وتدبيرًا وسلطانـًا وغير ذلك من معانى ربوبيته سبحانه، مع علوه على عرشه فوق جميع خلقه؟

فلا شك أن القول الثانى هو الصحيح هنا، لدلالة سياق الآية عليه ، حيث يقول تعالى فيها : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ وكذلك لبطلان القول الأول من عدة أوجه :

منها: أن المعية فى اللغة العربية التى نزل بها القرآن لا تستلزم الاختلاط أو المصاحبة فى المكان، وإنما تدل على (مطلق مصاحبة) ثم تفسر فى كل موضع بحسبه.

ومنها: أن المعية هنا أضيفت إلى الله تعالى، وهو سبحانه أعظم وأجل من أن يحيط به شىء من مخلوقاته.

ومنها: أنه مناف لعلو الله تعالى الثابت بالكتاب والسنة و العقل والفطرة وإجماع السلف[1] ، فتفسير المعية هنا بالحلول والاتحاد باطل بكل ما سبق .

ومنها: أنه مستلزم للوازم باطلة لا تليق بالله عز وجل، ككونه تعالى مختلطـًا بمخلوقاته، أو حالاً فى أمكنتهم، ومن هذه الأماكن ما به النجاسات والقاذورات، وهذا يعنى أنه سبحانه حال فى مخلوقاته، تعالى سبحانه عن ذلك علوًا كبيرًا.

---

(١) انظر مسألة «علو الله تعالى» عند الأسماء التى تتعلق بعلوه تعالى وكبريائه فى هذا الكتاب .

■ **الثالث:** قوله ﷺ: «**إنَّ قُلُوبَ بَنَى آدمَ كُلها بين أصْـبُعَيْن من أصابعِ الرحمنِ، كقلبٍ واحدٍ، يَصْرِفُهُ حيثُ يَشَاءُ**»[1].

فمعنى الحديث الذى يدل عليه ظاهر الكلام وحقيقته أن لله تعالى أصابع حقيقية نثبتها له كما أثبتها له رسول الله ﷺ، وأن قلوب العباد كلها بين أصبعين منها حقيقة، ولا يلزم من ذلك مماسة ولا حلول، فإن السحاب مسخر بين السماء والأرض، وهو لا يمس السماء ولا الأرض.

أما عن كيفية هذه الأصابع وكيفية أن القلوب بين أصبعين منها، فهى مجهولة لنا لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، وقد تحدثنا عن هذا الأصل منذ قليل.

* وقد زل قوم وأخطأوا، فجعلوا المعنى المتبادر من النصـوص معنـى باطلاً لا يليق بالله تعالى، وهو التشبيه، ثم إنهم من أجل ذلك أنكروا ما دلت عليه من المعنى اللائق بالله، وهم أهل التعطيل، سواء كان تعطيلهم عامًّا فى الأسماء والصفات، أم خاصًّا فيهما أو فى أحدهما. فهؤلاء صرفوا النصوص عن ظاهرها إلى معانى عينوها بعقولهم، واضطربوا فى تعيينها اضطرابًا كثيرًا، وسموا ذلك تأويلاً، وهو فى الحقيقة تحريف.

فالتأويل عند المتكلمين عامة يقتضى اتخاذ العقل أصلاً فى التفسير مقدمًا على الشرع، فإذا ظهرت تعارض بينهما، فينبغى تأويل النصوص إلى ما يوافق مقتضى العقل، وذلك كتأويلهم نصوص الصفات كما ذكرنا، وهذا مذهب خاطئ وباطل، والسلف رضوان الله عليهم يخطئون القائل به، ويشتدون فى النكير عليه، لأنه يفضى إلى تعطيل النصوص، والتجاوز بها إلى معانٍ وآراء مدخولة.

ومذهب التأويل - أو التعطيل - هو جناية على النصوص الشرعية، حيث يجعلها دالة على معنى باطل غير لائق بالله تعالى ولا مراد له. وهو أيضًا صرف لهذه النصوص الشرعية عن ظاهرها إلى معنى يخالفها بلا علم وبلا دليل شرعى معتبر، وهذا كما بينا إثم؛ فلا يجوز.

كما أن مذهب التعطيل هذا - أو التأويل - يلزم عليه لوازم باطلة، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم، فمن هذه اللوازم:

---

(١) رواه مسلم عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما.

ـ أن أهل التعطيل لم يصرفوا نصوص الصفات عن ظاهرها إلا حيث اعتقدوا أنه ـ أى ظاهرها ـ مستلزم أو موهم لتشبيه الله تعالى بخلقه، وتشبيه الله تعالى بخلقه كُفر، لأنه تكذيب لقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ .

ومن المعلوم أن من أبطل الباطل أن يجعل ظاهر كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ تشبيهًا وكفرًا، أو موهمًا لذلك.

ـ ويلزم أيضًا من مذهب التأويل هذا أن الله تعالى لم يبين فى كتابه ما يجب على عباده اعتقاده فى أسمائه وصفاته، وإنما جعل ذلك موكولاً إلى عقولهم، يثبتون لله تعالى ما يشاؤون، وينكرون ما لا يريدون، وهذا ظاهر البطلان.

ـ ومما يلزم أيضًا من هذا المذهب أن النبى ﷺ وخلفاءه الراشدين وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها كانوا قاصرين أو مقصرين فى معرفة وتبيين ما يجب لله تعالى من الصفات، أو يمتنع عليه أو يجوز، وذلك حيث إنه لم يرد عنهم حرف واحد فيما ذهب إليه أهل التعطيل فى صفات الله تعالى وسموه تأويلا. وحينئذ إما أن يكون النبى ﷺ وخلفاؤه الراشدون وسلف الأمة وأئمتها قاصرين، لجهلهم بذلك وعجزهم عن معرفته، أو مقصرين لعدم بيانهم للأمة، وكلا الأمرين بطلان شديد.

ـ ومما يلزم أيضًا منه أن كلام الله ورسوله ﷺ ليس مرجعًا للناس فيما يعتقدونه فى ربهم وإلههم، وإنما المرجع فى ذلك تلك العقول المضطربة المتناقضة، وما خالف تلك العقول سبيله التكذيب إن وجدوا إلى ذلك سبيلاً، أو التحريف الذى يسمونه تأويلاً، إن لم يتمكنوا من تكذيبه.

ـ ومما يلزم كذلك من مذهب التأويل الخاطئ، جواز نفى ما أثبته الله تعالى ورسوله ﷺ، فيقال مثلا فى قوله تعالى: ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ** ﴾ أنه لا يجىء، وفى قوله ﷺ: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**» إنه لا ينزل، لأن إسناد المجىء والنزول إلى الله تعالى مجاز عندهم، وأظهر علامات المجاز عند القائلين به صحة نفيه، ونفى ما أثبته الله تعالى ورسوله ﷺ من أبطل الباطل، ولا يمكن الانفكاك عنه بتأويله إلى (أمره) لأنه ليس فى السياق ما يدل عليه.

فكل ما تقدم يدلك على خطأ مذهب التأويل وأنه تعطيل لصفات الله تعالى.

إن الله سبحانه أعلم بنفسه من جميع مخلوقاته، وهو سبحانه لا يخبر إلا حقًّا وصدقًا، ولا يوجد كلام أفصح وأبين من كلامه سبحانه، ولا يمكن أن يظن ظان أنه تعالى أراد أن يعمى الحق على الخلق فى نصوص الصفات ليستخرجوه بعقولهم، أو أن رسوله ﷺ، وهو أعلم الخلق بربه، ترك بيان هذه المسألة العظيمة ولم يبين للناس أن هناك معانى أخرى لنصوص الصفات غير ما يدل عليه ظاهر الكلام وحقيقته !.

ولكن تحكيم العقول فى النصوص الشرعية، ومخالطة شبهة تشبيه الخالق بالمخلوق لقلوب البعض، أدى إلى هذا المذهب الباطل.

* **تنبيه**: لا يُقال إن هناك بعض العلماء المعروفين بالنصيحة لله تعالى ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم، قد قالوا بالتأويل، فكيف ذلك؟ وذلك لأن الحق لا يوزن بالرجال، ولكن يوزن الرجال بالحق. وإن الإنسان بشر غير معصوم، والكمال لله تعالى وحده. ثم إذا كانت المسألة مسألة رجال، فإن الذين هم على طريق السلف الصالح ولا يقولون بهذا المذهب الباطل هم أجل وأعظم وأهدى وأقوم من الذين هم على طريق أهل التأويل، فالأئمة الأربعة مثلا، أصحاب المذاهب المتبوعة ليسوا على هذا المذهب الخاطئ، بل يقولون بقول السلف بحمل هذه النصوص على حقيقتها مع جهلنا بكيفيتها، لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، وإذا ارتقيت إلى من فوقهم من التابعين وجدتهم لم يقولوا بهذا القول الخاطئ. وإذا علوت إلى عصر الصحابة والخلفاء الأربعة الراشدين، لم تجد فيهم من حذا حذو هؤلاء المعطلة، فى أسماء الله تعالى وصفاته.

ونحن لا ننكر أن بعض المنتسبين للتأويل لهم قدم صدق فى الإسلام والذب عنه والعناية بكتاب الله تعالى وبسنة رسوله ﷺ والحرص على نفع المسلمين وهدايتهم، ولكن هذا لا يستلزم عصمتهم من الخطأ فيما أخطأوا فيه، ولا قبول قولهم فى كل ما قالوه، ولا يمنع من بيان خطئهم ورده لما فى ذلك من بيان الحق وهداية الخلق.

ولا ننكر أيضًا أن لبعضهم قصدًا حسنًا فيما ذهب إليه، وخفى عليه الحق فيه، ولكن لا يكفى لقبول القول حسن قصد قائله، بل لا بد أن يكون موافقًا لشريعة الله - عز وجل - فإن كان مخالفًا لها وجب رده على قائله، كائنًا من كان، لقول رسول الله ﷺ: « **مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيه أمْرُنا فهو رَدٌّ** » .

* **تنبيه آخر:** جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ تعالى يقولُ يومَ القيامة : يابنَ آدمَ مرضتُ فَلَمْ تَعُدْنى ، قالَ : يارب كيفَ أعودكَ وأنتَ رب العالمين؟! قالَ : أما علمتَ أنَ عبْدِى فُلانًا مَرِضَ فلَمْ تَعُده أما علمتَ أنّكَ لو عُدته لوجدتنى عِنْدهُ ..**» الحديث.

فهذا الحديث من أكبر الحجج الدامغة لأهل التأويل الذين يحرفون نصوص الصفات عن ظاهرها بلا دليل من الكتاب والسنة، لشبة باطلة، إذ لو كان المراد خلاف ظاهرها كما يقولون لبينه الله تعالى ورسوله ﷺ كما فى هذا الحديث.

* **تنبيه ثالث:** قال الإمام ابن أبى العز - رحمه الله - فى شرحه لمتن الطحاوية:

«والحق ما دل عليه القران، فهو حق، وما كان باطلاً، لم يدل عليه، والمنازعون - يعنى المعطلة - يدَّعون دلالته على الباطل الذى يتعين طرفه! فيقال لهم: هذا الباب الذى فتحتموه، وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به على إخوانكم المؤمنين فى مواضع قليلة حقيقة، فقد فتحتم عليكم بابًا لأنواع المشركين والمبتدعين، لا تقدرون على سده، فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعى، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ؟!.. فإن قلتم: ما دل القاطع العقلى على استحالته تأولناه، وإلا أقررناه!.. قيل لكم: وبأى عقل نزن القاطع العقلى؟! فإن القرمطى الباطنى يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع! .. ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد! .. ويزعم المعتزلى قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى، وعلى امتناع قيام علمٍ أو كلامٍ أو رحمةٍ به تعالى!!. . وباب التأويلات التى يدعى أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تنحصر فى هذا المقام.

ويلزم حينئذ محذوران عظيمان :

أحدهما أن لا نقر بشيء من معانى الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثًا طويلة عريضة فى إمكان ذلك بالعقل، وكل طائفة من المختلفين فى الكتاب يدعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه، فيؤول الأمر إلى الحيرة.

المحذور الثانى: أن القلوب تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به الرسول، إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد، والتأويلات مضطربة، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد، وخاصة النبيٍّ هى الإنباءُ، والقرآن: هو النبأ العظيم. ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد، لا للاعتماد، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل عليه، وإن خالفته أولوه! وهذا فَتْحُ بَابِ الزندقة والانحلال، نسأل الله العافية» اهـ.[١]،[٢] .

* **تنبيه أخير**: قد علمنا الآن أن الاعتقاد الصحيح فى نصوص الصفات: (أنها معلومة لنا باعتبار المعنى، مجهولة لنا باعتبار الكيفية)، فالذى نفوضه إلى الله تعالى هو كيفية هذه الصفات وليس معناها.

وكما بَيَّنَا خطأ مذهب التأويل الفاسد فى نصوص الصفات، نود أن نحذر من مذهب فاسد آخر فى هذه النصوص ، وهو ما يُسمى بمذهب (التفويض).

والمفوضة يقولون: إن نصوص الصفات ألفاظ لا تُعقل معانيها، ولا يُدرى ما أراد الله ورسوله منها، ولكن نقرؤها ألفاظًا لا معانى لها ! ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله، فلا نعتقد فيه تمثيلاً ولا تشبيهًا، ولا ندرى معنى لها، وننكر على من تأولها، ونفوض معناها وكيفيتها إلى الله.

وهذا القول بالتفويض يؤدى إلى استلزامات شنيعة قبيحة، منها:

*إن القرآن ــ حاشا لله تعالى ـ مليء بالحشو الذى لا فائدة منه، مما يُحتم

---

(١) شرح الطحاوية (١/ ٢٥٧) .

(٢) راجع كتاب «القواعد المثلى» لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين.

حذفه ليوصف بالكمال، وهذا كلام باطل لقوله تعالى: ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾[1] .

* أن الله تعالى خاطب عباده بالألغاز والأحاجى، وهو سبحانه قادر على عكس ذلك، وهذا باطل؛ لأنه يؤدى إلى القول بأن كلام الله بلا معنى! وهذا مخالف لنصوص الشرع العديدة والتى قدمنا بعضها، ونذكر منها أيضًا: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** ﴾[2] .

* أن الرسول ﷺ بلغ ما لا يعلم ، ولم يفهم ما جاء فى التنزيل، وهذا باطل لكثير من الأدلة، منها قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾[3] .

* أن الصحابة خدعوا أنفسهم بادعائهم الفهم وموافقة النبى ﷺ فى إيمان لا يعملون حقيقته، وهذا باطل؛ لقوله سبحانه عنهم: ﴿ **أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾[4] .

* أن ظاهر النصوص الشرعية يحمل معنى مستهجن يخاف المفوض من مواجهته، وهذا باطل لأن الله ـ عز وجل ـ أمرنا بتدبر آياته وفهمها فى حدود إدراكنا فقال تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴾[5] .

وكيف أيضًا يحثنا سبحانه على تدبر وفهم كلام لا يُعقل معناه، ولا يُدرى مرماه، وهو كالطلاسم! كما يدعون ؟!

ومن العجيب أن البعض يدعى أن هذا المذهب الباطل (التفويض) هو مذهب السلف !!.

---

(١) فصلت : ٤٢ .

(٢) الزمر : ٢٣ .

(٣) إبراهيم : ٤ .

(٤) الأنفال : ٧٤ .

(٥) النساء : ٨٢ .

إن السلف ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يفهمون معانى الصفات العامة، ويفوضون الكيفية فقط، فلم يكونوا بالمؤولين المحرفين، ولا بالمشبهين المجسمين، ولا بالمفوضين الجاهلين، ولا بالمعطلين الجاحدين، بل هم أصحاب فهم صحيح، وفقه دقيق، إذ هم وسط بين هذه النِّحَل المختلفة، ومنهجهم لبن خالص يخرج من بين فَرثْ التشبيه ودم التعطيل؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

يقول الإمام **ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ فى بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول [١] عن أصحاب هذا المذهب:

«لزم من مذهبهم أن يعتقدوا أن لهذه الآيات والأحاديث معانى تخالف مدلولها المفهوم منها، وأن ذلك المعنى المراد بها لا يعلمه إلا الله، لا يعلمه الـمَلَك الذى نزل بالقرآن وهو جبريل ـ عليه السلام ـ ولا يعلمه محمد ﷺ ولا غيره من الأنبياء، ولا يعلمه الصحابة والتابعون بإحسان ـ رضى الله عنهم ـ وأن محمداً ﷺ كان يقرأ قوله تعالى: ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾[٢] ، وقوله تعالى: ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ [٣] ، وقوله تعالى: ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** ﴾[٤] ، وغير ذلك من آيات الصفات، بل ويقول: « **يَـنْزِلُ رَبُّـنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيا**..»[٥] ونحو ذلك، وهو لا يعرف معانى هذه الأقوال، بل معناها الذى دلت عليه لا يعــرفه إلا الله، ويظنون أن هذه طريقة السلف! وهؤلاء أهل التضليل والتجهيل ـ التفويض ـ الذين حقيقة قولهم: إن الأنبياء وأتباع الأنبــياء جاهــلون ضــالون، لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء». أهـ بتصرف يسير.

وخلاصة القول: إن أسماء الله سبحانه وتعالى كلها من قبيل المحكم، وليست من المتشابه، لأن معانيها معروفة فى لغة العرب غير مجهولة، وإنما المجهول هو الكنه والكيفية فقط كما بينا.

---

(١) [١/ص١٤، ١٥]   (٢) طه : ٥   (٣) فاطر : ١٠

(٤) المائدة : ٦٤ .   (٥) متفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

■ **التنبيه الخامس: « أخطاء شائعة تنافى التأدب مع هذه الأسماء »**

كثير من الناس يخطئ عند نطقه للأسماء التى تبدأ بكلمة (عبد) مثل (عبدالله ـ عبد الرحيم ـ عبد الكريم ـ عبد الوهاب ـ عبد المجيد) فينطقون مثلاً اسم (عبدالله) هكذا: (عبدالاَّ) فيحولون لفظ الجلالة إلى هذه الكلمة المحرفة (ألا)؟! وينطقون اسم (عبد الرِّحيم) بكسر الراء، بدلاً من فتحها!! وينطقون اسم (عبد الكَريم) بكسر الكاف، بدلاً من فتحها!! وينطقون اسم (عبد الوهَّاب) بفتح حرف الهاء فقط، مع عدم تشديده!! وينطقون اسم (عبد المَجيد) بكسر الميم، بدلاً من فتحها!! وهذه الأخطاء بجانب أنها ليست من التأدب مع الله ـ عز وجل ـ فإنها تحول معنى هذه الأسماء الحسنى وتغيره، وفى هذا ـ والله تعالى أعلم ـ شىء من الإلحاد فى أسمائه ـ جلا وعلا ـ، فيجب التنبه لذلك وتجنبه. هذا ومن الأخطاء الشائعة أيضًا، أن كثيرًا من الناس عندما يرى أو يسمع شيئًا مفزعا يقول: (يا ساتر يارب) أو (يا ساتر) فقط، وهذا خطأ أيضًا، لأنه لم يرد أن من أسمائه تعالى اسم (الساتر)، ويمكن لهؤلاء أن يقولوا: (يا ستِّير) فإن اسم الستير من أسماء الله تعالى الحسنى، كما ذكرنا ، وكما سيأتى أيضاً .

■ **التنبيه السادس: «فى تنزيه الله تعالى عن مشابهة مخلوقاته»**

اتفق أهل السنة على أن الله ـ جل وعلا ـ لا يشبهه ولا يماثله شىء، لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله، فسبحانه لا يشبه شيئًا من مخلوقاته، ولا يشبهه شىء منها، وصفاته كلها خلاف صفات خلقه ، فهو ـ سبحانه ـ يعلم ولكن لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا، وهكذا ، قال سبحانه ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[1] .

* فقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾: رد على الممثلة المشبهة المذمومين.

* وقوله: ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ : رد على النفاة المعطلة، الذين نفوا وعطلوا صفات الله ـ عز وجل ـ الواردة فى الكتاب والسنة .

---

(١) الشورى : ١١ .

* والتشبيه ينقسم إلى قسمين:

الأول: تشبيه المخلوق بالخالق ، كتشبيه النصارى المسيح ابن مريم - عليه السلام - بالله - عز وجل - وقد حكم الله تعالى عليهم فقال : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾[1] .

فكل من جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق، فهو نظير النصارى فى كفرهم. ويدخل فى هذا القسم أيضًا تشبيه اليهود ــ لعنة الله عليهم ـ عزيرًا، بالله ـ عز وجل ـ وتشبيه المشركين أصنامهم بالله تعالى.

الثاني: تشبيه الخالق بالمخلوق، وذلك كتشبيه المشبهة، الذين يقولون: له وجه كوجه المخلوق! وله سمع كسمع المخلوق! وهكذا تعالى الله جل وعلا عن كل ذلك عُلوًّا كبيرًا، فسبحانه الذى لا يبلغه عقل، ولا يحيط به علم، كما قال تعالى: ﴿ **وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾[2] .

ولا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه تعالى، الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

فمن شبهه سبحانه بشىء من خلقه أو العكس، فقد كفر. ومن أنكر ما وصف الله تعالى به نفسه، فقد كفر، وليس فيما وصف الله تعالى به نفسه ولا رسوله تشبيه.

■ التنبيه السابع: « أسماء الله تعالى الحسنى كلها توقيفية»

* أسماء الله تعالى كلها حسنى، وسميت بذلك لأنها بالغة فى الحسن غايته، حيث إنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه. وقد وصف الله ـ عز وجل ـ أسماءه بأنها حسنى فى كتابه الكريم فى أربع مواضع، هى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾[3] ، ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا**

---

(١) المائدة: : ١٧ . (٢) طه : ١١٠ .

(٣) الأعراف : ١٨٠ .

فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾(١) ، ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾(٢) ، ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾(٣) .

* **أما معنى أنها توقيفية:** أى أنه يجب الوقوف فيها على ما جاء فى الكتاب والسنة، فلا يزاد على ذلك ولا ينقص، بل يكتفى بما وردت به نصوص الشرع لفظـًا ومعنى. فعقل الإنسان لا يمكنه إدراك ما يستحقه سبحانه من الأسماء، فوجب الوقوف فى ذلك على النص، حتى لا نتقول على الله تعالى بغير علم. فكل من سمى الله ـ عز وجل ـ بما لم يُسم به نفسه، أو أنكر شيئًا مما سمى به تعالى نفسه فقد ارتكب جناية فى حق الله وعرض نفسه لشديد العقاب.

* وقد ورد فى القرآن أفعال أطلقها الله تعالى على نفسه المقدسة مقيدة ولم يتسم منها باسم كقوله تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾(٤) ، وقوله: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾(٥) ، وقوله: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾(٦) ، وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) ﴾(٧) ، وقوله: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾(٨) ، فلا يجوز لأحد أن يسمى الله ـ جل وعلاـ: الماكر أو الناسى أو المستهزئ أو الكياد أو المخادع، أو نحو ذلك مما يتعالى عنه سبحانه وتعالى، وذلك لأنه تعالى لم يسم نفسه بذلك، ولا سماه بها رسوله ﷺ، ولما فى ذلك من الدلالة على معنى مذموم، ولما فى إطلاقها على الله غير مقيدة، نوع من مَثَلِ السوء فيكون مطلقها قد أقام بالله تعالى مثل سوء، والله سبحانه منزه عن ذلك. ويمتنع الوصف والإخبار بمطلق هذه الأفعال، ولكن يجوز ذلك مقيدًا كما جاء فى الشرع، كأن تقول : « الله يستهزى بالكافرين» ونحو ذلك.

---

(١) الإسراء : ١١٠.
(٢) طه : ٨.
(٣) الحشر : ٢٤.
(٤) الأنفال: ٣٠.
(٥) التوبة : ٦٧.
(٦) البقرة : ١٥ .
(٧) الطارق : ١٥، ١٦ .
(٨) النساء : ١٤٢ .

يقول الإمام ابن القيم:

«ومن هنا يُعلم غلط بعض المتأخرين وزَلَله الفاحش فى اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسمًا مطلقًا فأدخله فى أسمائه الحسنى! فاشتق له اسم الماكر، والخادع، والفاتن، والمضل، والكاتب ونحوها من قوله: ﴿ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾، ومن قولـه: ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾، ومن قوله: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[1]، ومن قوله: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾[2]، وهذا خطأ من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء، فإطلاقها عليه لا يجوز.

الثانى: أنه سبحانه أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيدة، فلا يجوز أن ينسب إليه مسمَّى الاسم عند الإطلاق.

الثالث: أن مسمى هذه الأسماء منقسم إلى ما يمدح عليه المسمى به، وإلى ما يذم، فيحسن فى موضع، ويقبح فى موضع، فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل.

الرابع: أنه هذه ليست من الأسماء الحسنى التى يسمى بها سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾[3] وهى التى يحب سبحانه أن يثنى عليه ويحمد بها دون غيرها.

الخامس: أن هذا القائل لو سُمِّى بهذه الأسماء، وقيل له هذه مدحتك وثناء عليك، فأنت الماكر الفاتن المخادع المضل اللاعن الفاعل الصانع ونحوها لما كان يرضى بإطلاق هذه الأسماء عليه ويعدها مدحة، ولله المثل الأعلى سبحانه. أهـ[4].

---

(١) طه: ١٣١.

(٢) الرعد: ٢٧.

(٣) الأعراف: ١٨٠.

(٤) طريق الهجرتين (٤٠٤).

* وما سبق ينطبق أيضًا على غير ما أطلق من الأفعال التى هى فى سياق الجزاء والعقاب، وذلك فى الأفعال التى أطلقها الشرع فى سياق المدح والثناء والحمد، كقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[1] ، فلا يجوز أن نسمى الله تعالى باسم (المريد)، ولكن يجوز أن نقول: (الله مريد الخير)، وهكذا.

* وهناك أيضًا أسماء لله تعالى من الأدب ألا تطلق إلا مقترنة بمقابلاتها، وذلك لأنها لم ترد فى الشرع إلا هكذا، منها: (القابض - الباسط) ، و(المقدم - المؤخر). مع ملاحظة أن هذه الأسماء التى لها مقابل هى تلك التى يكون فعلها فى مخلوقات الله تعالى، أما الأسماء التى تمثل أوصافًا ذاتية لله تعالى، فهى لا تقبل العكس.

** هذا ويمكن القول أن ما جاء فى الكتاب والسنة بالوصف والتسمية أو بالوصف فقط كالتالى:

* ما أطلقه الله تعالى على نفسه من الأفعال بلا قيد، نحو ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

* ما أطلقه الله تعالى على نفسه من الأفعال بقيد،نحو: ﴿ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾.

* ما ذكره الله تعالى واصفًا به نفسه، نحو: ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾.

* ما جاء من الأسماء المركبة، نحو: (المقدم - المؤخر).

* الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة، نحو ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

* الاسم العلم الدال على الذات.

فهذه الأقسام كلها تطلق على الله تعالى وصفًا وتطلق تسمية، ما عدا القسمين الأولين، فيجوز أن يوصف الله تعالى بهما، ولا يجوز أن يسمى بأسماء الفاعلين منهما.

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

وقد وردت في الـــشرع أســـماء مـضافة نـحو ﴿ **نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾، و﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** ﴾، ونحن مع العلماء الذين يقولون بجواز اشتقاق اسمًا لله تعالى منها، إذا لا حجة لغيرهم إلا أن هذه الأسماء مضافة، ويكفى أن نعلم أن اسمًا من أعظم أسماء الله تعالى، وهو اسم (الرب) لم يرد فى القرآن إلا مضافًا.

■ **التنبيه الثامن: « لفظ الجلالة وخصوصيته »**.

إن أسماء الله الحسنى هي تلك الأسماء التى جاءت فى الشرع للدلالة على ذاته - سبحانه وتعالى - وهذه الدلالة تنقسم إلى قسمين: دلالة عَلَمية، ودلالة وصفية، والدلالة العلمية على ذات الحق سبحانه وتعالى هى لفظ الجلالة (الله). أما سائر الأسماء الحسنى الأخرى فهى فى الأصل للوصف، لدلالتها على أوصاف بالغة الكمال.

ولفظ الجلالة وإن كان لا يمثل صفة بعينها، إلا أنه مستلزم لجميع معانى الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم وليس العكس كما فى قوله ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾[1] ونحوها من الآيات.

ولذلك يقال: الرحمن، والرحيم، والعزيز، والحكيم، من أسماء الله، ولا يقال العكس .

فلفظ الجلالة هو أشهر أسمائه تعالى، وأعلاها محلاً فى الذكر والدعاء، وقد صار شعار الإيمان، وإمام سائر الأسماء، وقد قيل إنه الاسم الأعظم[2] .

---

(١) الأعراف: ١٨٠ .

(٢) انظر: بحث هذه المسالة ــ أنه الاسم الأعظم - فى كتاب الأسماء والصفات لعمر بن سليمان ص(٨٦ــ٩٠) .

■ **التنبيه التاسع: « لا يدخل فى أسماء الله تعالى ما كان من صفات أفعاله أو صفات أسمائه»** .

وذلك مثل: شديد العقاب، وسريع الحساب، ورفيع الدرجات، لأن الشديد والسريع من صفات أفعاله، فلا فرق فى المعنى بين قوله : إن الله شديد العقاب، وسريع الحساب، ورفيع الدرجات، وبين قولنا: إن عقاب الله شديد، وحسابه سريع، ودرجاته رفيعة.

■ **التنبيه العاشر : «الأسماء الجامدة ليست من أسماء الله تعالى»**

فليس من أسمائه ـ عز وجل ـ مثلاً: الدهر، والشىء، ونحو ذلك، لأن هذه الأسماء لا تتضمن معنى يلحقها بالأسماء الحسنى فالأسماء الحسنى أعلام وأوصاف ، ولأن الله تعالى لم يتسم بها ولم يسمه بها رسوله ﷺ. وقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «**قال اللهُ ـ عزَّ وجلّ ـ: يُؤذينى ابن آدمَ، يَسُبُّ الدَّهَر، وأنا الدهْرُ، بيدى الأمرُ، أُقَلِّبُ الليلَ والنهارَ**».

فهذا الحديث قد يفهم منه أن (الدهر) اسم من أسماء الله الحسنى، وهو ليس كذلك.

فهو **أولاً**: اسم جامد لا يتضمن معنى يلحقه بالأسماء الحسنى.

وثانيـًا: إن اسم الدهر اسم للوقت والزمان.

أما معنى قوله تعالى: «**وأنا الدهر**»، فهو كما قال الإمام الخطابى ـ رحمه الله ـ: «أى أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التى ينسبونها إلى الدهر، فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور، عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها، وإنما الدهر زمان جعل ظرفـًا لمواقع الأمور. . .» أهـ. ومما يدل على قول الإمام الخطابى ـ رحمه الله ـ أنه تعالى قال: ﴿ **يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ والليل والنهار هما الدهر، فلا يمكن أن يكون المقلِّب (بكسر اللام) هو المقلَّب (بفتحها) .

■ **التنبيه الحادى عشر: « لا يدخل فى أسمائه تعالى على الأرجح ما بدئ بذو».**

وذلك نحو: ذو الطول، وذو العرش. وذلك لأن (ذو) فى اللغة بمعنى (صاحب) فيكون معنى (ذو الطول) أى: صاحب السعة والغنى، ومعنى (ذو العرش): صاحب العرش.

■ **التنبيه الثانى عشر: « دعاء الله تعالى ليس مقصورًا على أسمائه الحسنى دون صفاته وأفعاله».**

فكما يُدعى سبحانه بأسمائه الحسنى، فإنه يدعى كذلك بصفاته الحسنى وأفعاله، وقد جاء عن أم سلمة - رضى الله عنها - أنه ﷺ كان أكثر دعائه: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» (١) .

■ **التنبيه الثالث عشر: «أسماء الله تعالى وأسماء المخلوقين».**

تفارق أسماء الله تعالى أسماء المخلوقين فى عدة أمور ، منها أن أفعاله تعالى مشتقة من أسمائه، وأما المخلوقون فأسماؤهم مشتقة من أفعالهم، فيستدل بأسمائه تعالى على ما يمكن أن يتصف به من الأفعال، فيقال: اسم (حكيم) فأفعاله فى غاية الحكمة، وأما المخلوقون فيستدل بأفعالهم على أسمائهم، فيقال: بَخِلَ ، فهو بخيل، وأكرم، فهو كريم، وهكذا .

■ **التنبيه الرابع عشر: «تعريف الاسم».**

الاسم مشتق من (السُّمُو) وهو العلو، فالاسم يظهر به المُسَمى ويعلو، وهذا مذهب النحاة البصريين.

وقال النحاة الكوفيون: هو مشتق من (الوَسْم) وهو العلامة؛ لأن كل ما سُمِّى فقد نُوِّهَ باسمه وَوُسِمَ .

---

(١) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٠٩١)، وصحيح الجامع (٤٨٠١) .

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رحمه الله :

«لكن اشتقاقه من (السمو) هو الاشتقاق الخاص الذى يتفق فيه اللفظان فى الحروف وترتيبها، ومعناه أخص وأتم، فإنهم يقولون فى تصريفه (سميت)، ولا يقولون (وسمت)، وفى جمعه (أسماء) لا (أوسام)، وفى تصغيره (سمى) لا (وسيم)، ويقال لصاحبه (مسمى) ولا يقال (موسوم)، وهذا المعنى أخص.

والاسم يتناول اللفظ، والمعنى المتصور فى القلب، وقد يُراد به مجرد اللفظ، وقد يُراد به مجرد المعنى ، فإنه من الكلام، و(الكلام) اسم للفظ والمعنى، وقد يُراد به أحدهما؛ ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو لسانه، فقد ذكره، لكن ذكره بهما أتم». أهـ بتصرف [(١)] .

■ التنبيه الخامس عشر: «هل الاسم هو عين المسمى أم غيره؟».

وهذه المسألة من المسائل الحادثة التى لم يعرفها السلف الأوائل من الصحابة والتابعين، ولم ينقل عنهم أنهم خاضوا فيها، ولذلك قال عنها الإمام ابن جرير ـ رحمه الله : إنها من الحماقات الحادثة التى لا أثر فيها فيُتبع، ولا قول من إمام فيستمع، فالخوض فيها شين، والصمت عنها زين[(٢)] . ولكن لما كان الكلام فى هذا الأمر مستمرًا من أهل البدع والضلالات، اضطر أهل السنة للرد على هؤلاء، أو تفنيد أقوالهم الباطلة وبيان الحق فى هذه المسألة.

قال الإمام **ابن تيمية** ـ رحمه الله تعالى: « فإن الناس قد تنازعوا فى ذلك، والنزاع اشتهر فى ذلك بعد الأئمة، بعد أحمد وغيره، والذى كان معروفًا عند أئمة السنة، أحمد وغيره: الإنكار على (الجهمية) الذين يقولون : أسماء الله مخلوقة، فيقولون : الاسم غير المسمى، وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق، وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف وغلظوا فيهم القول؛ لأن أسماء الله من كلامه، وكلام الله غير مخلوق، بل هو المتكلم به، وهو المسمى لنفسه بما فيه من الأسماء.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/٢٠٧ ـ ٢١٠) . (٢) صريح السنة/٢٦.

والمقصود هنا أن المعروف عند أئمة السنة إنكارهم على من قال أسماء الله مخلوقة، وكان الذين يطلقون القول بأن الاسم غير المسمى، هذا مرادهم، فلهذا يروى عن الشافعى والأصمعى وغيرهما القول: إذا سمعت الرجل يقول الاسم غير المسمى، فاشهد عليه بالزندقة، ولم يعرف أيضًا عن أحد من السلف أنه قال الاسم هو المسمى، بل هذا قاله كثير من المنتسبين إلى السنة بعد الأئمة، وأنكره أكثر أهل السنة عليهم.

ثم منهم من أمسك عن القول فى هذه المسألة نفيًا وإثباتًا، إذ كان كل من الإطلاقين بدعة، كما ذكره الخلال عن إبراهيم الحربى وغيره، وكما ذكره أبو جعفر الطبرى فى الجزء الذى سماه (صريح السنة).

والذين قالوا الاسم هو المسمى كثير من المنتسبين إلى السنة، مثل: أبى بكر عبد العزيز، وأبى القاسم الطبرى، واللالكائى، وأبى محمد البغوى وغيرهم، وهو أحد قولى أصحاب أبى الحسن الأشعرى، اختاره أبو بكر بن فورك وغيره. وهؤلاء الذين قالوا: إن الاسم هو المسمى، لم يريدوا بذلك أن اللفظ المؤلف من الحروف هو نفس الشخص المسمى به، فإن هذا لا يقوله عاقل، ولهذا يُقال: لو كان الاسم هو المسمى لكان من قال (نار) احترق لسانه.

ومن الناس من يظن أن هذا مرادهم ويشنع عليهم، وهذا غلط عليهم، بل هؤلاء يقولون: اللفظ هو التسمية، والاسم ليس هو اللفظ بل هو المراد باللفظ، فإنك إذا قلت : يا زيد! يا عمرو! فليس مرادك دعاء اللفظ، بل مرادك دعاء المسمى باللفظ، وذكرت الاسم فصار المراد بالاسم هو المسمى.

فلما كانت أسماء الأشياء إذا ذكرت فى الكلام المؤلف فإنما المقصود هو المسميات، قال هؤلاء: (الاسم هو المسمى)، وجعلوا اللفظ الذى هو الاسم عند الناس هو التسمية، كما قال البغوى: «والاسم هو المسمى وعينه وذاته».

ثم قال ـ رحمه الله ـ بعد ذلك: «لو اقتصروا على أن أسماء الشىء إذا ذكرت فى الكلام فالمراد بها المسميات، لكان ذلك معنى واضحًا لا ينازعهم فيه من

*

فهمه، لكن لم يقتصروا على ذلك، ولهذا أنكر قولهم جمهور الناس من أهل السنة وغيرهم، لما فى قولهم من الأمور الباطلة ، مثل دعواهم أن لفظ اسم الذى هو (اس م) معناه ذات الشيء ونفسه، وأن الأسماء ــ التى هى الأسماء ـ مثل زيد وعمرو، هى التسميات، ليست هى أسماء المسميات، وكلاهما باطل مخالف لما يعلمه جميع الناس من جميع الأمم ولما يقولونه».

ثم رد ـ رحمه الله تعالى ـ بعد ذلك على هذا القول الخاطئ، وفند ما استدلوا به عليه بصورة تفصيلية رائعة، يرجع إليها من أراد الاستفاضة. ثم قال: «وأما الذين قالوا: إن الاسم غير المسمى، فهم إذا أرادوا أن الأسماء التى هى أقوال ليست نفسها هى المسميات، فهذا أيضًا لا ينازع فيه أحد من العقلاء.

ولكن هؤلاء الذين أطلقوا من الجهمية والمعتزلة أن الاسم غير المسمى، مقصودهم: أن أسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق.

ولهذا قالت الطائفة الثالثة: «لا نقول هى المسمى ولا غير المسمى» .

وبعد أن رد ـ رحمه الله ـ على الجهمية، قال: «وأما الذين يقولون: إن الاسم للمسمى، كما يقول أكثر أهل السنة، فهؤلاء وافقوا الكتاب والسنة والمعقول، قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾، وقال ﴿ **أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾.

وقال النبى ﷺ: « **إن لله تسعة وتسعين اسمًا** »، وقال: « **إن لى خمسة أسماء، أنا محمد، وأحمد ، والماحى، والحاشر، والعاقب** » وكلاهما فى الصحيحين». اهـ باختصار وتصرف يسير [١] .

* وقال شارح متن الطحاوية ما يلى:

«وكذلك قولهم: الاسم عين المسمى أوغيره ؟

وطالما غلط كثير من الناس فى ذلك وجهلوا الصواب فيه، فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده، ونحو ذلك، فهذا المراد به المسمى نفسه .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ١٨٥ ــ ٢١٢) .

وإذا قلت: الله اسم عربى، والرحمن اسم عربى، والرحمن من أسماء الله تعالى، ونحو ذلك، فالاسم هاهنا للمسمى، ولا يقال غيره، لما فى لفظ الغير من الإجمال، فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى، فحق، إن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له، حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد فى أسماء الله تعالى» ا هـ. (١) .

ومما مضى نرى أن الذين قالوا من أهل السنة والجماعة بأن الاسم هو المسمى، لا ينازعون فى أن الاسم غير المسمى من جهة أن الأسماء أقوال، وأنها ليست هى المسميات، فهذا لا ينازع فيه أحد من العقلاء.

لكنهم قالوا ذلك ـ أى أن الاسم هو المسمى ـ ردًّا على الجهمية والمعتزلة الذين قالوا: إن الاسم غير المسمى، ويقصدون أن أسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق، وأن الله كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء، وهذا كله من الباطل المعلوم شرعًا وعقلاً.

■ التنبيه السادس عشر: «المَثَلُ الأعلى»

ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء ، ولم يمنع عدم النظير فى الدنيا السلف من فهم ما أخبروا به من ذلك .

فهكذا الأسماء والصفات ، لم يمنعهم انتفاء نظيرها ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها ، بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها ، وانتفاء التمثيل والتشبيه والتعطيل عنها. وهذا هو المثل الأعلى الذى أثبته الله تعالى لنفسه فقال : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٣) .

فنفى سبحانه المِثْل عن هذا المثل الأعلى . فهذا المثل الأعلى هو الذى آمن به المؤمنون، وأنس به العارفون ، وقامت شواهده فى قلوبهم ، بالتعريفات الفطرية،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية للإمام ابن أبى العز (١/ ١٠٢)

(٢) الروم : ٢٧ .

(٣) الشورى : ١١

*

المكملة بالكتب الإلهية ، المضبوطة بالبراهين العقلية ، فاتفق العقل والسمع والفطرة على الشهادة بثبوته .

■ **التنبيه السابع عشر : «فى بيان أن هذه الأسماء ليس لدينا لها عدد محدد»**

أسماء الله ـ تعالى ـ ليست محصورة بعدد معين، وذلك لما ثبت عن عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «**ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: اللَّهُمَّ إنى عَبْدُكَ وابنُ عَبْدِكَ وابْنُ أَمَتِكَ ، ناصيتى بيدكَ ، ماضٍ فِىَّ حُكْمُكَ، عَدلٌ فِىَّ قَضَاؤُكَ ، أسألكَ بكلِ اسم هو لك سَميتَ به نَفسكَ ، أو عَلَّمْتَهُ أحدًا من خَلقكَ ، أو أنزلتهُ فى كتابكَ ، أو استأثرتَ به فى علمِ الغَيْب عنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ القُرآنَ العَظيْمَ رَبِيعَ قَلبى ونُورَ صَدْرى ، وَجَلاءَ حُزْنى، وَذَهَابَ هَمِّى، إلا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ ، وأبدلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا** ». قال: فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال: «**بلى، ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها**»[1] .

فما استأثر الله ـ تعالى ـ به فى علم الغيب عنده، لا يمكن لأحد حصره ولا الإحاطة به .

وأما ما جاء فى الحديث: « **إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا** » فهذا القول لا يقطع بالحصر للأسماء فى هذا العدد ، ولو كان المراد ذلك لكانت العبارة: «إن أسماء الله تعالى تسعة وتسعون اسمًا» أو نحو ذلك، فمعنى الحديث إذًا، إن هذا العدد من شأنه أن من أحصاه دخل الجنة.

■ **التنبيه الثامن عشر : «أنواع المضاف إلى الله تعالى» هو قسمان:**

* **أعيان:** وهى الذوات المنفصلة المستقلة بنفسها عما سواها، والمراد بها هنا ما نسب إلى الله نسبة خلق وإيجاد، وهى إذا أضيفت إلى الله تعالى فإما أن تضاف إلى أنها مخلوق من مخلوقاته كقوله تعالى : ﴿ **هَذَا خَلْقُ اللَّه** ﴾. وإما أن تضاف لمعنى يختص به المضاف عن غيره، كأن تقتضى التشريف أو العناية أو أنها تمتاز عن

---

(١) رواه أحمد والحاكم وابن حبان والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى (الصحيحة/ ١٩٩).

غـيرها من الأعيان، وذلك بما يناسب السياق، كما جاء فى القرآن: ﴿ **نَاقَةُ اللَّهِ** ﴾، ﴿ **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ** ﴾.

والإضافة الأولى تقتضى بيان ذلك المضاف ونوعه وكمال من أوجده وأتقن صنعته فكان فى أحسن تقويم وأفضل نظام، والثانية تقتضى تشريف المضاف وتعظيمه فى نفسه .

* **صفات:** وهى المعانى القائمة بالذوات، والمراد بها هنا ما نسب إلى الله تعالى على أنه وصف قائم بذاته، كالعلم والقدرة والحياة.

وهذه الإضافة تقتضى نسبة الصفة إليه تعالى وأن تترتب عليها آثارها، وأن تنسب هذه الآثار للموصوف بها، وأن يشتق له منها اسم .

■ *التنبيه التاسع عشر*: « فى بيان ما يطلق على الله ـ عز وجل ـ»

إن بيان ما يجرى صفة أو خبرًا على الله ـ تبارك وتعالى ـ أقسام:

* **الأول: ما يرجع إلى نفس الذات،** كقولك عليه سبحانه: ذات، وموجود، وشىء، والضابط هنا هو كل لفظ عام كلى، لم يرد الدليل من الكتاب والسنة على الوصف به، ودل على المدح المحض، الذى لا شائبة للذم به، أو لم يدل عليهما إلا أنه يدل على معنى حسن أو ليس بسيىء.

وقد قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** ـ رحمه الله ــ :

«وأما الإخبار عنه ـ سبحانه ـ فلا يكون باسم سيئ، لكن قد يكون باسم حسن، أو باسم ليس بسيئ وإن لم يحكم بحسنه، مثل اسم شيء، وذات، وموجود إذا أريد به الثابت»[1] .

* **الثانى: ما يرجع إلى صفات الذات**، وقد قَسَّم العلماء صفات ذات الله تعالى إلى:

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٦/ ١٤٢) .

ـ **صفات ثبوتية**، وهى: ما أثبته الله ـ تعالى ـ لنفسه فى كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالعلم، والقدرة، والوجه، واليدين، ونحو ذلك.

ـ **وصفات سلبية**، وهى: ما نفاها الله ـ تعالى ـ عن نفسه فى كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، وكلها صفات نقص فى حقه ـ سبحانه ـ وهى كالموت، والنوم، والنسيان، والعجز، ونحو ذلك.

وقَسَّمَ العلماء أيضًا **الصفات الثبوتية** إلى: **صفات ذاتية**، وهى: التى لم يزل ـ سبحانه ـ ولا يزال متصفـًا بها، كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعزة، والحكمة، والعظمة، والوجه، واليدين، ونحو ذلك. وهذا هو ما سبق ذكره وما نتحدث عنه فى هذه الفقرة ونعنيه ، فإنه يطلق على الله ـ تعالى ـ : العليم، والقدير، والسميع، والبصير، وهكذا .

أما القسم الثانى من الصفات الثبوتية، فهى **الصفات الفعلية**، وهى: التى تتعلق بمشيئة الله ـ تعالى ـ إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا ، وهى التى ستأتى فى النقطة التالية. وننبه على أن الصفة قد تكون ذاتية فعلية باعتبارين، كالكلام، فإنه باعتبار أصله، صفة ذاتية، لأنه ـ سبحانه ـ لم يزل ولا يزال متكلمًا. وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية، لأن الكلام يتعلق بمشيئته سبحانه، يتكلم متى شاء بما شاء، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾[1] .

وكل صفة تعلقت بمشيئته ـ تعالى ـ فإنها تابعة لحكمته، وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجز عن إدراكها، لكننا نعلم علم اليقين أنه ـ سبحانه ـ لا يشاء شيئًا إلا وهو موافق للحكمة، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾[2] .

---

(١) يس : ٨٢.　　(٢) الإنسان : ٣٠.

* **الثالث**: ما يرجع إلى **صفات الفعل**، نحو: الخالق، والرزاق، والمحيى، والمميت، وكل ما يُرى فى السموات والأرض هو أثر من آثار فعله ـ سبحانه.

* **الرابع**: ما يرجع إلى **التنزيه المحض**: كالقدوس، والسلام، وليس فى صورة اللفظ هنا ما يدل على إثبات صفة مدح وجودية، وإن كان معناه يدل عليها دلالة لزومية، إذ لا كمال فى العدم المحض.

* **الخامس**: الاسم العلم المتضمن لجميع معانى الأسماء الحسنى وهو لفظ الجلالة «الله». ولهذا تأتى بقية الأسماء الحسنى صفات له، كقوله ـ تعالى: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ** ﴾[1] ، وقد أضاف ـ سبحانه ـ الأسماء الحسنى كلها للفظ الجلالة فقال: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾[2] .

* **السادس**: الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا يختص بصفة معينة بل هو دال على معناها لا على معنى مفرد، نحو المجيد، والعظيم، والصمد. وفائدة هذا النوع من الأسماء والصفات هو دلالته على عظم الموصوف به ـ عز وجل ـ فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، وتسمى هذه الأسماء: الأسماء الموسوعية لتضمنها سعة المعنى فى الدلالة على عدة صفات.

* **السابع**: الصفة التى تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك زائد على مفرديهما، نحو الغنى الحميد، والعفو القدير، وهذا كعامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة فى القرآن. وهذا الازدواج والاقتران يدل على كمال أوسع وأشمل، إذ فيه جمع بين كمالين، فينتج منهما كمال ثالث لا شك أنه أعظم فى الدلالة من الكمال المفرد.

■ *التنبيه العشرون*: «أسماء الله تعالى تدل على الصفات وهى مشتقة منها، وصفاته تعالى دلت على أسمائه»

فلما كانت أسماء الله تعالى دالة على الوصفية، كان الوصف مصدراً لها، وهى مشتقة منه، وذلك لما يلى:

---

(١) الحشر : ٢٤.　　(٢) الأعراف : ١٨٠ .

* لأنها لو لم تشتق من صفة لم تكن حسنى، إذ نسبة الحسن إليها تدل على أنها مشتقة من معنى حسن.

* ولأنه لو سمى سميعًا ولا سمع له، لكان الاسم كاذبًا، وهذا لا يعقل فى أسماء الله تعالى.

* ولأن الصفة إذا ثبتت للموصوف، اشتق له اسم منها إذا كانت مما يشتق منها.

* ولدلالة الأسماء على الوصفية، إذ لو لم تكن أسماؤه مشتقة من صفاته، لما دلت عليها.

* وللمناسبة الظاهرة بين ألفاظ الأسماء والصفات ومعانيها.

ولا يدخل هنا ما ذكرناه من الأفعال التى أطلقها الله على نفسه على سبيل الجزاء والمقابلة، كصفة مخادعته للكافرين ومكره بهم ونسيانه إياهم ونحو ذلك. فهى دالة على ما يناسب معناها من الأسماء إلا أنها ليست من الأسماء الحسنى، فلا تكون مما يقصد فى الأصل، إذ هو يعنى بدلالة الصفات التى اشتقت منها أسماءه الحسنى، دون ما جرى من الأسماء فى الإخبار بقيده.

انظر التنبيه التالى أيضًا.

■ التنبيه الحادى والعشرون: «أسماء الله الحسنى هى أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافى العَلَمية».

إن دلالة أسماء الله ـ عز وجل ـ نوعان:

(١) **دلالة على العَلَمية**، بأن تدل أسماؤه تعالى على نفسه العلية دلالة أسماء الأعلام المحضة ـ المجردة من الوصفية ـ على مسماها مطلقًا بالوضع العربى.

(٢) **دلالة على الوصفية**، وذلك بأن يكون مدلولها صفة مدح وجودية تدل على بعض ما يتصف به الله تعالى من صفات كماله ونعوت جلاله، اللائقة والمختصة به، لا يشركه فيها أحد من خلقه، إذ هو سبحانه ليس كمثله شىء.

ولو لم تدل أسماء الله على الوصفية المختصة به، للزم من ذلك عدة أمور:

ـ أن هذه الأسماء لو كانت جامدة لا تدل على معنى الوصفية، لم تكن حسنى، لكنها حسنى، فلا بد من دلالتها على الوصفية.

ـ أن من الأسماء الاسم الأعظم، ولو لم يدل على وصف حسن ومعنى كمال لائق بجلال الله تعالى وعظمته، لم يكن لقيد العظمة فائدة، فلم يكن أعظم، إذ هو أفضل الأسماء الحسنى، وهو منها، فتكون دلالته على الوصف أكمل.

ـ قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾ فأثنى بها على نفسه وتمدح بها، والجامد لا مدح فيه ولا دلالة على الثناء له، فلا بد وأن تكون دالة على الوصفية.

ـ وقال تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ والحمد لا يكون إلا على صفة لازمة أو متعدية، ولو لم تكن أسماؤه صفات لما كان محمودًا عليها .

ـ الله تعالى له الأسماء الحسنى دون السوأى، وإنا نميز الاسم الحسن عن الاسم السيئ بمعناه، فلو كانت كلها بمنزلة الأعلام الجامدة التى لا تدل على معنى، لم تنقسم إلى حسنى وسوأى، بل هذا القائل لو سمى معبوده بالميت والعاجز والجاهل، بدل الحى، والقادر، والعليم لجاز ذلك عنده.

ـ يلزم من كونها جامدة عدم تغاير معانيها، فمعنى العليم هو معنى السميع مثلاً! وهذا أمر يعرف فساده ببداهة العقول، إذ لا يعقل عاقل أن معنى الرؤوف هو معنى البصير.

ـ أن الوصفية من لوازم الاسم المشتق، وأسماء الله مشتقة من صفاته، فهى تحمل دلالتها على الذات بالعلمية، وعلى الصفة بالأصل، كما أن ضارب يدل على ذات الضارب وعلى صفة الضرب، فكذلك الأسماء، سميع يدل على صفة السمع، وبصير يدل على صفة البصر.

ـ أن التنزيل جاء باستعمال الأسماء الحسنى تابعة للفظ الجلالة على أنها صفات له، وهذا ليس من شأن الأعلام، كما قال تعالى: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ .

* هذا ودلالة هذه الأسماء الحسنى على صفات الله ـ تعالى ـ لا تُنَافى عَلَميتها الدالة على ذاته. إذ أن صفاته ـ سبحانه ـ مختصة به ، لا يشركه فيها أحد سواه. فهى فى خصوصيتها هذه أشبهت العَلَم فى دلالته على تعيين الذات ، فكان كل منها مختصًا به تعالى .

وهذا بخلاف أوصاف العباد ، فإنها تُنافى عَلَميتهم ، وذلك لأن أوصاف العباد فيها شيوع بين أشخاصهم ، ووجود المثيل والنظير لكل واحد منهم فى صفته ، فهى مضادة للمعنى الذى وضع له العَلَم؛ وهو التعيين للمسمى مطلقًا، والوصف الشائع الذى يتماثل فيه أشخاص ومجموعة من الأفراد ؛ ينافى التعيين الذى وضعت الأعلام من أجله لغة ، فكان الوصف للعباد منافيـًا للعلم فيهم . أما أوصافه سبحانه ـ فكما ذكرنا ـ فهى مختصة به ، يتعين إفراده بها ، وعدم مماثلة غيره له فى شىء من نعوت جلاله وجماله. والعَلَم لا يزيد معناه على ذلك . إذ هو الاسم المعين مسماه مطلقًا، فوافق العَلَم فى أسمائه تعالى صفاته ، إذ أن أعلامه مختصة به ، وهكذا صفاته ، فحصل التعيين له بأعلامه وأوصافه ، فاستحق كمالا من أعلامه وكمالا من صفاته وكمالا من اجتماعهما في الدلالة عليه ، تارة بتعيينه ، وأخرى للدلالة على ما يجب له من صفات جلاله وجماله ـ عز وجل ـ وهذا مقام نفيس ، من أدركه حصل له من العلم بالله ما يفرح به قلبه، وتقر به عينه .

ومما تقدم يتبين لنا خطأ ابن حزم الظاهرى وضلال المعتزلة القائلين : بأن أسماء الله ـ تعالى ـ هى أعلام محضة جامدة ، لا دلالة لها على الوصفية البتة.

■ التنبيه الثاني والعشرون : «دلالة أسماء الله تعالى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة وبالتضمن وبالالتزام»

دلالة الأسماء الحسنى قسمان :

* **دلالة عامة** : وهى الدلالة على العَلَمية والوصفية. وهذا القسم من دلالتها

لا علاقة له بدلالة الأفراد المعنية من أسماء الله ، بل هى دلالة مطلقة من حيث هى أسماء الله لحسنى . وقد تقدم الكلام عليها .

* **دلالة خاصة** : وهى تستفاد من كل اسم من أسماء الله الحسنى بعينه ، وهى ما دل لفظها على الذات وخصوص صفة ، كدلالة (**الرحمن**) على ذات الله - تعالى - وعلى صفة الرحمة . وهى باعتبار الدلالة اللفظية ثلاثة أنواع :

١- **دلالة مطابقة** : وذلك بدلالة الاسم على جميع أجزائه ومدلوله .

٢- **دلالة تضمن** : وذلك بدلالة الاسم على بعض أفراده ومدلوله .

٣- **دلالة التزام** : وذلك بدلالة الاسم على غيره من الأسماء أو الصفات التى تتعلق تعلق وثيق بهذا الاسم .

مثال ذلك : (الـخَالقُ):

* يدل على ذات الله تعالى، وعلى صفة الخلق بالمطابقة.

* ويدل على الذات وحدها، وعلى صفة الخلق وحدها، بالتضمن.

* ويدل على صفتى العلم والقدرة، بالالتزام، لأنه لما ذكر الله تعالى خلق السموات والأرض قال: ﴿ **اللَّهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾[1]. فدل هذا على لزوم صفتى العلم والقدرة لاسم الخالق .

وذلك بخلاف المخلوق ، فقد يُسمى حكيمًا وهو جاهل ، وحكمًا وهو ظالم، وعزيزًا وهو ذليل ، وشريفًا وهو وضيع ، وصالح وهو طالح ، وسعيدًا وهو شقى ، فسبحان الله وبحمده ، هو كما وصف نفسه ، وفوق ما يصفه به خلقه .

---

(١) الطلاق : ١٢ .

■ التنبيه الثالث والعشرون: «فى التفاضل بين الأسماء والصفات»

أسماء الله وصفاته يفضل بعضها بعضًا فى المعنى والمدلول . ولا يلزم من القول بتفاضلها ثبوت نقص فى المفضول ، فإن من الأمور المسلمة شرعًا وعقلاً تفاضل الكمال فى ذاته . وتفسير بعضها ببعض لا يلزم منه أن يكون معنى الصفة والاسم هو معنى الصفة الأخرى والاسم الآخر من جميع وجوه الدلالة المعنوية واللفظية، بل له سبحانه من كل صفة معنى من معانى الكمال والجمال . فإذا فُسرت صفة بأخرى ، فإن هذا التفسير يكون على سبيل التفهيم والتقريب .

■ التنبيه الرابع والعشرون: «معنى اللَّـهُمَّ»

لا خلاف أن معنى (**اللهم**) هو : (يا الله) . ولهذا لا تستعمل إلا فى الطلب ، فلا يُقال : اللهم غفور رحيم ، بل يُقال : اللهم اغفر لى وارحمنى . واختلفوا فى الميم المشدَّدة من آخر الاسم :

فقيل : زيدت عوضًا عن حرف النداء . وقيل : زيدت للتعظيم والتفخيم ، كزيادتها فى (زُرقم) أى : شديد الزرقة . وقيل : هى عوض عن جملة محذوفة، والتقدير : (يا الله أُمَّنَا بخير) أى : اقصدنا .

■ الضميمة الثانية ■

أسماء الله تعالى الحسنى وذكر أدلتها من الكتاب والسنة

اجتهد بعض العلماء فى جمع الأسماء الحسنى من الكتاب والسنة، وذلك لأنه لم يأت حديث صحيح عن رسول الله ﷺ فى تعيينها، والحديث المشهور المروى فى تعيينها، حديث ضعيف لا يصح[1] .

قال **شيخ الإسلام بن تيمية** ـ رحمه الله [2] :

« إن التسعة والتسعين اسمًا لم يرد فى تعيينها حديث صحيح عن النبى ﷺ ، وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذى الذى رواه الوليد بن مسلم عن شعيب ابن أبى حمزة[3] ، وحفاظ أهل الحديث يقولون: هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث[4] » أهـ ـ.

ونحن نذكر الآن ـ بإذن الله تعالى ـ تسعة وتسعين اسمًا مما ترجح لدينا، مع ذكر دليل كل اسم من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

---

(١) راجع كلام الإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى على هذا الحديث فى فتح البارى (١١/٢١٨)، فهو بحث نفيس جداً.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٨٢).

(٣) رواه الترمذى من طريق الوليد بن مسلم أخبرنا شعيب بن أبى حمزة عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعًا .

(٤) أى أنها مدرجة فى الحديث ، وليست من كلام النبى ﷺ .

* أسماء الله تعالى الحسنى التى جُمِعَت من القرآن والسنة *

■ أولا : الأسماء التى جُمِعَت من القرآن:

١- الله
٢- الإله
٣- الرب
٤- الملك
٥- الواحد
٦- الأحد
٧- الحى
٨- الأول
٩- الآخر
١٠- الوارث
١١- القدوس
١٢- السلام
١٣- الحق
١٤- المؤمن
١٥- الأعلى
١٦- العلى
١٧- المُتَعَالِ
١٨- المتكبر
١٩- الظاهر
٢٠- العظيم
٢١- المجيد
٢٢- الكبير
٢٣- النور
٢٤- الواسع
٢٥- الحميد
٢٦- الغنى
٢٧- العالم
٢٨- العليم
٢٩- اللطيف
٣٠- الخبير
٣١- الحكيم
٣٢- القوى
٣٣- المتين
٣٤- العزيز
٣٥- القاهر
٣٦- القهار
٣٧- القادر
٣٨- القدير
٣٩- المقتدر
٤٠- الجبار
٤١- الخالق
٤٢- الخلاق
٤٣- البارئ
٤٤- المصور
٤٥- المهيمن
٤٦- القيوم
٤٧- الحافظ
٤٨- الحفيظ
٤٩- الولى
٥٠- المولى
٥١- النصير
٥٢- الوكيل
٥٣- الكافى
٥٤- الحسيب
٥٥- الصمد
٥٦- المجيب
٥٧- الرزاق
٥٨- الصادق
٥٩- المبين
٦٠- الفتاح
٦١- الهادى
٦٢- الرحمن
٦٣- الرحيم
٦٤- الرؤوف
٦٥- الودود
٦٦- البر
٦٧- الحليم
٦٨- الحَفِى
٦٩- الغفور
٧٠- الغفار
٧١- العفو
٧٢- التواب
٧٣- الكريم
٧٤- الأكرم
٧٥- الوهاب
٧٦- الشاكر
٧٧- الشكور
٧٨- السميع
٧٩- البصير
٨٠- الشيهد
٨١- الرقيب
٨٢- القَريب
٨٣- الباطن

■ ثانيا : الأسماء التى جُمِعَت من السنة:

٨٤- السيد
٨٥- السبُّوح
٨٦- الجميل
٨٧- القابض
٨٨- الباسط
٨٩- المقدم
٩٠- المؤخر
٩١- المحسن
٩٢- الرفيق
٩٣- الشافى
٩٤- السِّتِّير
٩٥- الجواد
٩٦- المعطى
٩٧- المنان
٩٨- الحَيِىُّ
٩٩- الحكم

* * ونذكر فيما يلى أدلة هذه الأسماء الحسنى

■ **أولاً : أدلة الأسماء التى من القرآن:**

(١، ٧، ٤٦) الله ـ الحى ـ القيوم: من قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(٢) الإله. من قوله تعالى: ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٦٣].

(٣) الرب. من قوله تعالى: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٤].

(٤، ١١، ١٢، ١٤، ١٨، ٣١، ٣٤، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥) الملك ـ القدوس ـ السلام ـ المؤمن ـ المتكبر ـ الحكيم ـ العزيز ـ الجبار ـ الخالق ـ البارئ ـ المصور ـ المهيمن. من قوله تعالى: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)** ﴾ [الحشر: ٢٣، ٢٤].

(٥، ٣٦) الواحد ـ القهار. من قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ [الرعد: ١٦].

(٦، ٥٥) الأحد ـ الصمد. من قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)** ﴾ [الإخلاص ١، ٢].

(٨، ٩، ١٩، ٨٣) الأول ـ الآخر ـ الظاهر ـ الباطن ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ** ﴾ [الحديد: ٣].

(١٠) الوارث. من قوله تعالى: ﴿ **وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

(١٣، ٥٩) الحق ـ المبين. من قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** ﴾ [النور: ٢٥].

(١٥) **الأعلى**. من قوله تعالى: ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ [الأعلى: ١].

(١٦) **العلى**. من قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾ [الحج: ٦٢].

(١٧، ٢٢، ٢٧) **المتعال ـ الكبير ـ العالم**. من قوله تعالى: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** ﴾ [الرعد: ٩].

(٢٠) **العظيم**. من قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ [الشورى: ٤].

(٢١) **المجيد**. من قوله تعالى: ﴿ **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ** ﴾ [البروج: ١٥].

(٢٣) **النور**. من قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [النور: ٣٥].

(٣٤) **الواسع**. من قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٧٣].

(٢٥، ٢٦) **الحميد ـ الغنى**. من قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [فاطر: ١٥].

(٢٨، ٦٠) **العليم ـ الفتاح**. من قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ** ﴾ [سبأ: ٢٦].

(٢٩، ٣٠) **اللطيف ـ الخبير**. من قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤].

(٣٢) **القوى**. من قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** ﴾ [الشورى: ١٩].

(٣٣، ٥٧) **المتين ـ الرزاق**. من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [الذاريات: ٥٨].

(٣٥) **القاهر**. من قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ [الأنعام: ٦١].

(٣٧) **القادر**. من قوله تعالى: ﴿ **فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ** ﴾ [المرسلات: ٢٣].

(٣٨) **القدير**. من قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** ﴾ [الروم: ٥٤].

(٣٩) **المقتدر**. من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)** ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]

(٤٢) **الخَلاَّق**. من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الحجر: ٨٦].

(٤٧) **الحافظ**. من قوله تعالى: ﴿ **فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا** ﴾ [يوسف: ٦٤].

(٤٨) **الحفيظ**. من قوله تعالى: ﴿ **وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** ﴾ [سبأ: ٢١].

(٤٩) **الولي**. من قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [الشورى: ٢٨].

(٥٠، ٥١) **المولى ـ النصير**. من قوله تعالى: ﴿ **هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ [الحج: ٧٨].

(٥٢) **الوكيل**. من قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

(٥٣) **الكافي**. من قوله تعالى: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ [الزمر: ٣٦].

(٥٤) **الحسيب**. من قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٦].

(٥٦، ٨٢) **المجيب ـ القريب**. من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ** ﴾ [هود: ٦١].

(٥٨) **الصادق**. من قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ [الأنعام : ١٤٦].

(٦١) **الهادي**. من قوله تعالى: ﴿ **وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٣١].

(٦٢) **الرحمن**. من قوله تعالى: ﴿ **الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)** ﴾ [الرحمن: ١، ٢].

(٦٣، ٧٢) **الرحيم ـ التواب**. من قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [التوبة: ١٠٤].

(٦٤) **الرؤوف**. من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النحل: ٧].

(٦٥، ٦٩) **الودود ـ الغفور**. من قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ** ﴾ [البروج: ١٤].

(٦٦) **البر**. من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴾ [الطور: ٢٨].

(٦٧، ٧٧) **الحليم ـ الشكور**. من قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ [التغابن: ١٧].

(٦٨) **الحفي**. من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا** ﴾ [مريم: ٤٧].

(٧٠) **الغفار**. من قوله تعالى: ﴿ **أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ** ﴾ [الزمر: ٥].

(٧١) العفو. من : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴾ [الحج: ٦٠].

(٧٣) **الكريم**. من قوله تعالى: ﴿ **لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

(٧٤) **الأكرم**. من قوله تعالى. ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** ﴾ [العلق: ٣].

(٧٥) الوهاب. من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴾ [ص: ٣٥].

(٧٦) **الشاكر**. من قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ [النساء: ٧٩].

(٧٨، ٧٩) السميع ـ البصير . من قوله تعالى :﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١].

(٨٠) الشهيد. من قوله تعالى: ﴿ **وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً** ﴾ [النساء: ٧٩].

(٨١) **الرقيب**. من قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

■ثانيـًا : أدلة الأسماء التى من السنة:

(٨٤) **السيد:** عن عبد الله بن الشخير - رضي الله عنه - أنه قال: انطلقت فى وفد بنى عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا . فقال : « **السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالى** » رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع/ ٣٧٠٠) .

(٨٥) **السُّبُّوح:** عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان يقول فى ركوعه وسجوده: «**سُبُّوح قُدُّوس ربُّ الملائكةِ والروح**» رواه مسلم .

(٨٦) **الجميل:** عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «**لا يدخلُ الجنةَ من كان فى قلبِه مثقالُ ذرةٍ من كِبر**» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكونَ ثوبُه حسنًا ونعلهُ حَسَنَةً ؟ قال: «**إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكِبْرُ، بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ**» رواه مسلم .

(٨٧، ٨٨) **القابض - الباسط:** عن أنس - رضي الله عنه - أن الناس قالوا: يا رسول الله، غلا السعر، فَسَعِّر لنا، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله هو المُسَعِّر، القَابِضُ ، البَاسِطُ، الرَّزَاقُ ، وإنى لأرجو أن ألقى الله وليسَ أحدٌ منكم يُطَالِبُنى بمظلمةٍ فِى دمٍ ولا مال** » رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة، وصححه الألبانى فى (غاية المَرام.٣٢٣) .

(٨٩، ٩٠) **المُقَدِّم - المؤخر:** عن على بن أبى طالب - رضي الله عنه - فى حديث طويل له، أن النبى ﷺ كان آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: « **اللهم اغفر لى ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفتُ، وما أنت أعلم به منى، أنت المقدمُ وأنت المؤخرُ ، لا إله إلا أنت**» رواه مسلم .

(٩١) **المحسن:** عن أنس - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «**إِذَا حَكَمْتُم فَاعْدِلُوا وإذَا**

قَتَلتُم فَأَحْسِنُوا ، فَإِنَّ اللهَ مُحْسِنٌ يُحِبُ المحسنينَ » رواه الطبرانى وابن عدى، وصححه الألبانى فى (الصحيحة/ ٤٦٩) .

(٩٢) **الرفيق:** عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ قال: « **إنَّ اللهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، ويُعْطِي على الرفقِ ما لا يُعْطِي على العُنْفِ، ومـا لا يُعْطِي علـى ما سِوَاهُ** » رواه مسلم .

(٩٣) **الشافى:** عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ كان يُعَوِّذُ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى ويقول: « **اللَّهُمَّ رَبَّ الناسِ، أَذْهِب البَأْسَ واشْفِ، أنتَ الشَّافى ، لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءً لا يُغَادِرَ سَقَمًا** » متفق عليه.

(٩٤، ٩٨) **السِّتِّير ـ الحَيِيُّ:** عـن سلـمان ـ رضي الله عنه ـ أن الـنبى ﷺ قال: « **إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ ، إذا رَفَعَ العبدُ إليهِ يَدَيْه، يَسْتَحِي أن يَرُدَّهُمَا صِفرًا خَائِبَتَيْنِ** » رواه أبـو داود والترمذى وابن ماجة، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع/ ١٧٥٧) .

وعن يعلى بن أمية ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « **إنَّ اللهَ حَيِيٌّ سِـتِّيرٌ ، يُحِبُّ الحياءَ والسِّتْـرَ، فإذا اغتسلَ أَحَدُكُم فَلْيَسْتَتِر** » رواه أحمد وأبو داود والنسائى، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع/ ١٧٥٦) وفى (الإرواء/ ٢٣٣٥).

(٩٥) **الجواد:** عن سعد بن أبى وقاص ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: « **إنَّ اللهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الكُرَماءَ ، جَوَادٌ يُحِبُّ الجَوَدَة ، يُحِبُّ مَعَالِى الأَخْلاقِ ، ويَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا** » رواه ابن عساكر والضياء، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع/ ١٨٠٠) .

(٩٦) **المعطى:** عن معاوية بن أبى سفيان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « **مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِـى الـدينَ، وإِنَّـما أنَا قَاسِـمٌ واللهُ المُـعْطِى.. الحـديـث** » رواه البخارى.

(٩٧) المنان: عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلى ثم دعا: «اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حى يا قيوم » فقال النبى ﷺ : « **لَقَدْ دَعَا اللهَ باسمه العظيمِ الذى إذا دُعِىَ به أَجَابَ ، وإذَا سُئِلَ بهِ أَعْطَى** » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والحاكم، وصححه شعيب الأرناؤوط فى تخريجه فى شرح السنة(٥/ ٣٧).

(٩٩) الحَكم: فى حديث لأبى شريح ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « **إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ وإليه الحُكْمُ** » رواه أبو داود والنسائى والبيهقى ، وصححه الألبانى فى (الإرواء/ ٢٦١٥)[١] .

---

(١) تم الاعتماد فى ذكر هذه الأحاديث على ما جاء فى تخريج كتاب: القواعد المثلى، لفضيلة الشيخ محمد صالح بن عثيمين تحقيق: الشيخ أشرف بن عبد المقصود.

■ مراجع الكتاب ■

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ **تفسير القرآن العظيم**: للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير، دار القلم .

٣ ـ **الجامع لأحكام القرآن**: للإمام محمد بن أحمد القرطبى، دار الريان للتراث .

٤ ـ **فتح القدير**: للإمام محمد بن على الشوكانى، دار إحياء التراث العربى .

٥ ـ **روح المعانى**: للإمام شهاب الدين الألوسى ، دار القلم .

٦ ـ **فى ظلال القرآن**: للأستاذ سيد قطب ، دار الشروق .

٧ ـ **التفسير القيم**: للإمام ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية .

٨ـ **تفسير النسائى**: للإمام أحمد بن شعيب النسائى، مكتبة السنة .

٩ـ **فتح البارى**: للإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى، دار الريان للتراث .

١٠ـ **شرح مسلم**: للإمام أبى زكريا يحيى بن شرف النووى، دار القلم .

١١ـ **عون المعبود**: للإمام أبى الطيب محمد العظيم آبادى، مؤسسة قرطبة .

١٢ـ **تحفة الأحوذى**: للإمام المباركفورى، مؤسسة قرطبة .

١٣ـ **سنن النسائى بشرح السيوطى**: للإمام جلال الدين السيوطى، دار المعرفة .

١٤ ـ **دليل الفالحين**: للإمام محمد بن علان، دار الريان للتراث .

١٥ـ **رياض الصالحين**: للإمام يحيى بن شرف النووى، المكتب الإسلامى .

١٦ـ **جامع العلوم والحكم**: للإمام ابن رجب الحنبلى، مؤسسة الرسالة .

١٧ـ **الأحاديث القدسية** : دار الفكر .

١٨ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**: للإمام محمد ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامى .

١٩ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة**: للإمام محمد ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامى .

٢٠ـ **صحيح الجامع الصغير**: للإمام محمد ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامى .

٢١ـ **ضعيف الجامع الصغير**: للإمام محمد ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامى .

٢٢ـ إرواء الغليل: للإمام محمد ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامى.
٢٣ـ مجموع الفتاوى: لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٢٤ـ شرح العقيدة الطحاوية: للإمام ابن أبى العز، مؤسسة الرسالة.
٢٥ـ معارج القبول: للإمام الحافظ أحمد الحكمى، دار الكتب العلمية.
٢٦ـ فتح المجيد: للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، دار السنة المحمدية.
٢٧ـ شرح أصول الاعتقاد: للإمام أبى القاسم اللالكائى، دار طيبة.
٢٨ـ درء تعارض العقل والنقل : لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكنوز الأدبية.
٢٩ـ بدائع الفوائد : للإمام ابن قيم الجوزية ، دار الكتاب العربى.
٣٠ـ مفتاح دار السعادة: للإمام ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية .
٣١ـ طريق الهجرتين: للإمام ابن قيم الجوزية، دار الحديث.
٣٢ـ مدارج السالكين: للإمام ابن قيم الجوزية، دار الحديث.
٣٣ـ إغاثة اللهفان: للإمام ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية.
٣٤ـ شفاء العليل: للإمام ابن قيم الجوزية، دار التراث.
٣٥ـ الفوائد: للإمام ابن قيم الجوزية، دار الريان للتراث.
٣٦ـ الداء والدواء: للإمام ابن قيم الجوزية، مكتبة النور الإسلامية.
٣٧ـ زاد المعاد: للإمام ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة.
٣٨ـ صيد الخاطر: للإمام ابن الجوزى، دار الكتب العلمية.
٣٩ـ اقتضاء الصراط المستقيم: لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية.
٤٠ ـ الأسماء والصفات: للإمام البيهقى، المركز الإسلامى للكتاب.
٤١ الصفات الإلهية: للدكتور محمد أمان الجامى، دار الإيمان.
٤٢ـ توحيد الصفات: للشيخ محمود عبد الرزاق، دار نور الإسلام.
٤٣ ـ النهج الأسمى: لمحمد الحمود النجدى، مكتبة الإمام الذهبى.

٤٤ـ **أسماء الله الحسنى**: للإمام ابن القيم، دار ابن كثير.
٤٥ ـ **المقصد الأسنى**: لأبى حامد الغزالى ، مكتبة صبيح.
٤٦ـ **القواعد الكلية**: للدكتور إبراهيم البريكان، دار الهجرة .
٤٧ـ **الأسماء والصفات**: للدكتور عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس.
٤٨ـ **القواعد المثلى**: للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، مكتبة السنة.
٤٩ـ **النور الأسمى**: لسليمان بن سامى.
٥٠ـ **أسماء الله الحسنى**: لرجائى بن محمد المصرى، مكتبة التوعية.
٥١ـ **الحد الفاصل** : للشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق، مكتبة الإيمان.
٥٢ـ **مختصر منهاج القاصدين**: للإمام ابن قدامة المقدسى.
٥٣ـ **الآداب**: للإمام البيهقى، مؤسسة الكتب الثقافية.
٥٤ـ **الترغيب والترهيب**: للإمام المنذرى. دار الريان للتراث.
٥٥ـ **الأذكار**: للإمام أبى زكريا يحيى بن شرف النووى.
٥٦ـ **الرحيق المختوم**: للمباركفورى، دار الوفاء.
٥٧ ـ **القواعد الحسان** : لرضا بن أحمد ، دار الفهيد .
٥٨ ـ **باطن الإثم** : لمحمد بن سعيد .
٥٩ـ **روية إسلامية لأحوال العالم المعاصر**: للأستاذ محمد قطب، مكتبة السنة.
٦٠ـ **المصطلحات الأربعة**: للإمام أبى الأعلى المودودى، دار الهجرة.
٦١ـ **بر الوالدين**: للإمام محمد بن الوليد القرشى، مؤسسة الكتب الثقافية.
٦٢ـ **حقوق الزوجين**: للإمام أبى الأعلى المودودى، المختار الإسلامى .
٦٣ـ **مناهل العرفان**: للزرقانى، دار إحياء الكتب العربية.
٦٤ـ **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية.
٦٥ـ **مختار الصحاح**: لمحمد بن أبى بكر الرازى، مكتبة لبنان.

■ فهرس موضوعات الكتاب ■